عين
Ein

دكتور صبرى أبو الخير سليم



تاريخ مصر فى العصر البيزنطى

تاريخ مصر فى العصر البيزنطى

دكتور صبرى أبو الخير سليم
كلية الآداب- جامعة المنوفية

الطبعة الأولى

١٩٩٧



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

ÉIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

تصميم الغلاف : منى العيسوى

الناشر : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

٦ شارع يوسف فهمى – اسباتس – الهرم – ج.م.ع – تليفون : ٣٨٥١٢٧٦– ٣٨٧١٦٩٣

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

6, Yousef Fahmy St., Spates - Elharam - A.R.E. Tel : 3851276- 3871693

محتويات الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

تاريخ مصر ، تاريخ عريق ضارب بجذوره فى أعماق الزمان . ولأن مصر أقدم أمة فى تاريخ البشرية، ولأن المصريين أصحاب تاريخ طويل وحضارة عريقة فإن تقسيم هذا التاريخ إلى عصور من أبرز سمات الكتابة فى تاريخ مصر . ومشكلة تقسيم العصور التاريخية مشكلة تفرض نفسها على مجال الكتابة التاريخية فى كل زمان ومكان ؛ فالتقسيم الثلاثى ، أو الرباعى ، الذى تبناه الأوربيون مثلا فى تاريخهم (عصور قديمة ووسطى وحديثة ، ثم معاصرة) يثير من المشكلات أكثر مما يطرح من الحلول ، كما أن من عيوبه الفاضحة أنه يتخذ من الحضارة الأوروبية حضارة مرجعية لكل الحضارات التى سبقتها من الزمان ويعكس وجهة النظر الأوروبية التى تتناقض أحيانا مع وجهات النظر لأصحاب الحضارات الأخرى ، ومنهم مصر بطبيعة الحال.

ومشكلة تقسيم التاريخ المصرى ما تزال مشكلة بلاحل لسبب بسيط ؛ هو أن أحداً لم يناقش هذه المشكلة . فالفترة القديمة من تاريخ مصر تشمل تاريخ الأسرات الفرعونية كما تشمل الفترة السابقة عليها ، ثم فترة الأسرة البطلمية وتليها فترة السيادة الرومانية فالبيزنطية التى انتهت بالفتح الإسلامى ودخول مصر فى طور حضارى جديد مختلف . وإذا كانت الفترة الأولى تسمى الفترة الفرعونية بتقسيماتها المختلفة (ما قبل الأسرات ، الدولة اليونانية التى تمصرت بعد أن ورث مؤسسها بطليموس الأول حكمها عن الاسكندر المقدونى قد منحت إسمها أيضا للفترة التى حكمت فيها مصر فعرفت باسم الفترة البطلمية . ثم جاء الفتح الإسلامى لمصر، وأطلق البعض على هذه الحقبة من التاريخ المصرى مصطلح «مصر الإسلامية» وقسمها البعض تقسيمات فرعية ، مثل عصر الولاة ، ثم الطولونيين فالإخشيديين وبعدهم الفاطميون ثم الأيوبيون والمماليك فالعثمانيون . وبدأ الارتباك واضحًا فى التسميات التى تتحدث عن تاريخ مصر الحديث أو المعاصر .

وفى خضم فوضى التقسيمات التاريخية لعصور التاريخ المصرى اختلطت التقسيمات التى قامت على أساس الأسرات الحاكمة بالتقسيمات التى تنسب إلى أمم مختلفة (مثل اليونان والرومان) والتقسيمات التى أرسيت على أساس دينى (مثل مصر الإسلامية ، أو العصر القبطى) ودخلت التقسيمات القائمة على أساس التقسيم الأوربى أيضا إلى ساحة الفوضى

(مصر القديمة/ مصر فى العصور الوسطى/ مصر الحديثة / مصر المعاصرة) . هكذا إذن ، كان التاريخ المصرى بطول امتداده فى أعماق الزمان فخراً للمصريين من ناحية ، بيد أنه كان مثار مشكلات كثيرة فى مجال الدراسات التاريخية من ناحية أخرى. ومن اللافت للنظر حقًا أن هذه المشكلات لم تطرح للمناقشة بأى صورة جادة حتى الآن .

إن تقسيم العصور التاريخية ضرورى للبحث التاريخى حقًا ، ولكن المشكلة تكمن فى عدم وجود تقسيم ثابت على أساس واحد. وفى ظنى ، وليس كل الظن إثمًا ، أن السبب وراء هذه المشكلة هو أننا مازلنا حتى الآن نستهلك النتاج الثقافى والعلمى للآخرين ؛ فقد استعرنا التقسيم الأوربى (الثلاثى ثم الرباعى) للتاريخ وقسمنا عصورنا التاريخية على نفس المنوال فجاء التقسيم مشوهًا مشوشًا مربكًا ، وأثار مشكلات جمة حتى على مستوى التدريس فى الجامعات . وفى الوقت نفسه احتفظنا بالتقسيمات القائمة على أساس الأسرات الحاكمة ، أو الحضارات ، أو الدين .

هذه المشكلة إحدى مشكلات البحث والدراسة التاريخية فى مصر والعالم العربى ، وربما اهتم فريق من المؤرخين المصريين والعرب ببحث هذه المشكلات أكثر من مرة ؛ فعقدت ندوات وكتبت أبحاث ودراسات ؛ ولكن المجال ما يزال فضاءً فسيحًا يحتاج إلى المزيد والمزيد .

وفى هذا الكتاب نجد مشكلة أخرى ، وهى عنوان الكتاب . فالمؤلف لم يجد ما يعبر به عن مضمون الكتاب سوى عنوان «مصر فى العصر البيزنطى» وهو محق تمامًا فى اختيار العنوان بيد أن «العصر البيزنطى» امتداد «للعصر الرومانى» . وقد عاش البيزنطيون ثم خرجوا من مسرح التاريخ دون أن يعرفوا أنهم بيزنطيون ، وإنما كانوا هم «الرومان» فى نظر أنفسهم «والروم» فى نظر المسلمين ، و«اليونان» فى نظر الغرب اللاتينى. والبحث التاريخى الحديث هو المسئول عن هذه التسمية ليفرق بين الحضارة الرومانية الكلاسيكية ، والحضارة التى تبلورت حول القسطنطينية منذ القرن الرابع لتجمع بين العناصر اليونانية والبلقانية والشرقية إلى جانب التراث الرومانى الكلاسيكى . لقد أراد قسطنطين الكبير للعاصمة التى بناها على ضفاف البسفور أن تكون روما جديدة Nea Roma ، وأن تكون لاتينية اللسان ، غربية الملامح ، ولكن المدينة أبت إلا أن تحمل إسم منشئها وصارت يونانية اللسان شرقية الملامح والسمات . ومن ناحية أخرى ، أبى المؤرخون إلا أن يطلقوا على هذه الحضارة إسمًا مشتقًا من اسم مستعمرة Byzantium الإغريقية القديمة . وهكذا كانت الدولة البيزنطية امتداداً للدولة الرومانية القديمة بحيث ثارت مشكلة بداية التاريخ البيزنطى وأراق المؤرخون كميات هائلة من الحبر، وسودوا أطنانًا من الورق دون أن يصلوا إلى حل لهذه المسألة .

وبطبيعة الحال، تنسحب هذه الحقيقة على تلك الفترة التى خضعت فيها مصر لحكم الإمبراطورية الرومانية الشرقية ، أو البيزنطية . وإذا كانت نهاية هذه الفترة واضحة وحاسمة لأنها قد جاءت نتيجة لدخول جيش المسلمين تحت قيادة «عمرو بن العاص» إلى مصر فى القرن السابع الميلادى، فإن البداية تظل مشكلة مطروحة ضمن مشكلات البحث التاريخى وهذا هو ما أوضحه الدكتور صبرى أبو الخير فى هذا الكتاب .

وبغض النظر عن مشكلة التقسيم الزمنى، فإن هذا الكتاب يقدم للقارئ صورة حية عن تلك الفترة الهامة من التاريخ المصرى. فقد دخلت مصر تحت راية المسيحية وحول الكنيسة المصرية تبلورت روح وطنية مصرية كانت كامنة طوال الفترة السابقة . كذلك كانت الحياة المصرية ماتزال تحمل آثار مدرسة الاسكندرية ، إلى جانب الموروث الحضارى المصرى كله .

والكتاب معالجة علمية طيبة لجوانب هامة من جوانب التاريخ المصرى فى تلك الفترة التى سبقت الفتح الإسلامى لمصر، ويوضح كثيراً من الأمور التى امتدت آثارها إلى مابعد اعتناق مصر الدين الإسلامى واتخاذها اللغة العربية لساناً . وإننى إذا أقدم للقارئ العربى هذا الكتاب أرجو أن يكون«مقدمة» لبحث شامل يقوم به الدكتور صبرى أبو الخير فى المستقبل . والله الموفق والمستعان

دكتور قاسم عبده قاسم

مدخـل

من المستحيل تحديد سنة بعينها أو حادثة بذاتها لتنهى بها عصراً من العصور التاريخية أو تبدأ بها عصرا آخر، كما أنه من المستحيل تحديد دخول المرء فى مرحلة معينة من مراحل العمر تحديدا دقيقا . فقد يكون هناك حادثة ما ذات تأثير ضخم فى منطقة من مناطق العالم، ولكن ليس لها أى أثر أو تأثير يذكر فى منطقة أخرى. وفى نفس الوقت يمكننا القول أن هذه الحادثة علامة من علامات التدهور أو الازدهار فى هذه المنطقة أو فى هذه الحضارة أو هذه الدولة . وأنها بداية لنهاية هذه الحضارة ، أو لازدهار هذه الحضارة . وقد عبر عن هذا أستاذنا الأستاذ الدكتور رأفت عبد الحميد فى تقديم القيم لترجمته لكتاب «العالم البيزنطى» بقوله : «وكما أن الانتقال من مرحلة إلى أخرى فى عمر الكائن الحى لايتم دفعة واحدة، وفجأة وبلا مقدمات ، كذلك فإن فترات التحول التى تفصل وتصل بين عصر وآخر قد تمتد إلى عدة قرون، وما حادثات التاريخ فى عصور النقلة هذه إلا علامات ومؤشرات على ذلك التحول، أو هى مؤثرات فيه تدفع عجلة التاريخ إلى عصر جديد » .

وقد دارت الاختلافات بين المؤرخين حول تحديد بداية العصور الوسطى ، وكل من هؤلاء المؤرخين له وجهة نظره والأدلة والبرهين التى تؤيدها مما أوجد عندنا العديد من النظريات حول اتخاذ حوادث بعينها أو سنوات لتحديد هذه البداية (1). وهو نفس الجدل ونفس النظريات التى دارت حول بداية التاريخ البيزنطى حيث أن التاريخ البيزنطى يبدأ مع بداية العصور الوسطى الأوربية وبنفس الحادثات (2).

١- على سبيل المثال لا الحصر انظر : كانتور ، العصور الوسطى الباكرة ، جـ٢ ، ترجمة د. قاسم عبده قاسم ، دار عين للنشر ، ١٩٩٥ ؛ موسى ، ميلاد العصور الوسطى، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد ، القاهرة، ١٩٦٧ ؛ جوزيف نسيم يوسف ، العصور الوسطى الأوربية وحضارتها، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٨؛ سعيد عاشور ، أوربا العصور الوسطى، جـ١ ، الانجلوا المصرية ، ١٩٧٦ .

٢- انظر على سبيل المثال لا الحصر أيضا : Bury , Later Roman Empire , I,

جيبون ، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها ، ٣ أجزاء ، ترجمة محمد على أبودرة ، لجيب اسكندر ، د. محمد سليم سالم ، القاهرة ، ١٩٦٩ ؛ هسى ، العالم البيزنطى ، ترجمة د. رأفت عبد الحميد ، دار عين للنشر ، ١٩٩٧ ؛ السيد الباز العرينى ، الدولة البيزنطية ، القاهرة ، ١٩٦١ ؛ حسنين ربيع ، دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية ١٩٨٦ .

فاتخذ فريق من المؤرخين من سنوات حكم دقلديانوس ٢٨٤-٣٠٥م نهاية للعصر القديم وبداية للعصور الوسطى، وأدلتهم فى ذلك أن حكم دقلديانوس قد اختلف فى شكله عما سبق من الأباطرة الرومان ، وقد وصل فى عهده تأليه الإمبراطور إلى منتهاه فأصبح الإمبراطور نصف إله ، مما أدى إلى حدوث الاضطهادات العظيمة بالمسيحيين ، وسمى عصره بعصر الشهداء ، كما اتخذ من عام ٢٨٤م بداية للتقويم القبطى، هذا فضلا عما أحدثه الإمبراطور دقلديانوس من إصلاحات عظيمة أحلت سقوط الإمبراطورية لقرنين من الزمان . فقد قسمّ الإمبراطورية إلى جزئين شرقى وغربى، كما أشرك معه مساعدين فى الحكم فى أقسام الإمبراطورية وصلوا إلى أربعة : اثنين برتبة أغسطس ، وآخرين برتبة قيصر ، كما أحدث لأول مرة أن نقل مقر الإمبراطور من روما معقل الوثنية وحاضرة الرومان إلى نيقوميديا فى شرق الإمبراطورية .

ومن الجدير بالذكر أن هذا لم يكن تقسيما أو انقساما للإمبراطورية ، فقد كان لتسهيل ومباشرة الحكم فى الولايات بعد اتساع حدود الإمبراطورية ، فقد كانت القوانين والتقاليد والأنظمة الرومانية لاتزال تحكم فى الشرق وفى روما. رغم كثرة الأزمات التى تعرضت لها الإمبراطورية سواء كانت سياسية أو اقتصادية أو عسكرية فى القرن الثالث الذى يؤكد عليه بعض المؤرخين أنه كان نهاية للعصر الرومانى القديم .

ويتخذ فريق آخر من عام ٣٢٣ م وعصر قسطنطين بداية للعصور الوسطى والعصر البيزنطى وخاصة عام ٣٣٠م ، وذلك لحدوث العديد من التغيرات الجذرية فى الإمبراطورية وتتمثل فى : اعتراف الإمبراطور قسطنطين بالديانة المسيحية كديانة شرعية فى الإمبراطورية فى مرسوم ميلانو سنة ٣١٣ مع شريكه ليكينيوس والتسامح مع المسيحيين وبعد انتصاره على مكسنتيوس سنة ٣٢٣ م وأصبح الإمبراطور الأوحد فى الإمبراطورية يتخذ طريقا جديدا نحو تزعم الأمور الدينية رغم عدم تفقهه فى الدين ، ورئاسته لمجمع نيقية المسكونى الأول سنة ٣٢٥م، وخروجه بعد ذلك بمشورة من وزيره وصديقه أيوزيبيوس بمبدأ جديد يجمع بين الدين والسياسة أو يفصل بينهما من ناحية أخرى وهو مبدأ «القيصرية البابوية» التى تجعل من الكنيسة مجرد هيئة تابعة للسلطة الإمبراطورية السياسية وأن الإمبراطور بيديه عزل وتعيين رجال الدين وعلى رأسهم البطريرك أو البابا هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى يؤكد على مبدأ «أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . وهذا ما جعل الأمور فى الشرق تسير فى سهولة

ويسر فى العلاقة بين الإمبراطور والبطريرك ، فى حين أن النزاع والصراع قد دار بين البابوية والإمبراطورية حول السمو ومن هو أرقى وأسمى من الآخر البابا أم الإمبراطور ؟ ومن بيده عزل الآخر البابا أم الإمبراطور؟ والذى استمر واحتد منذ سنة ١٠٧٣م باعتلاء البابا جريجورى السابع عرش البابوية فى روما، الإمبرطور الألمانى هنرى الرابع ، والذى انتهى بنهاية الطرفين البابوية وأسرة الهوهنشاوفن فى الثلث الأخير من القرن الثالث عشر سنة ١٢٦٧م .

هذا فضلا عن الإصلاحات والتشريعات التى قام بها الإمبراطور قسطنطين فى الإمبراطورية وبداية تسرب الجرمان بصورة واضحة داخل حدود الإمبراطورية . وقد توج الإمبراطور قسطنطين هذه المظاهر فى سنة ٣٣٠م حيث احتفل بتدشين مدينة القسطنطينية مكان مستعمرة بيزنطة القديمة على الشاطئ الأوربى للبسفور ، والتى كانت مركز لجماعة من التجار والصيادين من ميجارا فى العصر القديم أقاموها بعد أن استنبأوا الإله أبوللو فى مكان يقيمون عليه مستعمرتهم فدلهم على هذا المكان لمقابل المدينة العميان - خلقدونية- على الجانب الأسيوى للبسفور ، وسماهم العميان لأن أبصارهم عميت عن إقامة مدينتهم فى هذا المكان ، وكان زعيم هذه الجماعة يسمى «بيزاس» فسميت بيزنطة نسبة إليه . وسماها قسطنطين «روما الجديدة» حتى لايغيب عن خاطره العاصمة الرومانية العريقة ، ونقل إليها الكثير من التماثيل التى كانت تزين شوارع روما، بل وجماعة من الرعاع الذين كانوا يثيرون الشعب والفوضى فى شوارع روما حتى تظل أمام ناظريه صورة روما الوثنية ، إلا أن هذه المدينة أبت إلا أن تحمل اسم مؤسسها فأطلق عليها سكانها القسطنطينية نسبة إلى قسطنطين، وقد أرادها قسطنطين كذلك لاتينية اللسان ، رومانية الحضارة ، ولكنها أبت إلا أن تكون يونانية اللسان، هيللينية الحضارة ، مسيحية الدين. وأصبحت عاصمة الإمبراطورية الرومانية منذ ذلك الوقت .

وفريق ثالث يرى أن البداية تكون سنة ٣٦١م باعتلاء جوليان المرتد عرش الإمبراطورية حيث قام بتدمير الكنائس المسيحية وعاد إلى اضطهاد المسيحيين وأراد العودة بالدولة مرة ثانية فأعلن أنها الدين الرسمى للإمبراطورية . ولكننا نستطيع القول أن جوليان لم يرتد ، فهو فى الأساس لم يعتنق المسيحية فقد كان فيلسوفا وعاشقا للفلسفة اليونانية القديمة، ولكنه أخفى هذا عن عمه قسطنطين وعن أولاده طوال مدة حكمهم مخافة أن يضطهدوه ، ثم أعلن عن هويته باعتلائه العرش ، وهذا يعتبر كما يقولون «صحوة الموت للوثنية» فلم يرتد أحد عن

المسيحية ، ولم تطل مدة حكم جوليان فقد اغتيل سنة ٣٦٣م على يد أحد أتباعه إما بتحريض من المسيحيين الذين نكّل بهم وبمعابدهم ، وإما بتحريض من الفرس الذين كان يستعد بل واستعد بالفعل للدخول معهم فى معركة حامية ، كان ينوى فيها إنهاء خطر هؤلاء الفرس الذين طالما هددوا أمن الإمبراطورية الرومانية .

ويرى فريق آخر من المؤرخين أن عصر الإمبراطور فالنز وبصفة خاصة ما بين سنتى ٣٧٦ ، ٣٧٨م هو النهاية للتاريخ القديم والبداية للعصور الوسطى ، وذلك لأنه فى عام ٣٧٦م تحولت قبائل القوط من الوثنية إلى المسيحية الأريوسية ، وأن هؤلاء الجرمان يعتبرون من العناصر الأساسية التى شكلت أوربا العصور الوسطى إلى جانب المسيحية والبابوية ، هذا من ناحية ، ومن ناحية ثانية فإن موقعة أدرنة التى وقعت سنة ٣٧٨م وهزم فيها القوط الغربيين جيوش الإمبراطورية الرومانية شر هزيمة تعتبر من المعارك الفاصلة فى التاريخ ، وحدا فاصلا بين القديم والوسيط ، فقد أظهرت مدى الضعف والتدهور الذى حل بالإمبراطورية من جميع النواحى ، كما أظهرت للرومان مدى قوة هؤلاء الجرمان ، ومنذ ذلك الوقت بدأ الجرمان فى التسرب بسرعة شديدة داخل حدود الإمبراطورية ، كما قُتل الإمبراطور الرومانى فالنز نفسه فى هذه المعركة ، وفى ذلك يقول المؤرخ الرومانى المسيحى اميانوس مارسللينوس : «ولم يضع حدا لتلك الكارثة التى ليس ثمة سبيل لإصلاحها سوى الليل ، تلك الكارثة التى ستترك النتائج المترتبة عليها آثارها على مصير الإمبراطورية لفترة طويلة من الزمن» وينهى مؤرخنا بهذه المعركة التاريخ الرومانى .

ومن الملاحظ أن هذه المعركة لم تكن بهذه الضخامة فالإمبراطور فالنز قد أعطى آذانه لحاشيته التى خدعته وأوعزت إليه بأن هؤلاء الجرمان مجرد برابرة ليس لديهم دراية بالحرب، فاستهتر الامبراطور بهم وبقوتهم ودخل معهم المعركة بفرقة من جنوده وحرسه الخاص ، فقد كانت الجيوش الإمبراطورية محتشدة على الحدود الشرقية لمواجهة الخطر الفارسى، ولم يقدر الإمبراطور خطر وقوة هؤلاء الجرمان . كما أن الجرمان أنفسهم لم يكن فى نيتهم الإضرار بالإمبراطورية أوتدميرها كما أعلنوا بعد ذلك وبعد استيلائهم على الغرب الأوربى بأكمله ، ولكن الرومان هم الذين تحرشوا بهم وأثاروا حفيظتهم ضدهم فباعوا لهم لحوم الكلاب والميتة وحرضوا الأباطرة ضدهم ، وقد ظهرت نية هؤلاء الجرمان فى المسالمة عندما تعامل معهم الإمبراطور ثيودسيوس الأول بعد ذلك وجعلهم معاهدين للإمبراطورية وحماة لحدودها .

ويتمسك فريق من المؤرخين أيضا باعتبار فترة حكم الإمبراطور ثيودسيوس الأول ٣٧٩-٣٩٥م هى البداية لتاريخ العصور الوسطى، فقد قضى الإمبراطور ثيودسيوس تماما على الوثنية بإصداره مرسوما أقره مجمع القسطنطينية الأول باعتبار الديانة المسيحية الديانة الرسمية فى الإمبراطورية سنة ٣٨١م ، كما قضى على الكثير من البدع بين الفرق الدينية، واشتد فى عهده وخاصة بعد مجمع القسطنطينية الأول سنة ٣٨١م الذى دعا إليه، النزاع والانشقاق بين الكنائس وخاصة كنيسة الإسكندرية بعدما أغفلها هذا المجمع فى الأولوية فى ترتيب الكنائس .

ونقول إن مثل هذه الأحداث قد بدأت تدريجيا منذ عهد الإمبراطور قسطنطين فى مجمع نيقية سنة ٣٢٥ م .

وهناك فريق من المؤرخين يقف عند سنة ٣٩٥م ويتخذ منها بداية للعصر الوسيط والإمبراطورية البيزنطية ، فقد قسم الإمبراطور ثيودسيوس الأول الإمبراطورية بين ولديه «أركادسيوس» فى الشرق و«هونوريوس» فى الغرب ، وأصبح كل منهما يحكم فى منطقة من هذه المناطق مستقلا عن الآخر . ونقول إن هذا التقسيم كان تقسيما للميراث فحسب ، أما القوانين والتقاليد الرومانية كانت تحكم فى كلا الجانبين . كما سبق أن تم تقسيم الإمبراطورية إلى مقاطعات فى عهد دقلديانوس لتسهيل عملية مباشرة الإدارة السياسية. وكذلك قسم الإمبراطور قسطنطين الإمبراطورية بين أبنائه الثلاثة ، ولم حدث انقساما فى الإمبراطورية مهما كانت الظروف ، فظلت الإمبراطورية واحدة هى الإمبراطورية الرومانية .

وأيضا سنة ٤١٠م يعتبرها البعض بداية للتاريخ الوسيط ، فقد استطاع الجرمان اختراق الأراضى الواسعة من الدانوب وحتى إيطاليا ودخلوا روما ذاتها سنة ٤١٠م وقاموا بنهبها ، ويعرف هذا الحادث «بحادث نهب روما» . وواقع الأمر ، وإن كان هذا الحادث قد أكد قوة الجرمان التى بدأت فى الظهور فى موقعة أدرنة سنة ٣٧٨م، إلا أنه كان لذات الأسباب التى دفعت بهم للاعتداء على الأراضى الرومانية سنة ٣٧٨م ، إلى جانب الانتقام من الرومان لمقتل قائد الجيوش الرومانية «ستيلكو» والذى يرجع إلى أصول جرمانية ، واغتاله الإمبراطور بتحريض من حاشيته التى أوعزت إليه بأن هذا القائد يساعد بنى جلدته من الجرمان على الدخول فى الأراضى الرومانية ، رغم أنه منعهم من التقدم نحو الحدود الإيطالية .

أما عام ٤٧٦م فيتخذ منه معظم المؤرخين وخاصة أصحاب المدرسة القديمة تاريخا لنهاية العصور القديمة بنهاية روما وسقوطها فى يد الجرمان على يد القائد الاسكيرى أودواكر الذى قام بخلع الإمبراطور الطفل رومولوس أغسطولوس من العرش ، وإرسال شارات الإمبراطورية إلى الإمبراطور زينون Zenon القابع فى القسطنطينية . وبداية للعصور الوسطى والتاريخ البيزنطى، فقد أصبح هناك ما يعرف بالإمبراطور البيزنطى فى القسطنطينية ، والحكام من الجرمان فى روما وغيرها من الدويلات الجرمانية القائمة فى الغرب الأوربى .

وواقع الأمر أن الجرمان لم يعلنوا أنفسهم أباطرة أو ملوكا فى الغرب الأوربى عندما استولوا عليه، وأعلنوا أنهم نوابا عن الإمبراطور فى القسطنطين ، وأرسل أودواكر بالشارات الإمبراطورية إلى الإمبراطور زينون مع سفارة من لدنه ، وطلب منه أن يمنحه لقب «بطريق» أو نائبًا عنه فى إيطاليا ، ولكن الإمبراطور لم يرد على طلب أودواكر فسكت الأخير هو أيضا. ومعنى هذا أنه لم يصبح هناك إمبراطوريتين ، ولم تنقسم الإمبراطورية إلى بيزنطية ، ورومانية فى الغرب .

ويعتبر فريق من المؤرخين أن فترة حكم الإمبراطور جوستنيان ٥٢٧-٥٦٥م هى نهاية عصر الإمبراطورية الرومانية وما بعدها بداية العصر الوسيط فى التاريخ الأوربى، وذلك لأن الإمبراطور جوستنيان قد ارتقى العرش الإمبراطورى وهو يحمل فى عقله فكرة استرداد الجزء الغربى الذى استولى عليه الجرمان ، وتوحيد الإمبراطورية تحت حكم امبراطور واحد ، فقد اعتبر امبراطور رومانى وليس إمبراطورا بيزنطيا ، وبدأت حركة الاسترداد منذ سنة ٥٣٣م بعد أن قضى على ثورة «نيقة» التى أحدثتها أحزاب الملعب من الخضر والزرق سنة ٥٣٢م . وأرسل جيوشه بقيادة قائديه نارسيس وبليزاريوس اللذين استطاعا بالقوات الضخمة التى قادوها الانتصار على الدويلات الجرمانية فى ايطاليا وأسبانيا وشمال أفريقيا ، ورغم أن الحرب فى إيطاليا قد استمرت ثلاثين سنة وهى المعروفة «بالحرب القوطية» إلا أنهم استردوا هذه المناطق. ولأن مدة الحرب قد طالت فأثرت على الاقتصاد والإيطالى من جراء تدمير الأراضى الزراعية والمحاصيل والطرق التجارية ، كما أفلست الخزانة الإمبراطورية فى بيزنطة من جراء إعداد الجيوش ، ودفع الجزية السنوية الضخمة للفرس المتاخمين للحدود الشرقية وشراء السلم منهم، مما جعل الكثير من المؤرخين المعاصرين والمحدثين يلومون على جوستنيان ويرون أنه كان من المفروض عليه الحفاظ على أموال الدولة وعدم الدخول فى حرب خاسرة ، والتفكير فى عدم ضياع الولايات الشرقية فى بلاد الشام ومصر من حوزة الإمبراطورية

وضرورة الحفاظ عليها لتمويل الاقتصاد البيزنطى، خاصة وأن كثيرا من البلاد التى استردوها قد ضاعت من حوزة الإمبراطورية بعد موت جوستنيان فى أقل من ثلاث سنوات . ولذلك وصف المؤرخ البيزنطى المعاصر لجوستنيان «بروكوبيوس» عصر جوستنيان بالفساد والتدهور والانحلال .

هذا فضلا عن أن جوستنيان بأعماله الإصلاحية وخاصة القانونية المتمثلة فى المقننة Co-dex Justiniani ، والجامع Digesta ، ومبادئ القانون Institutions قد كتبت باللاتينية ، ماعدا المتجددات فهى التى كتبت باليونانية Novellae وعلى ذلك يصفه بعض المؤرخين بأنه آخر الأباطرة الرومان ، وأن عصره يعتبر العصر الرومانى المتأخر ، أو البيزنطى المتقدم فى رأى البعض الآخر .

ويقف عدد كبير من المؤرخين عند حادث «تتويج شارلمان» سنة ٨٠٠م ليتخذ منها بداية للعصور الوسطى، وأيضا بداية للتاريخ البيزنطى ، فقد اجتمعت الظروف السياسية والدينية والاجتماعية آنذاك لتجعل البابا يبادر بوضع التاج على رأس شارلمان عند نهوضه من الصلاة فى كنيسة روما ليلة عيد الميلاد ويعلنه إمبراطورا رومانيا ، هذا ليثبت البابا أن السلطة التشريعية الدينية المتمثلة فى البابوية أرقى وأسمى من السلطة التنفيذية السياسية المتمثلة فى الإمبراطور ، ومن ناحية ثانية ليسترد البابا مهابته عن طريق هذا الجميل ، فقد برأه شارلمان من التهم التى وجهت إليه ورده إلى الكرسى البابوى ، ومن ناحية ثالثة نكاية فى الإمبراطور البيزنطى القابع فى القسطنطينية حتى لايصبح الإمبراطور الأوحد فى العالم المسيحى فقد أصبح له مثيلا فى الغرب الأوربى. ولذلك لم يوافق شارلمان على هذا الصنيع «وأقسم أنه لو يعلم أن البابا سيفعل ذلك ما دخل الكنيسة ولا صلى فى هذه الليلة» كما يقول اينهارد . واكتفى شارلمان بلقب ملك الفرنجة واللومبارديين ، وقام بتتويج نفسه وولديه كما يحب ويرضى سنة ٨١٢م . حتى لايدخل فى نزاع مع الإمبراطورة البيزنطية «ايرين» آنذاك . هذا فضلا عما أحدثه شارلمان من نهضة شاملة أخرجت الغرب من الظلام إلى النور «النهضة الكارولنجية» .

ولكن بعض المؤرخين يقف ضد هذه النظرية ، ولم يوافق على إطلاق إمبراطورية على أملاك شارلمان ، فعلى أى شئ يكون إمبراطوراً ، على لاشئ ، بعض الأملاك فى فرنسا والبعض الآخر فى إيطاليا ، أين هى الإمبراطورية .

أما المؤرخ الإنجليزى «ادوارد جيبون» صاحب المؤلف الضخم عن الإمبراطورية الرومانية The Decline and Fall of the Roman Empire «اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية» لايعترف بما يسمى بالإمبراطورية البيزنطية ، وأن الإمبراطورية الرومانية ظلت قائمة منذ نشأتها وحتى سقوطها سنة ١٤٥٣م فى يد الأتراك العثمانيين . ولايذكر كلمة بيزنطى أو بيزنطية على طول هذا المؤلف ولكن يذكرها بالإمبراطورية الرومانية الشرقية . ويشاركه هذا الرأى Bury فى كل كتاباته عن التاريخ الرومانى . فالإمبراطورية الرومانية لم تنته إلا بسقوط القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م ومعنى هذا أنه لايوجد ما يسمى بالإمبراطورية البيزنطية .

وواقع الأمر أن الإمبراطورية الرومانية قد تعرضت لأزمة عنيفة وطاحنة فى القرن الثالث كادت تودى بها ، فقد كانت الأزمة من جميع النواحى السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية والعسكرية ، فضلا عن الأخطار الخارجية التى أحاطت بالإمبراطورية من كل جانب ، الفرس من الشرق ، والجرمان من الشمال والغرب . ومما زاد الطين بلة الحروب الأهلية حول العرش ففى فترة خمسين عاما ٢٣٥-٢٨٤ تولى عرش الإمبراطورية ستة وعشرون إمبراطورا ماتوا جميعهم اغتيالا إلا واحد، فقد ضاع كل شئ فى الإمبراطورية . وجاءت إصلاحات الإمبراطور دقلديانوس ومن بعده الإمبراطور قسطنطين لتؤجل سقوط الإمبراطورية إلى حين .

وعلى أية حال فقط ارتبطت الإمبراطورية الرومانية بعاصمتها روما . والنظرية السياسية تقول إنه لايوجد إمبراطورية رومانية بدون روما. وقد بدأت فكرة هجر روما إلى غيرها كعاصمة منذ أن فكر الإمبراطور دقلديانوس فى ذلك ونقل عاصمته إلى نيقوميديا فى الجزء الشرقى من الإمبراطورية لأسباب سياسية وعسكرية ، فكانت سابقة حذا الأباطرة حذوه فيها . فها هو الإمبراطور قسطنطين يشيد عاصمة جديدة «القسطنطينية» متناقضة تماما مع روما وقلبا وقالبا فى الحضارة والدين والجنس . ولذا نستطيع القول بأنها كانت صرخة الميلاد لعصر جديد وإمبراطورية جديدة . وما تلا ذلك من أحداث ما هو إلا تأكيد لهذا الميلاد، ففى عهد الإمبراطور ثيودسيوس الأول تم القضاء على الوثنية الرومانية، واعتبار الدين المسيحى الدين الرسمى للإمبراطورية. وسقطت روما فى يد الجرمان سنة ٤٧٦م . ومن عجائب الصدف أن روما بدأت بروموليوس وانتهت أيضا بروموليوس .

الفصل الأول
وضع مصر تحت الحكم الرومانى

معركة اكتيوم – مركز ولاية مصر– التقسيم الإدارى–
السكان – الأحوال الاقتصادية – الضرائب

فى سنة ٣٠ ق . م . فقدت مصر استقلالها كدولة ذات سيادة لتصبح ولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية بعد هزيمة أنطونيوس وكليوباترا على يد اكتافيوس فى موقعة اكتيوم البرية سنة ٣١ ق. م .

ولقد استهدفت روما من وراء استيلائها على مصر منع قيام أية دولة قوية فى المنطقة من الوقوف فى وجه توسعاتها . فقد خشيت أن تقوم سوريا أو مقدونيا فى ذلك الوقت بالاستيلاء على مصر فى أواخر عهد البطالمة ، خاصة وأنهم قد وصلوا إلى حالة من الضعف والتدهور[١].

وليس فى وسعنا الدخول فى تفاصيل هذه المعركة «اكتيوم» التى حولت مصر من حال الاستقلال إلى حال الاحتلال والتبعية[٢]. وترجع هذه الهزيمة إلى أسباب عديدة استيراتيجية وحربية ، فظهور الملكة كليوباترا أمام الجنود الرومان كقائدة شريكة فى هذه المعركة مع أنطونيوس وإنفاقها من الخزانة المصرية على إعداد هذه القوات ، جعلت القادة والجنود الرومان يتعضون من هذا الوضع واعتقدوا أنهم يحاربون من أجل مصر وليس من أجل روما مما جعلهم يتركون قوات أنطونيوس ويسرعون بالانضمام إلى قوات أكتافيوس ، ومن ناحية أخرى أن المكان الذى وقع اختيار كليوباترا وأنطونيوس عليه لم يكن استراتيجيا وكان موقعا حربيا سيئا فقد ركزا قواتهما البرية والبحرية فى خليج وشبه جزيرة اكتيوم عند المدخل الضيق لخليج

١– حسين الشيخ ، الرومان ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٩ ، ص٨٩–٩٤ .

٢– للتفاصيل عن أحداث المعركة أنظر : سيد الناصرى ، الرومان ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٢ ، ص٤٣٦–٤٤٠ ؛ عبد اللطيف أحمد على، التاريخ الرومانى، دار النهضة العربية ، ١٩٨٨ ، ص٣٥٩–٣٦٢؛ سيد الناصرى ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية ، ط٢ ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٨ ، ص١٨–٢٢ ؛ نفس المؤلف ، مصر تحت حكم الإغريق والرومان ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٩ ، ص١١٣ ، ١١٤ .

أمبراكيا ، وقاما بتوزيع بقية القوات على الساحل الغربى لبلاد اليونان لمسافة طويلة ، وكان من السهل اختراقه من قبل القوات المعادية ، كما كان مكشوفا من ناحية إيطاليا مركز مجئ القوات الرومانية التابعة لأكتافيوس . لأن كليوباترا اعتقدت أن هذا الوضع يمكن قواتها من الرجوع بسرعة إلى السواحل المصرية فى حالة الهزيمة . كما أصبح الطريق مقفولا أمام قوات انطونيوس ، وكليوباترا من ناحية إيطاليا والغرب خاصة بعد أن استولى اكتافيوس بقواته على تارنتوم وبرنديزى وأحكم خط الدفاع عنهما [١].

هذا فضلا عن الإشاعات التى أشاعها اكتافيوس حول أنطونيوس وعلاقته مع كليوباترا وزواجه منها. بما لايتفق مع التقاليد آنذاك[٢]، مما أدى إلى كراهية جميع الرومان لأنطونيوس، ولذلك عندما حاول الاستعانة بالحامية الرومانية فى برقة تنكر له قائدها «بيناريوس سكاريوس» مما جعله يقفل راجعا إلى الإسكندرية. وانتهى الأمر بانتحار أنطونيوس ، كما خافت كليوباترا أن تدخل روما كالسبايا ذليلة ففضلت أن تموت بلدغة الكوبرا - رمز تاج مصر السفلى وخادمة الإله رع- والتى تمنح لدغتها الألوهية والخلود [٣]. «وربما لتكون رمزا للمقاومة ضد الرومان ، وبانها عاشت وماتت مصرية» [٤].

ودخل أوكتافيوس الإسكندرية فى ٨ من مسرى الموافق أول الشهر السادس Mensis Secxtilis الذى سمى أغسطس نسبة إليه من عام ٣٠ ق. م . وصفح عن أهل المدينة ومنع الجنود من نهبها . كما أحضر له السكندريون تابوت الإسكندر الأكبر فوفى جثمانه ما يستحق من الاحترام والتبجيل ووضع عليه تاجا من الذهب كما نثر فوقه الزهور، «وعندما سألوه إن كان يرغب فى مشاهدة ضريح البطالمة، أجاب أنه رغب فى أن يشاهد ملكا لا أن يشاهد أمواتا»[٥].

١- عبد اللطيف أحمد على، مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، دار النهضة العربية، ١٩٨٨ ، ص٢٥ ، ٢٦ ،

٢- سيد الناصرى ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية ، ص١٨ .

٣- عبد اللطيف أحمد على، مصر والإمبراطورية ، ص٢٧-٢٩ ؛ سيد الناصرى، مصر تحت حكم الإغريق، ص١١٤ .

٤- سيد الناصرى ، تاريخ الإمبراطورية الرومانية ، ٢٠ .

٥- عبداللطيف أحمد على، مصر والإمبراطورية ، ص٤١ ، ٤٢ ؛ سيد الناصرى ، مصر تحت حكم الإغريق، ص١١٨ .

ومن الجدير بالملاحظة «أن شعب الإسكندرية لم يقاوم الفاتح الروماني، إما لأنه حسب حساب هذه المغامرة وعرف نتائجها مقدما، أو لأن شعب الإسكندرية كان قد ضاق ذرعا بحكم البطالسة وتخبطهم وصراعاتهم وقلقهم للوطنيين المصريين على حساب الإغريق ، ولهذا رأى هذا الشعب أن حكم الرومان لن يكون أسوأ من حكم البطالسة ، وربما كان هذا أيضا رأى الوطنيين المصريين أنفسهم » [١].

وقد أضفى على مصر أهمية خاصة تاريخها وثروتها وموقعها الاستيراتيجى ، مما جعل أغسطس يحتفل بانتصاره فى اكتيوم باصدار عملة تذكارية على أحد وجهيها صورة «التمساح المصرى رب الفيوم» «يوخوس أوسويك» وعلى الوجه الآخر كلمة Aegyptus Capta أى فتح مصر أو أن مصر قد سقطت . كما سجل فى الأعمال ضم مصر إلى ممتلكات الشعب الرومانى Aegyptism imperis populi Romani adieci ، وربما ذلك لأن مصر كانت آخر مملكة هللينستية تضم إلى روما[٢]. كما صدر قراراً عن السناتو الرومانى ينص على اعتبار الشهر السادس هو أغسطس سنة ٣٠ ق . م . يوم فتح مصر ، وفضلا عن أنه يعتبر عيد فى روما ، فيبدأ به التقويم المحلى فى مصر [٣].

ومن أجل الحفاظ على الأمن فى مصر وقمع الثورات سواء كانت السياسية أو الدينية، ولتوفير الأمان فى المعابد ودور العبادة ، والحفاظ على الثروات المصرية وخاصة طرق التجارة على البحر الأحمر ، عمل أوكتافيوس على وضع قوات عسكرية كبيرة العدد فى المناطق الرئيسية وقوات أخرى مساعدة لها فى المناطق الفرعية . وكانت الفرقة الأولى فى «نيقوبوليس» وهى الفرقة الثانية والعشرون ديوطاروس Legio XXII Deiotarian وتساعدها ثلاث كتائب من المشاة Cohortes . والفرقة الثانية عند بابليون «مصر القديمة» . والفرقة الثالثة فى طيبة فى جنوب الوادى مركز عبادة آمون ومعقل الحركات القومية ضد البطالمة ، وتعرف بفرقة قورينة الثالثة Legio III Cyrenaica وعُزِّزت بثلاث كتائب مساعدة عند «سوينى Syéne » أسوان ، وفى «أرسينوى» الفيوم ، وهرموبوليس «الأشمونين» حيث كانت محطة جمركية للسلع الواردة من مصر العليا ، «وقفط» وهى نقطة تجمع وتوزيع هامة للبضائع الآتية من مؤانى البحر الأحمر مثل ميوس هرموس Myos Hormos «أبو شعر

١- سيد الناصرى ، مصر تحت حكم الإغريق والرومان ، ص١١٨ .

٢- سيد الناصرى ، مصر تحت حكم الإغريق والرومان ، ص١١٧ .

٣- آمال الروبى، مصر فى عصر الرومان ، دار النهضة العربية ، ١٩٨١ ، ص٥٤ ، ٥٥ .

القبلى» ، وبرنيقى Berenicâ«الهراس» ولمنتجات المناجم والمحاجر بجبال الصحراء الشرقية بين النيل والبحر الأحمر. وقد وُضعت هذه المنطقة الأخيرة تحت قيادة قائد يحمل لقب قائد برنيقى Praefectus Berenicê أو قائد جبل برنيقى Praefectus montis Beremicês ، الذى كان يشرف فى نفس الوقت على المناجم والمحاجر بمساعدة مشرف Procuraton ، كل هذا لحراسة المناجم وتأمين الطرق الصحراوية بين النيل والبحر الأحمر وما فيها من آبار وصهاريج . كما وجدت ثلاث فصائل أو آليات Alae وزعت على المراكز الحيوية ومداخل البلاد مثل بيلوزيون لحراسة الطريق الساحلى حتى فلسطين أو من الإسكندرية حتى برايتونيوم «مرسى مطروح» وعلى الطرق الممتدة على جانبى الدلتا الدينتين وممفيس عند رأس الدلتا [١].

ولم تقتصر مهمة الجيش الرومانى فى مصر على الأعمال العسكرية والحربية ، فقام بأعمال الشرطة ، وحفظ النظام ، ومساعدة الإدارة فى جمع الضرائب ، وفى أعمال السخرة والخدمة العامة فى إصلاح الطرق، وبناء المرافق ، وشق الترع ، وتنظيف القنوات [٢]. وقد أسهمت موارد مصر فى سد نفقات هذه الفرق العسكرية ، وكذلك نفقات الحملات التى قام بها اكتافيوس بعد ذلك ، ومكنته من توزيع المكآفات على جنوده المسرحين [٣].

ولكى يشعر الرومان المصريين بالخضوع لهم ولسلطانهم وبأن مصر ولاية رومانية فرضوا عليهم «ضريبة الرأس» التى فرضت على الأفراد من سن ١٤ سنة وحتى سن الستين أو الخامسة والستين من العمر ، وتم إعفاء الرومان والسكندريين (الإغريق) من هذه الضريبة . كما فرضوا عليهم «ضريبة القمح» [٤]، التى قدرت بواقع أردب إلى أردب ونصف على كل أرورة من الأرض- أى على كل نصف فدان مصرى[٥].

وقد دار الجدل والخلاف بين المؤرخين حول وضع مصر فى الإمبراطورية الرومانية، فهل كانت ولاية مثلها مثل الولايات الأخرى ؟ أم كانت تابعة لأملاك أغسطس الخاصة ؟ أم كانت ولاية

١- انظر : عبد اللطيف أحمد على ، مصر والإمبراطورية ، ص٤٣-٤٦ ؛ آمال الروبى، مصر فى عصر الرومان ، ص٥٦-٥٧ ؛ حسين الشيخ ، الرومان ، ص٩٨ ؛ سيد الناصرى ، مصر تحت حكم الإغريق ، ص١١٩-١٢٣ ؛ العبادى ، مصر من الإسكندر الأكبر إلى الفتح العربى، الأنجلو المصرية ، ص١٥٤ .

٢- سيد الناصرى، مصر تحت حكم الإغريق والرومان ، ص١٢٣ .

٣- عبد اللطيف أحمد على ، التاريخ الرومانى، ص٣٦٢ .

٤- آمال الروبى ، المرجع السابق، ص٥٥ .

٥- سيد الناصرى، مصر تحت حكم الإغريق ، ص١٢٩ .

ولكن ذات طابع خاص ومميز ؟ فـفريق يرى أنها لم تكن ولاية Provincia ، بل كانت إحدى ممتلكات الإمبراطور التى تخضع لسلطانه خضوعا مباشرا استنادا إلى أنها لم تذكر فى أثر أنقرة» بأنها ولاية كما ذكرت أرمينيا على سبيل المثال ، ولاحتى فى السجلات الرسمية. وأنه جاء فى «أثر أنقرة» Monumentum Ancyranum على لسان اكتافيوس «ضمت مصر إلى سلطان الشعب الرومانى» . Aegyptum Imperio Populi Romani adieci وإن كان المؤرخ الرومانى «ديون كاسيوس» يذكرها ضمن الولايات التى أسندت إدارتها للإمبراطور فى عام ٢٧ ق . م فإنها لم تتأثر بالتسوية التى تمت فى ذلك العام بين الإمبراطور ورجال السناتو بل ظلت على ماهى عليه منذ سنة ٣٠ ق . م . بنظم مختلفة عما كانت تسير عليه الولايات الأخرى[١] .

وقد فسر فريق آخر نفس الجملة المذكورة فى «أثر أنقرة» على أنها لاتحتمل إلا تأويلا واحدا وهو أن مصر كانت ولاية استغلت مواردها كغيرها من الولايات لمصلحة الشعب الرومانى»، فقد وصفها أكثر من مؤرخ قديم بأنها ولاية ، واحتلها جيش رومانى ، ولم يحكمها وكيل مالى Procurator من وكلاء الإمبراطور ، بل حكمها والى من الفرسان ، كما أن إيراداتها كانت تحول إلى الخزانة المركزية فى روما وتضاف إلى أموال الولايات الأخرى لإطعام الشعب الرومانى وسد حاجياته فقد اتسمت سياسة أغسطس بالحذر والحرص ولم يستأثر بموارد مصر لنفسه [٢].

كما أن الكُتاب الرومان مثل تاكثيوس والذين زاروا مصر قد وصفوها بأنها ولاية Pro-vinicia ، وكذلك الكتاب الإغريق مثل سترابون سموها Eprachia أى ولاية، وفى خطبة جرمانيكوس التى عثر عليها فى الفيوم وصف مصر باسم ولاية[٣].

أما الفريق الثالث فيرى «أن مصر كانت ولاية ، غير أن الشعب قد فوض الإمبراطور فى إدارتها باسمه وفقا لتقاليدها الخاصة ومقتضيات ، ظروفها السياسية . وعلى هذا فإنها كانت ولاية ولكن من طراز فريد فى الإمبراطورية[٤]. وصاحب هذا الرأى المؤرخ ايدريس بل حيث

١- عبد اللطيف أحمد على ، مصر والإمبراطورية الرومانية ، ص٤٧ - ٥٠ وهوامشها .

٢- نفس المرجع ، ص٥٠ ، ٥١ .

٣- سيد الناصرى ، مصر تحت حكم الإغريق ، ص١٣٣ .

٤- عبداللطيف أحمد على، مصر والإمبراطورية ، ص٥١ ، ٥٢ .

يقول[١] : «وبمقتضى التسوية التى تمت عام ٢٧ ق . م كانت حكومة الإمبراطورية الرومانية من حيث الشكل - إن جاز لنا أن نستعمل مصطلحا شائعا اليوم- حكومة ثنائية . فلم يكن أغسطس إمبراطورا مطلق السلطة ، وإنما كان بمثابة المواطن الأول فى جمهورية حرة Princeps Civitatis وقد وزعت السلطة فى الولايات بينه وبين مجلس الشيوخ أو السناتو Senatus ، وكما كان الحال فى الماضى ، فقد تولى إدارة الولايات التابعة للسناتو حكام مسئولون أمام هذه الهيئة يحمل كل منهم لقب بروقنصل Proconsule أو برو بريتور Pro praetore ، وأما تلك التابعة للإمبراطور فقد نصب عليها حكام يحمل كل منهم لقب نائب أغسطس Legatus Augusti- Pro Praetore، وكانوا يختارون عادة من طبقة السناتو. هكذا كان النظام الجديد من حيث الشكل ، ولكن جوهره كان مختلفه عن ذلك بعض الاختلاف . وليس من الدقة فى شئ أن يقال ، كما يردد بعض الباحثين ، إن الولايات التى كانت تتطلب وجود حاميات عسكرية بها هى التى خصصت للإمبراطور، بينما خصصت للسناتو التى لم تتطلب ذلك ، فقد سمعنا عن حكام الولايات سناتورية يتولون قيادة الجيوش . وكان أغسطس يتمتع فوق ذلك بسلطة أكبر وأعلى maiusimperium من سواها كانت تخوله الاعتراض على أى سلطة أخرى فى كافة أرجاء الإمبراطورية . والتدخل أحيانا فى شئون الولايات السناتورية . والواقع أنه احتكر السلطة العسكرية ، فقد أحرز أغسطس مركزه بحد السيف ، وكان السيف آخر الأمر هو الذى يمكنه من الاحتفاظ به، وإلى جانب السيف رضاء المحكومين عنه » .

ويرى أحد المؤرخين أن عدم ذكر مصر مقرونه بلفظ ولاية فى أثر أنقرة هو من باب الصدفة وليس مقصودا ، إذ أن اسم مصر كان أشهر من أن يسبق بلفظ ولاية، كما أن أثر أنقرة ذكر اسم بانونيا والليريا دون ذكر ولاية . كما أن مصر كانت وحدة جغرافية محددة بعكس الولايات التى خلقها الرومان عن طريق تقسيم مناطق أو اقتطاع أراضى أو تعديل الحدود[٢].

ولأهمية مصر بثروتها الزراعية فقد أصبحت مستودعا للقمح الذى تعيش عليه روما ، ولذلك حرص أغسطس على تأمينها من الوقوع فى يد أعدائه أو المنافسين ، فعين عليها واليا من طبقة الفرسان الذين يثق فيهم بعكس رجال السناتو من الطبقة الأرستقراطية ، ويحمل لقب حاكم أوورال Praefectus، وأسندت إليه قيادة الفرق العسكرية الرومانية ، ولم يكن مسئولا

١- سيد الناصرى، مصر تحت حكم الإغريق والرومان ، ص١٢٣ ، هامش ١ .

٢- عبد اللطيف أحمد على، مصر والإمبراطورية ، ص٥٢-٥٤ .

إلا أمام الإمبراطور نفسه[١]. ومنح على غير العادة ومناقضا للقانون الرومانى سلطة الإمبريوم imperium ليتمكن من قيادة الجيوش الرومانية المرابطة فى أقاليم مصر[٢]. وأصبحت له السلطات الكافية فى إدارة الولاية لايحدها الإمبراطور [٣]. وأطلق على هذا الوالى لقب «والى الإسكندرية ومصر Praefectus Alexandriae et Aegypti لأن مصر كانت إقليما والإسكندرية إقليما آخر[٤]. فلم يكن الحكم الرومانى يعترف بأن الإسكندرية جزءا تابعا لمصر بل مدينة مميزة فقد كانوا يقولون الإسكندرية المتاخمة لمصر Alexandriaed Aegyptum [٥].

وقد أصدر أغسطس قانونا يحرم على رجال السناتو والشخصيات البارزة من الرومان دخول مصر أو الإقامة فيها إلا بتصريح خاص من الإمبراطور [٦]، فيقول تاكيتوس : «إن من بين أسرار توطيد حكم أغسطس أنه أمن مصر عن طريق منع أعضاء السناتو والشخصيات البارزة من الفرسان والرومان من دخولها إلا بإذنه ، وذلك حتى لايصيب أحد إيطاليا بمجاعة عن طريق السيطرة على تلك الولاية ومنافذها البرية والبحرية فيصمد بقوة مهما كانت صغيرة أمام جيوش عظيمة [٧].

وكذلك حرم على أعضاء السناتو تولى مناصب قيادية فى مصر الرومانية [٨]. «وسواء أكان هذا التحريم يشمل هيئة السناتو بمقتضى قانون خاص أم تحريما يشمل أعضاءه وغيرهم بمقتضى السلطة العليا imperium maius التى فى يد الإمبراطور، فإن خلفاءه احتذوا هذه القاعدة التى غدت بمثابة سر من أسرار توطيد السيادة arcana ، ولم يخرجوا عنها إلا بعد أن تدهورت أحوال مصر الاقتصادية وفقدت مركزها الفريد فى الإمبراطورية » [٩]. وإمعانا من

١- مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى، ص٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ .

٢- آمال الروبى ، المرجع السابق ، ص٦٠ .

٣- حسين الشيخ ، المرجع السابق ، ص٩٨ .

٤- عبد اللطيف أحمد على، مصر والإمبراطورية ، ص٥٤ ، ٥٥ ،

٥- سيد الناصرى ، مصر تحت حكم الإغريق ، ص١٣٥ .

٦- عبد اللطيف أحمد على ، مصر والإمبراطورية، ص٥٦ .

٧- آمال الروبى ، المرجع السابق ، ص٦١ .

٨- سيد الناصرى، مصر تحت حكم الإغريق والرومان ، ص١٣٤ هامش ١ .

٩- عبد اللطيف أحمد على، مصر والإمبراطورية ، ص٥٦، ٥٧ .

أغسطس فى تأمين مصر وفرض سيادتها عليها أحال بين السكندريين وبين أن يكون لهم مجلس تشريعى Boule ، كما منعهم من القيام بأى نشاط سياسى منظم [١].

وكما يقول ايدريس بل[٢] : «وبينما كان أغسطس يحرص فى روما على أن يظهر فقط بمظهر المواطن الأول ، فإنه كان فى مصر وريثا للبطالمة ، وفى نظر المصريين فرعونا و«سيد الأرضين» وترسم صوره على الآثار مقرونة بالألقاب الإلهية المألوفة . وكان نائبه فى مصر ، المسمى والى مصر محظوراً عليه كأى ملك من ملوك مصر القدامى ، أن يركب النيل فى زمن الفيضان ، وظلت الأرض الحكومية تحمل اسم «الأرض الملكية ، وظل كل إقليم محتفظًا «بكاباتن الملكى» .

وتم تقسيم مصر إلى ثلاثة أقاليم : ١- الدلتا ٢- الأقاليم السبعة وأرسينوى ٣ - طيبة أو مصر العليا . ويحكم كل إقليم من هذه الأقاليم حاكم يجمع فى يديه السلطة المدنية فقط ويلقب بلقب Sterategos . وكلهم يدينون بالولاء لوالى مصر والإسكندرية Praefectus والذى يجمع فى يديه السلطتين المدنية والعسكرية ، ومقره الإسكندرية ، ويعين من قبل الإمبراطور ويستمد سلطاته منه، وهو الرئيس الإدارى ، وقائد الحامية الرومانية ، والقاضى الأعلى، وهو الذى يقوم بتعيين الموظفين فى جميع الإدارات والإقاليم [٣]. ويساعد الوالى من الناحية المالية موظفان كبيران أحدهما Dioikto ويشرف على الدخل العام المنتظم للولاية ، والآخر Idioslogos ويشرف على أى دخل استثنائى أو غير منتظم للولاية. ووجد المسئول المالى فى كل مقاطعة من المقاطعات الثلاث. كما وجد من الناحية القضائية قاضى القضاة Archidicastes والذى أصبحت وظيفته إدراية حيث استولى المستشار القانونى Juridicus على مهامه [٤].

وانقسمت الأقاليم إلى عدد من المراكز «الطوبارخيات Toparchiai» ويرأس كل مركز مأمور بلقب توبارخيس Toparches يساعده مجموعة من الموظفين، والكثيرة ورئيس جهاز

١- آمال الروبى، المرجع السابق ، ص٦١ .

٢- مصر من الإسكندر ، ص٩٤ ، ٩٥ .

٣- آمال الروبى ، المرجع السابق ، ص٦٨-٧٢ .

٤- حسين الشيخ ، المرجع السابق، ص١١١ ، ١١٢ .

الشرطة والمشرف على صومعة المركز . كما انقسم كل مركز إلى عدد من القرى، بكل قرية مجموعة من الموظفين على رأسهم كاتب القرية Komogrammateus ، ومجموعة من الحراس Pholakes ويلقب رئيس الحرس بلقب archephodos للمحافظة على الأمن والنظام والتحقيق في بعض القضايا الصغيرة (١).

ومن الجدير بالذكر أن الرومان لإحكام قبضتهم على مصر والمصريين حاولوا بصفة خاصة إضعاف الكهنة كطبقة متميزة في المجتمع المصري بمصادرة الكثير من أراضيهم «أراضي المعابد» ، وأدخلوا بقية الأراضي تحت الإشراف الروماني لتؤدي دورها فقط في الإنفاق على المعابد ، كما عدلوا من ضريبة الرأس التي كان الكهنة معافين منها ، فأعفوا عدداً محدداً فقط . هذا فضلا عن أنهم أدخلوا المعابد تحت الإشراف الإداري بغرض تفتيت النفوذ الأدبي لهؤلاء الكهنة (٢).

وقد تميزت الإدارة في مصر في العصر الروماني بالمركزية حتى نهاية القرن الثاني الميلادي إلى أن جاء الإمبراطور «سبتيموس سفيروس» سنة ٢٠٠ م إلى مصر وأقر بحق مدينة الإسكندرية وعواصم الأقاليم في إقامة المجالس التشريعية Boulé . كما سوى قانون «كاركلا» سنة ٢١٢م بحق المواطنة لجميع سكان الإمبراطورية بين كل الأجناس التي تقيم داخل أراضي الإمبراطورية الرومانية والخضوع لضريبة الخمس على أيلولة التركات والخضوع لضريبة الرأس . أما إصلاحات الإمبراطور دقلديانوس وتنظيمات الإدارية فقد أعطت لمصر صفة المحلية (٣).

ومن الناحية السياسية عمل الرومان على تأمين حدود مصر الجنوبية والشرقية والغربية ، كما قمعوا الثورات الداخلية التي سرعان ما اشتعلت ضدهم سنة ٢٩ ق.م ، وثورات اليهود التي أحدثوها بنزاعهم المستمر سواء مع الرومان والإغريق أو المصريين (٤).

١- آمال الروبي، المرجع السابق، ص٣٠٧-٣١٦ .

٢- حسين الشيخ، المرجع السابق، ص١١٣ .

٣- نفس المرجع ، ص١١٥-١١٦ .

٤- انظر التفصيلات في : حسين الشيخ ، المرجع السابق، ص٩٩ ، العبادي، المرجع السابق، ص١٦٣-١٧١ .

أما من الناحية الاجتماعية فقد عاش فى مصر فى العصر الرومانى العديد من الجنسيات المختلفة مثل الرومان والسكندريين الاغريق والمصريين واليهود وغيرهم [١].

وانقسمت الأراضى الزراعية فى العصر الرومانى إلى نوعين :

أ- أراضى الدولة ، والتى انقسمت إلى :

١- الأراضى الملكية Basilicge الخاصة بالملك .

٢- أراضى الدولة Demosiage وهى الأراضى الرملية على هامش الصحراء .

٣- أراضى الضياع الإمبراطورية Qusiage وهى الضياع وأراضى الهبات من أملاك البين المالك .

٤- أراضى المعابد Hieraga .

٥- أراضى المستنقعات Limintikege .

٦- أرض الدخل Prosodosge وهى الأراضى المصادرة من أصحابها لفترة مؤقتة لعدم تأدية ما عليها من التزامات وضرائب .

ب- أراضى الامتلاك الخاصة، وهى الأراضى الخاصة بالأفراد «الأملاك الخاصة» فى القرى والمدن[٢].

وأما من الناحية الاقتصادية المتمثلة فى الزراعة والصناعة والتجارة ، فقد ازدهرت هذه النواحى فى مصر ازدهاراً كبيراً ، فازدهرت الكثير من الصناعات مثل النسيج والزجاج والبردى وغيرها ، ونشطت التجارة الداخلية والخارجية نتيجة موقع مصر المتميز ، وأصبحت مدينة الإسكندرية من أكبر الموانى التجارية فى العالم آنذاك[٣] .

١- حسين الشيخ ، المرجع السابق، ص١٠٦-١٠٩ ؛ نفتالى لويس ، الحياة فى مصر تحت الحكم الرومانى، ترجمة وتقديم د. السيد جاد ، الاسكندرية ، ١٩٩٣ ؛ ص١٨-٣٦ ؛ وسوف نقوم بتفصيل ذلك عند الحديث عن المجتمع فى العصر البيزنطى.

٢- آمال الروبى، المرجع السابق، ص١٦٦-٢٣٥ .

٣- حسين الشيخ ، المرجع السابق، ص١٠٠-١٠٢ ؛ آمال الروبى، المرجع السابق، ص٢٤٧-٢٥١ ؛ وسوف نقوم بتفصيل هذه الأوضاع فى الحديث عن النشاط الاقتصادى فى مصر فى العصر البيزنطى.

ولأن العلاقة الأساسية بين مصر والعرش الروماني ارتكزت على القمح والمال الذى تصدره مصر إلى الخزانة الإمبراطورية فى روما، فقد استغل الحكام الرومان الشعب المصرى وقهروه وكسروا ظهره وأثقلوا كاهله بما فرضوه عليه من الضرائب المتنوعة والمتعددة جعلت الكثيرين منهم يتركون بلادهم وأراضيهم فراراً من ثقل الضرائب وعنت وتعسف الجباة إما إلى المعابد أو الدخول فى تبعية كبار الملاك لحمايتهم . واختلفت الضرائب ما بين نقدية ونوعية .

وتمثلت هذه الضرائب فى ضريبة القمح : وهى أهم الضرائب ، وتراوحت ما بين ٧٥. إلى ٢ أردب عن كل أرورة فى الأراضى الخاصة. أما أراضى الدولة فقد تراوحت فيها ما بين ١-٧ أردب عن الأرورة . بالإضافة إلى ١٪ من محصول القمح رسم عمليات التحصيل والتخزين والنقل والشحن ، وعرف بالنولون .

ضريبة الميرة العسكرية : Annona Military ، على أراضى الغلال لتموين القوات العسكرية ومدها بالقمح والشعير والنبيذ .

ضريبة ربط البرسيم الجاف لعلف الخيول فى الجيش الرومانى وهى رابطة عن كل أرورة .

ضريبة الفاكهة والخضروات : وهى ضريبة نقدية فرضت على أراضى الكروم والنخيل والفاكهة والخضروات وتتراوح ما بين ٢٠-٤٠ دراخمة .

ضريبة تقوية الجسور والقنوات : Chomatikon

ضريبة الحيوانات والخنازير :

ضريبة الرأس : Laographia وباللاتينية Tributum Capitis وفرضت على الأفراد الذكور من سن الرابعة عشر إلى سن الستين أو الثانية والستين ، وكان التعداد يجرى للسكان لذلك كل ١٤ سنة وتختلف فى مقدارها من إقليم لآخر ، ومن جنسية لأخرى .

ضريبة التاج : Aurum Coronarium ، وكانت فى بادئ الأمر اختيارية يدفعها الأفراد عند تولى الأباطرة وفى مواكب النصر والاحتفالات بالأعياد التذكارية ، ثم تحولت فى نهاية القرن الأول الميلادى إلى ضريبة إجبارية سنوية لصالح التاج الإمبراطورى [1].

١- نفتالى لويس ، المرجع السابق ، ص١٥٦-١٥٨ ؛ آمال الروبى، المرجع السابق، ص٢٥٢ -٢٦٠ ؛ حسين الشيخ ، المرجع السابق، ص١٠٢ وسوف نقوم بتفصيل ذلك فى الحديث عن الضرائب فى العصر البيزنطى.

الفصل الثانى
الحياة الدينية المسيحية

انتشار الديانة المسيحية فى مصر- الاضطهادات الدينية – مدرسة الإسكندرية : كلمنت – أوريجينى- الامبراطور قسطنطين ومرسوم ميلانو – المجامع الدينية : مجمع نيقية ٣٢٥- مجمع القسطنطينية الأول ٣٨١ – مجمع افسوس الأول ٤٣١ – مجمع افسوس الثانى ٤٤٩ – مجمع خلقدونية ٤٥١ وانشقاق كنيسة الإسكندرية واستقلالها – الإمبراطور هرقل ومذهب الإرادة الوحدة واضطهادات الرهبنة والأديرة : القديس أنطونيوس – القديس باخوم .

انتشار الديانة المسيحية فى مصر :

ليس لدينا معلومات أكيدة تؤكد انتشار الديانة المسيحية فى مصر فى القرن الأول الميلادى[1]. ولكن الوثائق تؤكد أن الديانة المسيحية قد جاءت إلى مصر مع القديس مرقص أحد تلامذة السيد المسيح عليه السلام ، وبنى كنيسته المعروفة باسمه فى الاسكندرية، وأول من اعتنق الديانة المسيحية على يد القديس مرقص أحد اليهود بالإسكندرية [2]، وهذا يدل على أن المسيحية قد جاءت إلى مصر فى القرن الأول الميلادى. فيذكر ايوزيبيوس أن القديس مرقص حضر بنفسه إلى مصر وبشر للدين المسيحى فى الاسكندرية فى أواسط القرن الأول الميلادى، وأن أول أتباعه كان يهوديا ويعمل اسكافيا»[3].

وليس يبعيد أن المسيحية قد دخلت مصر عن طريق التجارة مع التجار ، ، أو فى مواكب الجيوش مع الجنود . وقد ظهرت أوراق البردى التى تحوى نصوصا من إنجيل يوحنا وإنجيل آخر غير الأناجيل الأربعة التى ترجع إلى القرن الأول الميلادى، هذا فضلا عن الكتابات

١- بل، مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى، ترجمة د. عبداللطيف أحمد على، دار النهضة العربية ١٩٦٨ ، ص١٢٧ .

٢- العرينى ، مصر البيزنطية ، دار النهضة العربية ، ١٩٦١ ، ص٨-١٠ .

٣- العبادى، مصر من الاسكندر إلى الفتح العربى ، الأنجلو المصرية ، ص٢٧٦ .

المسيحية الأخرى [١]. ومنذ ذلك الوقت بدأ التبشير بالديانة الجديدة وأسست المدرسة المسيحية التى تدعوا إلى الدين الجديد didascalée، إلا أن البرديات الخاصة بمصر الوسطى تشير إلى أن المسيحية قد جاءت إلى مصر فى بداية القرن الثانى الميلادى ولم ينته القرن إلا والوجه القبلى كله قد اعتنق الدين الجديد «المسيحى» هذا فضلا عن مدينة الاسكندرية [٢].

وعندما حلت سنة ٢٥٠م كانت الديانة المسيحية قد انتشرت فى الشرق أكثر منها فى الغرب، وانتشرت بين الطبقات الدنيا والوسطى ، وازداد نشاط قادة المسيحية فى المجتمع، وقد رفض عدد كبير من المسيحيين العمل فى الحكومة ، واتخذوا اتجاها مناقضا لقوانين الدولة مما جعلهم يبدون كما لو كانوا يريدون تكوين دولة داخل الدولة State Withen the State هذا فى حالة أن الدولة كانت تقوم بعبادة الآلهة وتقديس الإمبراطورPax Deorum [٣].

وقد ظهر المسيحيون فى بداية الأمر من وجهة نظر الأباطرة كطائفة من طوائف اليهود، ولكن سرعان ما ظهروا بخلاف ذلك خاصة باجتماعاتهم السرية ، ورفضهم الإلتحاق بالجندية ووظائف الحكومة الرومانية واتخاذهم الأحد أول أيام الأسبوع وليس السبت ، وعدم إيمانهم بأية عقيدة أخرى ، كما رفضوا تقديم القرابين للآلهة وتقديس الإمبراطور ، ولأنها انتشرت بين الطبقات الفقيرة فنظر إليها الرومان على أنها ثورة اجتماعية ويريدون إقامة دولة داخل الدولة وهذا أخطر ما تحاول الإمبراطورية القضاء عليه ومحاربته [٤].

وقد تميزت الديانة المسيحية بالعديد من المميزات التى ساعدت على سرعة انتشارها فى ذلك الوقت فقصة السيد المسيح والإيمان ببخار مصلوب ، وباتحاد دائم فيه عن طريق الأسرار المقدسة قد اختطف من الناس قلوبهم وأذهل عقولهم [٥]. ويرى الدكتور روادفولر Warde Fowler أن التعاليم المسيحية تتميز بالمرونة والجدة الدائمة وبأنها صالحة لكل زمان ومكان

١- نفس المرجع ، ص٢٧٦ ، ٢٧٧ .

٢- العرينى ، المرجع السابق ، ص١١ .

3- Sinnigen & Boak , A History of Rome , A . D . 565 , Sixth edition , London , p. 397 .

٤- سعيد عاشور، أوربا العصور الوسطى، جـ١، الطبعة السادسة، الأنجلو المصرية، ١٩٧٥، ص٣٦،٣٧ .

٥- كولتون ، عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ، ترجمة . د. جوزيف نسيم يوسف ، الطبعة الأولى، دار المعارف ، ص١٩٦٤ ، ص٧ .

فيقول : «وكما كانت المسيحية غرسة ، وإن نمت فى أرض أنبتت محاصيل أخرى ، فلاتزال جديدة كل الجدة من حيث تكوينها وحيوية عنصرها »[١] . وقد فاقت قصة السيد المسيح ومعجزاته القصص الدينى المعاصر آنذاك ، كما أنها مستمدة من كتاب مقدس يسهل فهمه وتفسيره ، فهى ديانة سماوية لجميع البشر وليس لطائفة دون أخرى «للعالمين» . كما يرجع الفضل فى المقام الأول إلى القديس بولس فى انتشار الديانة المسيحية حيث أنه وضع قواعد اللاهوت والفلسفة المسيحية ، وأرسى دعائم الكنيسة الكاثوليكية [٢].

كما قامت الديانة المسيحية بعملية التوفيق بين المعتقدات الدينية المتعارضة Syn-cretism، فقد كانت معتقداتها وطقوسها متشابهة مع ما كان موجوداً فى العبادات الأخرى مثل اليهودية ، وحركة التصوف المنتشرة آنذاك ، حتى الوثنية التى كانت فى مصر وبلاد فارس وبلاد اليونان فكل هذه الديانات عرفت مفهوم : الموت والبعث ، وتناول القربان المقدس والتعميد ، والخلاص ، والأخوة الإنسانية تحت أبوة الله. كما أن إله المسيحية هو إله اليهود والذى لايخفى عليه شئ ، وهو فرد صمد فى وحدانيته وقدرته لشعب مختار وبظهور المسيحية شملت الألوهية كل البشر . وأن عيسى عليه السلام كان شخصية تاريخية فذة [٣].

هذا فضلا عن أن وحدة العالم الرومانى ، وكثرة وسهولة الاتصال بين مختلف البيئات أدى إلى تبادل وانتقال الثقافات والأفكار حتى أصبحت مجتمعة فى مدينة الاسكندرية . والمدارس الفلسفية النامية التى اصطبغت فلسفتها بالصبغة والطابع الدينى الروحانى ، ومن أعلام هذه المدارس فيلون وأفلوطين ، إلى جانب الجذب الروحى، والمدرسة الغنوصية الأدرية التى يعتقد أصحابها فى فكرة إلهية عليا ، وهى فكرة صوفية تقول بأن المعرفة هى الأساس فى الوصول إلى المعرفة الإلهية ، وقد أثرت هذه الأفكار التصوفية فى الديانة المسيحية مما أدى إلى ظهور التصوف الروحانى المسيحى فيما بعد[٤]. وكذلك انتشار اللغة اللاتينية فى الغرب ، واللغة اليونانية فى الشرق [٥].

١- نفس المرجع ، ص١٧ .

٢- عاشور ، المرجع السابق، ط٢ ، ص٣٤ .

٣- هلستر ، أوربا فى العصور الوسطى ، ترجمة د. محمد فتحى الشاعر، الانجلو المصرية ، ١٩٨٨، ص٢٤ ، ٢٥ .

٤- العبادى، مصر من الاسكندر ، ص٢٧٧-٢٧٨ .

٥- عاشور ، المرجع السابق، جـ١ ، ص٣٤ .

وبدأت حركة الاضطهادات العنيفة ضد المسيحيين منذ نهاية القرن الثانى الميلادى وبداية القرن الثالث فى عهد الإمبراطور «سفيروس الاسكندر» ١٩٣-٢١١م إذ بدأ المسيحيون يمثلون خطراً بالنسبة للدولة نتيجة اجتماعاتهم السرية ورفضهم تقديس الأباطرة وعبادة روما المؤلهة ، واتهموا بممارسة أبشع العبادات [١]. وكان أول اضطهاد تعرض له المسيحيون فى الاسكندرية زمن الامبراطور «سبتميوس سفيروس الاسكندر» بعد زيارته لها سنة ٢٠٢م . ونلاحظ أن أسباب هذه الاضطهادات لاترجع إلى أسباب دينية فالرومان تسامحوا مع الديانات طالما كان الجميع يقدم القرابين للآلهة الرومانية ، أما أسباب الاضطهادات فترجع إلى أسباب أخلاقية أو سياسية «فالمسيحية كان ينظر إليها على أنها تنطوى على أعمال مخلة بالآداب، ومنافية للأخلاق ، وأنها تهدد الأمن ، وتعمل على تقويض المجتمع »، ويتضح ذلك من رسالة الإمبراطور تراجان إلى واليه المدعو بلينى إذ يقول : «إذا جاء إليك مسيحيون ، وامتنعوا عن تقديم القرابين بعد أن تحدثت إليهم بالحسنى فلابد أن يتخذ القانون مجراه ، غير أنه لاينبغى ألا تصر على التفتيش عنهم»[٢].

وعندما كانت تنزل بالعالم مصيبة فينسبوا أسبابها إلى المسيحية ، ويصبح الشعب الرومانى ويرجع ذلك إلى غضب الآلهة ، فيقول ترتوليان : «إذا فاضت مياه نهر التيبر ، وبلغت أسوار المدينة روما ، أو إذا لم تصل مياه النيل إلى الحقول، أو توقفت السماء عن أن ترسل المطر مدراراً ، أو إذا زلزلت الأرض زلزالها ، أو حدثت مجاعة من المجاعات ، أو انتشر طاعون من الطواعين ، ارتفعت الصيحات من كل جانب تدعو إلى إلقاء المسيحيين إلى الأسود[٣].

وفى عام ٢٣٥م قام الإمبراطور «ماكسيموس» باضطهاد المسيحيين فى كل مكان وتركزت كراهية المسيحيين فى روما وفلسطين . وكذلك فى عهد الإمبراطور «تراجان» وإن كان المسيحيون قد تمتعوا بالأمان فى عهد الإمبراطور «فيليب» إلا زن هذا لم يكن إلا الهدوء الذى

١- زبيدة عطا، إقليم المنيا فى العصر البيزنطى فى ضوء أوراق البردى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٢ ، ص٨٤ .

٢- العرينى ، مصر البيزنطية ، ص١٢ ، ١٣ .

٣- العرينى ، المرجع السابق، ص١٣ .

يسبق العاصفة merely a lull before the Storm [1]. فقد نزلت الاضطهادات العنيفة بالمسيحيين مرة ثانية زمن الإمبراطور «دكيوس» حيث تمت محاولة منظمة في النصف الثاني من القرن الثالث لإبادة المسيحيين تماما في الإمبراطورية الرومانية ، فصدر قرار يحتم على الأفراد أن يستخرجوا من لجنة عنيت لهذا الأمر خاصة شهادة تثبت أنهم يمارسون العبادات الوثنية وأنهم يقدمون القرابين للآلهة [٢].

وازدادت هذه الاضطهادات ضراوة ووحشية مثلت المسيحية خطراً سياسيًا على الإمبراطور بدعوتها إلى التوحيد ومساواة الأباطرة بهؤلاء العبيد والرعاع الذين اعتنقوا المسيحية وهذا يسلب الإمبراطور صنعته القدسية التي كانت من أهم مقومات سلطاته السياسية[٣]، حيث لقب الكاهن الأعظم Pontifex Maximus .

فيقول أيوزيبيوس قام نيرون بإعلان الاضطهاد بعنف ضد الديانة المسيحية، ولأن هذه الاضطهادات كانت عنيفة وضارية وراح ضحيتها الآلاف من المسيحيين فيذكر أنها كانت أول اضطهادات ضد المسيحيين ، فيقول ترتوليان في ذلك : «افحصوا سجلاتكم ، وفيها تجدون أن نيرون هو أول من قاوم هذه التعاليم ، سيما وأنه بعد أن أخضع كل الشرق بدأ ينفث سموم قسوته في جميع من بروما . وإننا لنفخر أن يكون تعذيبنا على يدي شخص كهذا لأن كل من يعرفه يستطيع أن يدرك أن نيرون لم يشجب أي شئ إلا إذا كان ساميا جدا »[٤].

وتمثلت طرق التعذيب في الضرب المبرح بالعصي الغليظة ، وسمل عيونهم بالقاب والبوص على أرصفة الشوارع لمسافات طويلة حتى بلغوا ضاحية المدينة رجموا بالحجارة وأحرقوا بالنار. إلا أن بطولة الشهداء قد اجتذبت عدداً كبيراً للوثنية إلى الديانة المسيحية ، فيقول ترتوليان : «إن دماء المسيحيين تعتبر البذور التي نبتت ونشأت منها المسيحية» .[٥] وقد ازدادت

1- Sinnigen , A History of Rome , p. 398 .

٢- يوسابيوس ، تاريخ الكنيسة ، ط٢ ، ترجمة القمص مرقس داود، مكتبة المحبة بالقاهرة ، ١٩٧٩ ، ص٣٦٦-٣٧٠ ؛ العبادي، المرجع السابق، ص٢٨٢ .

٣- العبادي، المرجع السابق، ص٢٨٢ .

٤- يوسابيوس القيصري، تاريخ الكنيسة ، ط٢، ترجمة القمص مرقس داود ، مكتبة المحبة بالقاهرة ، ١٩٧٩ ، ص١٠٧-١٠٩ .

٥- العريني، المرجع السابق، ص١٤ .

الكنيسة قوة ونموا بفضل دماء شهدائها [١]. فقد تجلد الكثيرون وصمدوا أمام هذه الاضطهادات العنيفة فها هى القديسة بربتوا Perpetum تقول : «وما أنْ وصلنا إلى السوق العامة Forum حتى انتشر الخبر فى الأحياء المجاورة لها فاحتشدت جمع غفيرة من الناس ثم صعدنا الطريق إلى المحكمة ، وهناك استجوب غيرنا واعترفوا ، ولما جاء دورى ، أطل والدى ومعه ابنى وجذبنى من حظيرة المتهمين ، وقال لى متوسلا «ارحمى ولدك الرضيع ». وقال لى هلاريانوس : وكيل الإمبراطور للشئون المالية فى الولاية Procurator ، الذى كانت سلطة العفو والإعدام قد آلت إليه عقب وفاة الوالى بتمينيانوس «ارحمى أباك الذى وخط الشيب رأسه ، ارحمى ولدك الرضيع ، وقدمى القرابين من أجل سلامة الأباطرة «أجابته» أنا مسيحية Christian Sum ، وعندما هم والدى أن يسحبنى أمر هيلاريون بجره إلى أسفل وضربه بعصا . وقد حز فى نفسى ما لحق أبى من أذى ، كما لو كنت أن التى ضربت وغمرنى الأسى على شيخوخته التعسة . وبعدئذ قضى هيلاريانوس بإدانتنا جميعا وحكم برمينا طعمةَ للسباع ، ونزلنا الطريق إلى السجن مبتهجين ».

وفى محاكمة بعض الأشخاص الآخرين : قال ساتور الوالى Proconsu : كفوا عن هذه الحماقة ، فأجاب كيتنوس : «نحن لانخشى أحد غير المسيح ، ربنا الذى فى السماء» . وقالت دوناتا : «الإجلال لقيصر بوصفه قيصراً ، ولكن التقوى لله ». وقالت فستيا : «أنا مسيحية» . وقالت سيكوندا : «إن ما اتمناه هو أن أكون على ما أنا عليه ». وسأل الحاكم سبيراتوس : «أمُصِرٌ أنت على مسيحيتك ؟ فأجابه سبيراتوس «أنا مسيحى» وأمن الجميع على كلامه [٢].

وهذا الصمود والثبات المسيحى أمام أعنف الاضطهادات جعل الإمبراطور «تراجان» يكتب إلى واليه المدعو «بلينى» عندما أخبره بأن هؤلاء المسيحيين لم يقدموا القرابين للآلهة قائلا له : «يجب ألا يبحث عنهم ، بل يعاقبوا إن وجدوا »[٣]. وهذا لايعنى السلام مع المسيحيين أو منحهم الحرية لأنهم كانوا موجودين فى كل مكان من أنحاء الإمبراطورية والقبض عليهم لايحتاج إلى بحث عنهم أو أدنى جهد .

١- هلستر ، المرجع السابق ، ص٣٢ .

٢- بل، المرجع السابق، ص١٢٩ ، ج١ ، ج٢ .

٣- يوسابيوس ، تاريخ الكنيسة ، ص١٦٦-١٦٧ .

وجاءت أعنف الاضطهادات المسيحية فى زمن الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤-٣٠٦) هذا العصر الذى يسمى «بعصر الشهداء» ، ففى مارس سنة ٣٠٣م صدرت الأوامر من الإمبراطور دقلديانوس باضطهاد وتدمير كل ما هو مسيحى ، وكان الأمر الأول بهدم الكنائس وحرق الكتب المسيحية المقدسة ، وطرد ذوى المناصب الرفيعة ، وحرمان خدم الكنيسة من ممارسة أعمالهم واستعبادهم طالما استمروا على المسيحية . وجاء الأمر الثانى بإيداع رؤساء الكنائس فى السجون وإجبارهم على تقديم القرابين للآلهة الرومانية . وعلى الرغم من ضراوة التعذيب وعنفه إلا أن هؤلاء المسيحيين قد فضلوا الشهادة فى سبيل الدين عن الحرية والعودة إلى الوثنية [١].

ومع انتشار الديانة المسيحية فى مصر انتشرت بعض الفلسفات الصوفية وعلى رأسها «الغنوصية» التى تقوم على المعرفة لله وطبيعته وإدراك طبيعة الكون وكنهه، ولم يصل إلى هذا الفكر إلا الصفوة المختارة المدركين لهذه المعرفة . وحتى هذه الفلسفات انقسمت على نفسها وظهر منهم الهراطقة مما أدى إلى انشاء «المدرسة التبشيرية المسيحية» didascaleé لمحاربة هذه الهرطقات من ناحية، والدعوة إلى الدين المسيحى والتبشير به من ناحية ثانية[٢].

ومن زعماء هذه المدرسة الذين كان لهم دوراً كبيراً فى محاربة الهراطقة وانتشار الديانة المسيحية القديس «كلمنت السكندرى» ، ولد تيطس فلافيوس اكلمنفس حوالى عام ١٥٠م من أبوين وثنيين ، واختلف حول أصله هل هو أثينى أم سكندرى ، كما لانعرف زمن تحوله إلى المسيحية ، ولكنه اعتنقها بعد أن بحث كثيرا عن الله الذى يشبعه روحيا وفكريا وأخلاقيا ووجد ذلك فى الديانة المسيحية ، فتحقق هدفه وسافر للبحث عن معلم حقيقى يتتلمذ على يديه فى جنوب إيطاليا وسوريا وفلسطين ، ووجد هذا المعلم فى «بنتينوس» أول زعيم لمدرسة الإسكندرية المسيحية[٣].

١- يوسابيوس ، المصدر السابق، ص٣٩٩-٤٠٠ .

٢- العرينى ، المرجع السابق ، ص١٦-١٨ .

٣- فيلوباترون ، سلسلة أباء الكنيسة ، أباء الاسكندرية ، الكتاب الثانى ، ج١ ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٩٢ ، ص١٥، ١٦ .

وتولى كلمنت رئاسة مدرسة الاسكندرية فى أواخر القرن الثانى الميلادى خلفا لأستاذه «بنتينوس» حوالى عام ١٩٠ م عندما سافر أستاذه إلى الهند . وقد مزج كلمنت ما بين التقوى المسيحية والخير والمحبة اليونانية ، وعرف عنه متانة الخلق والاعتدال الشديد فى الأمور الدينية[١] . وقد قام كلمنت أثناء رئاسته للمدرسة الاسكندرية المسيحية بإعداد العديد من المؤلفات للدفاع عن الديانة المسيحية مثل [٢]:

١- المتفرقات stromata عن الملاحظات اللادرية المتعلقة بالفلسفة الحقيقية. وفيه شرح الأسفار الإلهية مقتبسا من الفلسفة اليونانية ، موضحا تأثر الديانة المسيحية بالثقافة اليونانية ، والحالة العقلية للعصر الذى عاش فيه ، كما فند فيه آراء الهراطقة والرد عليهم . ويعالج فيه كذلك الغنوصية الحقيقية ، ويرى أن الغنوصى الحقيقى هو المسيحى المستنير الذى يستطيع أن يستخلص من الفلسفة والعقل أسباب الحياة المسيحية ودلالاتها الصحيحة.

٢- المعلم أو المؤدب وهو فى ثلاثة مجلدات ، ويشرح فيه الطريق القويم للمسيحيين من أساليب الحياة والسلوك .

٣- نصائح إلى اليونانيين ويوضح فيها محاسن الديانة المسيحية .

٤- المدخل إلى المسيحية ، ويوضح فيه تأثر الديانة المسيحية بالثقافة اليونانية .

٥- وصف المناظر .

٦- أيمكن أن يخلص الغنى ؟

٧- مؤلف عن الفصح ، وهو عبارة عن التقاليد التى سمعها من الشيوخ الأقدمين .

٨- بحث عن الصوم وعن الكلمات الشريرة .

٩- كتاب عن الصبر أو إلى المتعمدين حديثا .

١٠- مؤلف عن القوانين الكنسية أو المتهودين .

١- العرينى، المرجع السابق، ص١٨ .

٢- للتفصيلات عن هذه المؤلفات انظر : يوسابيوس ، تاريخ الكنيسة ، ص٣٠١ ، ٣٠٢ ؛ فيلوباترون ، أباء الكنيسة ، ص٢٠-٣٥ .

وقد استخدم كلمنت فى مؤلفاته شهاداته من الأسفار المتنازع عليها مثل حكمة سليمان ، وحكمة يشوع بن سيراخ، ورسالة العبرانيين ، ورسائل برنابا وكلمنت الرومانى ويهوذا . ويذكرنى فى مؤلفاته حديث تاتيان إلى اليونانيين ، ويتحدث عن كل سيانوس كمؤلف لكتاب تاريخى، ويشير إلى المؤلفين اليونانيين فيلو وأرسطو بولس ويوسيفوس وديمتريوس وبوبوليموس مبينا بأنهم جميعا أثبتوا فى مؤلفاتهم أن موسى والجنس اليهودى كانوا كائنين قبل أقدم اليونانيين .

وكان من نتائج ترجمة كلمنت الانجيل إلى القبطية أن دخل عدد كبير من المصريين فى المسيحية بعد أن قرأوا الإنجيل بلغتهم القومية . وكان كلمنت يعتبر أن المسيحية أسمى فلسفة ويقول : «الفلسفات القديمة إشعاعات بعضها ضئيل وبعضها قوى، أنارت السبيل أمام الإنسانية المتعطشة للوصول إلى الله. والمسيحية هى الشمس الساطعة التى مهدت إليها كل هذه الإشعاعات ، وكأن هذه التعاليم القديمة كانت الفجر الذى يسبق طلوع النهار فهيأت القلوب لتقبل نور المسيحية »[١].

ولأن كلمنت كان عميقا فى العلم وله أسلوب فذ وجذاب فى جذب الناس اجتمع فى حلقة علمه كل طبقات المجتمع من رجال ونساء وشباب، وتحول الكثيرين على يديه وبفضل عظاته وتعاليمه من الوثنية إلى المسيحية[٢] . وقد غادر كلمنت الاسكندرية إلى آسيا الصغرى أثناء اضطهادات سبتميوس سفيروس سنة ١٩٤ م ومات هناك [٣].

وارتقى كرسى زعامة مدرسة الاسكندرية المسيحية خلفا لكلمنت تلميذه «أووريجين» الذى ولد بالاسكندرية سنة ١٨٥م، ومات أبوه فى اضطهادات سبتميوس سفيروس ، وقد عينه البابا «ديمتريوس» رئيسا للمدرسة وهو لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره لما كان عليه من الثقافة والتعمق فى أصول الدين المسيحى ودعوته الوثنيين إلى الديانة المسيحية ، وظل فى رئاسة المدرسة حتى سنة ٢٣٢ م[٤] . واختلف مع البابا ديمتروس عندما رسمه أساقفة بلاد الشام فى

١- ايريس حبيب المصرى ، قصة الكنيسة القبطية ، جـ١ ، ط٥ ، الاسكندرية ١٩٨٤ ، ص٤٤ .

٢- ايريس حبيب ، المرجع السابق ، ط١ ، ص٤٥ .

٣- نفس المرجع ، ص٤٧ .

٤- العرينى ، المرجع السابق، ص٢٠ .

فلسطين أسقفا دون أخذ موافقة البابا ديمتروس ، وكذلك لأنه قام بخص نفسه وهذا ذنب يحول بينه وبين الكرامة الكهنوتية ، ووقع عليه الحرمان ، فترك أوريجين المدرسة ورحل إلى بلاد فلسطين حيث مات هناك فى اضطهادات دكيوس سنة ٢٥٢م [١].

ولقد أثرى أوريجين المدرسة السكندرية والمسيحية بالكثير من علمه وفلسفته ومؤلفاته فقد قام بدراسة العبرية دراسة عميقة ودقيقة ، ثم بحث عن كل الأسفار العبرانية للتوراة فى كل مكان وحصل عليها ودرسها جميعا ، ثم أضاف إليها في سداسيته Hexpala عن المزامير فأضاف إلى الترجمات الأربعة المشهورة لأكيلاوسيماخوس وثيودوتيون، وقسم سداسيته إلى أقسام وضعها مقابل بعضها مع البعض العبرانى مع الترجمة السبعينية فى مجلده الرباعى Tetrapla . وكانت تسمى سداسيته فى بعض الأحيان بالمثمنة Octapla لأنها تحتوى على الترجمة السبعينية العبرية وترجمته هو لمقارنة هذه التراجم مع بعضها البعض [٢].

كما انكب على تعلم اللغة اليونانية والفلسفة اليونانية القديمة ، ولذلك فقد فسر الإلهيات أو الأسفار اليهودية بالطريقة الرمزية[٣]. وله الكثير من المؤلفات مثل : تفاسير الأسفار الإلهية .

- تفسير الإنجيل .
- تفسير التوراة .
- مؤلفات عن القيامة .
- المبادئ .
- الأبحاث المعنونة «ستروماتا Stromata» .
- مراجعة الأسفار القانونية .
- كتاب عن أنبياء العهد القديم مثل : أشعيا وحزقيال .
- مؤلف للرد على «بحث حقيقى» ضد الأبيقوريين ، وضد كلسوس اليونانى بصفة خاصة.

١- ايريس حبيب، المرجع السابق، جـ١ ، ص٥٥ ، ومابعدها .

٢- يوسابيوس ، المصدر السابق، ص٣٠٥ ، ٣٠٦ .

٣- نفس المصدر ، ص٣٠٨ .

- تفسيره عن الأنبياء الإثنى عشر .

- رسالة للإمبراطور فيليب وزوجته سفيرا والبابا فابيانوس أسقف روما . وقد بلغ عدد هذه المؤلفات ما يربو على المائة كتاب مما جعله يحوز إعجاب واحترام جميع رجال الدين فى مصر وفلسطين [١].

ومن التعاليم الفلسفية فى الديانة المسيحية التى تركها أوريجين وتأثر بها رجال الدين بعد ذلك وترجع إلى تفكيره العقلى والمنطقى النابع من دراسته الفلسفة والأفلاطونية وتأثره بالغنوصية المصرية يقول : «الله هو الجوهر الأول لجميع الأشياء وليس المسيح هو الإنسان الآدمى ، بل هو العقل الذى ينظم العالم ، وهو بهذا الوصف قد خلقه الله الآب، وجعله خاضعا له » . «والنفس تنتقل فى مراحل وتجسدات متتالية قبل أن تدخل الجسم ، وهى تنتقل بعد الموت فى مراحل متتالية أيضا قبل أن تصل إلى الله . وجميع الأنفس حتى أطهرها تتعذب زمنا فى المطهر ، ولكنها كلها تنجو آخر الأمر»[٢].

ومن الأقوال التى استقاها منه أثناسيوس بعد ذلك حول العلاقة بين الآب والابن يقول : «لما كان الله تعالى غير مرئى فإن صورته غير مرئية أيضا ، ولأن الله لم يره أحد قط فإن الابن الذى هو فى حضن أبيه هو خبر ، لأنه حيث شاء جل اسمه أن يعلن ذاته للناس رأى أن يقدم لهم هذا الاستعلان فى شكل مرئى لكى يدركوه ، وهكذا تجسد الابن الكلمة فتقدم إلى الناس فى صورة مرئية لله غير المرئى . وإنى لأجرؤ على القول بأنه ما دام الابن صورة للآب فلم يمر عليه حين من الدهر لم يكن فيه إذ هو أزلى كالآب تماما. لأنه متى كان الله (الذى يدعوه يوحنا بالنور) من غير بهاء مجده حتى يتجاسر إنسان أن يقول إن للابن بداية كأنه قد مر عليه حين من الدهر لم يكن فيه ؟ ثم متى كان هذا الحين الذى لم تجد فيه صورة الآب غير المدرك غير الموصوف غير المستحيل ؟ وكيف يمكن أن تكون الصورة وهى الختم والكلمة الذى هو وحده يعرف الآب ؟ فليعلم كل من يجسر على القول : لقد مر حين من الدهر لم يكن فيه الابن أنه بقوله هذا إنما يقول : من حين لم تكن فيه الحكمة ولم تكن فيه الكلمة ولم تكن فيه الحياة »[٣].

١- يوسابيوس ، المصدر السابق ، ص٣١٤ -٣١٩ ، ٣٢٣ ، ٣٢٦ .

٢- العرينى، المرجع السابق، ص٢١ .

٣- ايريس حبيب ، المرجع السابق، جـ١ ، ص٧٥ .

وعلى ذلك جاهد أوريچين للتوفيق بين المسيحية والفلسفة اليونانية القديمة خاصة وأنه قد قام بتفسير العهد القديم وبخاصة سفر التكوين على أساس فلسفة إفلاطون القائمة على ثنائية العقل والمادة ، ولذا فقد اعتبروه متطرفا فى آرائه أثناء حياته ، وبعد وفاته اشتد الجدل حول أفكاره خلال القرنين الخامس والسادس ورفضت المجامع الدينية قبول الكثير منها [١].

وعلى أية حال فقد حل السلام بالديانة المسيحية والمسيحيين فى سنة ٣١٣م عندما أصدر الإمبراطور قسطنطين مع شريكه ليكينيوس بعد معركة القنطرة الملقية المرسوم الذى عرف «بمرسوم ميلان» وقررا فى هذا المرسوم : منح الحرية الدينية لجميع سكان الإمبراطورية، والتسامح مع المسيحيين والديانة المسيحية وإلغاء كل القرارات الصادرة ضدهم من قبل ، ورد كل الأملاك والأماكن التى صودرت من المسيحيين وبأقصى سرعة ودون إبطاء[٢]، واتخاذ شارة الصليب علامة مميزة للمسيحيين والجنود[٣]. واعتبار يوم الأحد عيداً للمسيحيين عن كل أسبوع [٤]. وإجازة قانون حق الإرث بالوصية لصالح الكنيسة . وأن تصبح المسيحية ديانة شرعية ضمن ديانات الدولة [٥]. أو كما يقول الدكتور سعيد عاشور [٦]: أصبحت الديانة المسيحية «ديانة مرخصة» Religio Licitia ومساوية لكل الديانات الأخرى . وأرسل الإمبراطور قسطنطين برسائله إلى ولايته لتنفيذ هذه المراسيم والقرارات ففى إحدى رسائله إلى واليه فى أفريقيا المدعو «أنو لينس» يأمره برد كل ما سلب من الكنيسة المسيحية سواء كان مبان أو حدائق أو غير ذلك[٧].

١- كولتون ، عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ، ترجمة د. جوزيف نسيم يوسف ، الطبعة الأولى، دار المعارف ، ١٩٦٤ ، ص١٥ هامش ١ .

٢- يوسابيوس ، المصدر السابق، ص٤٩٨ ، ٤٩٩ .

3- Jones , The Decline of the Ancient World , Longman , 1984 , p. 42 .

4- Sinningen , A History of Rome , p. 417 .

٥- هلستر ، أوربا فى العصور الوسطى، ص٤٢ .

٦- أوربا العصور الوسطى، جـ١ ، ص٤١ .

٧- يوسابيوس ، المصدر السابق، ص٥٠٠ .

وفى سنة ٣٨١م أصدر الإمبراطور ثيودسيوس الأول مرسوما يعترف فيه بالمسيحية كديانة رسمية للإمبراطورية مما أدى إلى قيام ثورة ضد الوثنية واضطهاد أصحابها واختفت من الإمبراطورية على وجه السرعة[١] . ففى مصر قام الرهبان بمهاجمة المنشآت الوثنية والتعدى على الأهالى ، فقام ماكريوس أسقف تكوا Tkoau وجماعته باجتياح القرى وحرق المعابد وتحطيم ست وثلاثين من تماثيل الآلهة وكذلك الكاهن الأكبر ، وقام شنودة بحرق المعابد فى بانابوليس «إخميم» وتحولت كل المعابد إلى كنائس[٢].

ومن الجدير بالذكر أنه نتيجة توقف الاضطهادات المسيحية بأمر الإمبراطور جاليريوس بدأت الكنيسة القبطية فى مصر فى ممارسة شعائرها الدينية بحرية وأمان ، وانتشرت الديانة المسيحية فى مصر الوسطى والعليا بسرعة رهيبة بعد مرسوم ميلانو سنة ٣١٣م . وأخذت الكنائس فى الانتشار حتى أن يقال أن القديسة هيلينا أم الامبراطور قسطنطين قد أمرت ببناء كنيسة فى جبل الطير وأوقفت عليها الأوقاف من الأراضى [٣].

وقد تلقب بطريرك الكنيسة القبطية فى الاسكندرية بلقب «البابا» قبل أن يطلق هذا اللقب على أساقفة كنيسة روما فقد خلع على هرقل السكندرى[٤]. فهو مشتق من اللغة القبطية[٥].

١- هلستر ، المرجع السابق، ص٤٣ .

٢- زبيدة عكا ، اقليم المنيا فى العصر البيزنطى، ص٨٦ .

٣- نفس المرجع ، ص٨٥ .

٤- فيذكر القلقشندى أن بطريرك الاسكندرية كان أول من حمل لقب «بابا» بين سائر أساقفة الكراسى الرسولية قبل أن يختص أسقف روما بهذا اللقب بمفرده، صبح الأعشى فى صناعة الانشا، جـ٥ ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص٤٧٢ ؛ جـ٨ ، ص٤٢ ؛ ويرى «بتلر» أن كلمة «بابا» مشتقة من الكلمة القبطية «بى آبا» فهى مصرية الأصل .

The name "Pope" or "BaBa" or "Papa" has given Rise to much controversy . but may propably be derived from coptic .

وكذلك يرى «روبرت باين» فى كتابه «النار المقدسة» أن لقب «بابا» أعطى الأساقفة الاسكندرية بصفة دائمة مستمرة .

The Title of "Papa" or "Papa" was the bishops of Alexandria .

ايريس حبيب ، قصة الكنيسة القبطية ، جـ١ ، ص٣١ ، هامش ١ .

٥- اللغة القبطية هى المصرية التى كان يكتبها القدماء المصريين بالصور والرموز مكتوبة بالحروف =

وما أن حل السلام بالكنيسة وتنفست الصعداء بعد موجات الاضطهادات التى حلت بها فدب النزاع والجدال بين رجالها حول المسائل العقائدية ، وكانت أولى المشكلات حول الجدال الذى نشب بين رجال كنيسة الإسكندرية حول «خلق السيد المسيح» . فقام القس السكندرى «أريوس» أحد تلامذة المدرسة الأنطاكية بإرساء المسيحية على أسس عقلانية ومنطقية بمناقشة العلاقة بين الرّب والابن قائلا : «بأن الأب هو الإله الحق فى مقابل الابن الذى ليس إلها حقا. فهما متعارضان بالضرورة على أساس التعارض بين غير المخلوق والمخلوق ، ومن ثم فليس هناك اثنان غير مخلوقين، إلهان لامتناهيان، وعلى ذلك ، فالله لم يكن دوما آبا ، وكلمة الله لم تكن دواما ، ولكنها من العدم نشأت . فالله قد جعل هذا الذى لم يكن من ذلك لاوجود له. وعليه فقد كان زمان لم يكن الإبن . فالابن مخلوق لايساوى الآب فى الجوهر ، ليس الكلمة الحق الطبيعية للآب ، ليس حكمته الحقة ، إنما هو أحد الخلائق دعى «الكلمة» خطأ «والحكمة» . فهو قد نشأ بذاب كلمة الله، وبالحكمة الكامنة فيه ، التى بها سواه الله، وسواه ومن ثم فهو بطبيعته عرضة للتغيير والتغاير شأن كل الخلائق ، و«الكلمة» غريبة عن جوهر الآب ، بعيدة ومنفصلة . والآب كيف يصفه الإبن ؟ إن «الكلمة» لاتعرف الآب كنهه ، والابن لايعاين الآب يقينا ، والابن لايعرف ذات الجوهر هو ، وهو فى علاقته بالمخلوقات خالق ، وبالله مخلوق ، وآله للخق وآداة »[1].

وهذا يعنى أن الابن ليس مساو للآب فى الجوهر[2] لا يشبهه لأن الله ليس له شبيه ويقصد أريوس من وراء ذلك تأييد وحدانية الله وأن ألوهية المسيح ثانويه وبذلك تم تجريد

= اليونانية مضافا إليها سبعة حروف غير موجودة فى الأصل اليونانى . وقد استعمل المصريون اليونانية لأنها كانت لغة الثقافة والتعليم فى ذلك الوقت وليس حبا فى الحكم اليونانى فقد ثاروا ضده . ايريس المصرى، المرجع السابق ، جـ١ ، ص٤٣ .

١- رأفت عبد الحميد ، الدولة والكنيسة ، جـ٢ ، أثناسيوس ، مكتبة سعيد رأفت ، ١٩٨٠، ص٦١-٦٢ .

Jones , Op . cit , p. 42 .

٣- العرينى ، مصر البيزنطية ، ص٤٧ .

المسيح من صفاته بأنه منقذ العالم ومحا بذلك فكرة الخلاص Redemption التى اعتبرتها المسيحية فكرة أساسية فى العقيدة [١].

وعارضه فى ذلك «اسكندر» أسقف الاسكندرية قائلا: بأن المسيح سماويا ومقدسا مثل الرب وهو من نفس طبيعة الرب ، وكان رد أريوس على ذلك بأنه لم يناقش طبيعة السيد المسيح ، ولكن يناقش التشابه بين المسيح والرب ولذلك استخدم مصطلح «Homoiousion» الذى يعنى أن المسيح يشبه الآب فى الجوهر . أما اسكندر وتابعه «أثناسيوس» فقد استخدما مصطلح «Homoousion» الذى يعنى أن المسيح من نفس جوهر الآب[٢]. وقد نفى أريوس الألوهية الكاملة عن المسيح ، فهو رمزى «مجازى» فقط ، وأنه «ابن الرب» [٣].

وهكذا نرى أن أريوس قد ناقش هذه القضية من ناحية العقل والمنطق ولذا فقد كان أتباعه من المثقفين وفى منطقة الشرق الهلينى، أما أثناسيوس فقد ناقشها من ناحية العاطفة ، واعتمد فى مناقشته على مكانة السيد المسيح وأن التقليل من مركزه يضعف الدعوة المسيحية، ولذا كان أتباعه من العامة وانتشر مذهبه فى الغرب اللاتينى .

واحتدم النزاع بين المتجادلين فى كنيسة الاسكندرية واشتد أوار الحرب بينهما وانتقل إلى الكنائس الأخرى ، ووصل إلى مسامع الإمبراطور قسطنطين ، ولأنه كان يريد منذ البداية التأكيد على وحدة الكنيسة المسيحية ، فقد حاول جاهداً إنهاء النزاعات التى كانت تحدث فى الكنائس بين رجال الدين، والنزاعات بين الكنائس وبعضها البعض عن طريق المجامع الدينية الصغيرة داخل الكنائس [٤]. ولأنه كان مشغولا بحروبه من أجل توحيد الإمبراطورية فى يديه ، فقد أراد رأب الصدع بين المتصارعين منذ البداية فأرسل برسالة من لدنه إلى اسكندر أسقف الاسكندرية ، وكذلك إلى «أريوس» يطلب منهما حسم هذا الخلاف وإنهاء هذا الجدال والوصول

١- العرينى ، المرجع السابق، ص٤٤ .

2- Magonlias, H . J ., Byzantine Christianity : Emperor , Church , and the West , Chicago , 1970 , p. 21 .

3- Ibid , p. 22 .

٤- يوسابيوس ، المصدر السابق ، ص٥٠٠-٥٠٢ .

إلى الصلح. ولكن كل منهما تمسك بمعتقداته [١]. مما جعل مبعوث الإمبراطور «هوسيوس» أسقف قرطبة يعود إلى الإمبراطور دون تحقيق أية نتيجة ودون إنهاء هذا الصراع ، وينصح الإمبراطور بعقد مجمع مسكونى لهذا الغرض [٢].

فدعا الإمبراطور جميع رجال الدين إلى عقد مجمع كنسى مسكونى فى نيقية ، وفى العشرين من مايو سنة ٣٢٥م عقد المجمع المسكونى الأول، وحضره أكثر من ٣١٨ أسقفا ورجل دين وعلى رأسهم البابا الرومانى، وترأس الإمبراطور المجمع بنفسه رغم عدم تفقهه أو علمه بالمسائل الدينية ، كما استخدم الإغراء والقهر لحمل الأساقفة على التوقيع على قرارات المجمع وقانون إيمانه الذى غدا من بعد قاعدة الإيمان المسيحى . وخرجت قرارات المجمع لتقرر «أن الابن مولود ومساو للآب فى الجوهر ، أى الهوموسية Homoousios ، ولعن أريوس وصحبه وإدانة مانا دوابه ، ونفيه ويوساب أسقف نيقوميديا ، ويثوجنس أسقف نيقية . وحرق كتب الأريوسية وإدانة من يقوم بإخفاء هذه الكتب ، واعتبرت الهوموسية أريوس وأتباعه هرطقة ، ما وافق المجمع على اعتبار يوم الأحد Sunday أول أيام الاسبوع وعيد الكنيسة ، كما قرر المجمع أنه طبقا للتقليد الثابت، يمارس أسقف الاسكندرية سيادته على مصر وليبيا والمدن الخمس شأن أسقف روما فى الأقاليم التابعة له. وأسقف أنطاكية ، فى المناطق الخاضعة لسيادته [٣].

ومن بين القرارات العشرين التى أصدرها المجمع وتحددت فيها قوة وسلطة كنيسة الاسكندرية : أن يقوم أسقف الإسكندرية بتحديد يوم عيد القيامة وإرسال ذلك إلى روما وجميع الكنائس . كما ناقش المجمع الخلاف بين ميليتوس أسقف ليكوبوليس (أسيوط) وبين

١- ايريس حبيب ، المرجع السابق، جـ١ ، ص١٧٨ .

ايريس حبيب ، المرجع السابق، جـ١ ، ص١٧٩ ١٨١ .

Jones, Op. cit ., p. 42 .

٣- للتفصيلات عن جلسات المجمع وقراراته انظر : القمص كيرلس الأنطونى، عصر المجامع (١٩٥٢) ، ص٢٧-٨٩ ؛ ايريس حبيب ، المرجع السابق، جـ١ ، ص١٨٨ ، ١٨٩ ؛

رأفت عبد الحميد ، الدولة والكنيسة ، جـ٢ ، ص٦٢ ، ٦٦ ، ٧٣

...nes , Op. cit .,

أسقفية الاسكندرية ، وانتهى الأمر بحرمان ميليتوس من ترسيم رجال الدين واحتفاظه بلقب أسقف كلقب شرفى فقط ، كما حرم المجمع زواج رجال الدين [١].

ويفى دستور الإيمان الصادر عن مجمع نيقية على : «بالحقيقة نؤمن بإله واحد، الله الآب ضابط الكل خالق السماء والأرض ما يرى وما لايرى ، نؤمن برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور ، نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للآب فى الجوهر ، الذى به كان كل شئ هذا الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء، تأنس وصلب عنا فى عهد بيلاطس النبطى ، تألم وقبر وقام من الأموات فى اليوم الثالث كما فى الكتب ، وصعد إلى السموات ، وجلس عن يمين أبيه ، وسيأتى أيضا فى مجده ليدين الأحياء والموتى، وليس لملكه انقضاء ، نعم نؤمن بالروح القدس »[٢].

وبعد انفضاض المجمع توهم الإمبراطور قسطنطين أنه قد كسب الجولة الثانية «على أعداء الرب» حسب تعبيره ودعائيته : «لقد كان مجمع نيقية فى حد ذاته تتمة ضرورية لنصر خريسو بوليس ، ولعب بخيال الإمبراطور عندها أنه قد أطبق على النصر فى الميدان والعقيدة»[٣].

وراح الأريوسيون فى مصر وخارجها يذيعون فى الجموع أن مجمع نيقية لم يتوخ العدالة فى بحث الأراء الأريوسية ، وأن أريوس وصحبه قد تم نفيهم دون وجه حق ، حتى استمالوا اليهم عدداً كبيراً ، ووجدوها فرصة سانحة لجذب الأنظار إلى قضيتهم ثانية . وفى الوقت الذى كانت المليتية «أتباع ملتوس» الذين حرمهم مجمع نيقية تقدم للمسيحية تنظيما كنسيا ، كانت الأريوسية تحمل لها فكر عقيدة ، وكلتا هما تستنكر تعاليم الأخرى، إلا أن التذمر

١- ايريس حبيب ، المرجع السابق، جـ١ ، ص١٩١-١٩٨ .

٢- القمص كيرلس الأنطونى ، عصر المجامع ، ص٦٤-٦٥ ؛ ايريس حبيب ، المرجع السابق، جـ١ ، ص١٨٩ ، ١٩٠ ؛ القرطبى، الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام ، جـ١، تقديم وتحقيق وتعليق. د. أحمد حجازى السقا، دار التراث العربى، ص١٧ ؛ الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ، جـ١ ، ص٢٩٣ ، ٢٩٤

٣- رأفت عبد الحميد ، المرجع السابق، جـ٢ ، ص٧٣ .

المشترك ضد مجمع نيقية بصيغة الإيمان التى صنفها ، والقوانين التى أصدرها، والقرارات التى صادق عليها ، جمع على درب الثورة جهدهما، وانصب ذلك فى قالب عداء تجاه أسقف الاسكندرية لا لشخصه كأثناسيوس فحسب ، بل بقدر كونه تجسيد الجمع يمقتون كل ما يذكرهم به . ولعل هذا هو السبب الذى من أجله يقول ايوزيبيوس فى أسلوب ماكر مراوغ سخر منه سقراط : «ساد السلام فى كل مكان إلا مصر وحدها ، لا زال يتأجج فيها أوار جدل مستعر ، أفسد على الإمبراطور سكينة مسرته »[1].

وحتى يوازن الإمبراطور بين طرفى النزاع «أريوس وأثناسيوس» فى دولته حاول إرضاء أريوس وطائفته خاصة بعد أن أدرك أن الأريوسية قد انتشرت فى معظم ولايات الإمبراطورية، وأصبحت فى قوة مال إليها وعفا عن أريوس ورفاقه وأعادهم إلى كنائسهم ، وإن كانت بطريركية الاسكندرية قد رفضت إعادة أريوس إلى خطيرتها هذا فى عام ٣٢٨م [2].

وانقسم الأريوسيون على أنفسهم إلى عدة فرق من جراء الاختلاف فى الفكر حول التشابه والمماثلة بين الأب والابن : فأصبح هناك الأريوسيون الأصليون الذين يقولون بخلق المسيح وعدم مساواته مع الآب فى الجوهر . وأنصاف الأريوسيين Semi - Arisns الذين يقولون بالهوموسية أى التشابه بين الآب والابن فى الجوهر . والأنومويين Anamoeans الذين ينكرون أى شبه بين الآب والابن . والهومويين Homeans الذين يقولون بالشبه فقط دون تحديد [3].

واتفق الأريوسيون والمليشيون ضد أثناسيوس واتهموه بالعديد من الاتهامات التى تمس شرفه ومكانته الدينية مثل القتل والاختلاس والزنا [4]، ولذلك عقد الإمبراطور مجمعا فى صور سنة ٣٣٥م ولكن لم يكن مجمعا ومسكونيا ، وفى هذا المجمع وقف أعداء اثناسيوس وحرضوا الإمبراطور ضده باتهامه بأنه قد هدد بعرقلة إرسالة القمح من الاسكندرية إلى القسطنطينية لأنهم يدركون تمام أن كل ما يربط الإميراطورية بمصر هو القمح والنقود ، فعندئذ

١- رأفت عبد الحميد ، المرجع السابق، جـ٢ ، ص٧٤ .

٢- رأفت عبد الحميد ، المرجع السابق، جـ٢ ، ص٧٥ ؛ العرينى، مصر البيزنطية ، ص٣٣ .

٣- هسى ، العالم البيزنطى، ترجمة د. رأفت عبد الحميد ، مكتبة سعيد رأفت ، ١٩٧٦ ، ص٣٦ ، هامش١ .

٤- ايريس حبيب، المرجع السابق، جـ١ ، ص٢١٦ .

اشتد غيظ الإمبراطور وحنقه على أثناسيوس ونفاه إلى تريف فى غالة . وقد أراد الامبراطور بقراره هذا توحيد الكنيسة حيث إن أثناسيوس قد رفض المصالحة مع أريوس . كما أن شعب الاسكندرية قد رفض قبول أريوس بعد العفو عنه [١]. فاستدعاه الإمبراطور إلى القسطنطينية ومات أثناء رحيله لمقابلة الإمبراطور سنة ٣٣٦ م مما جعل أعداءه الأرثوذكس يعلنون فرحا أنها «عدالة الرب» [٢].

وهكذا نشب الخلاف العنيف بين كنيسة الاسكندرية والقصر الإمبراطورى واتسم موقف مصر فى هذا الخلاف بالطابع الدينى والسياسى فى وقت واحد ، ويتضح هذا بجلاء فى أنه بعد انقسام الإمبراطورية الرومانية بعد قسطنطين إلى قسمين بين أبنائه فى روما والقسطنطينية تبدأ العلاقات فى التحسن بين الاسكندرية وروما من الناحية الكنسية بقدر ما تسوء بين الاسكندرية والقسطنطينية. ولقد اكتسبت كنيسة الاسكندرية أهمية عالمية لايشابهها فيها سوى كنيسة روما ذاتها وقد قوى من هذه المكانة وزادها مواقف أثناسيوس فى وجه الأباطرة ، مما أدى إلى تعرضه للنفى والمطاردة من قبلهم حتى قضى الكثير من سنوات حياته طريداً بين آباء الصحراء فى مصر[٣].

وانتقلت نيران الحرب العقائدية من كنيسة الاسكندرية لتشتعل بين رجال الدين فى الكنائس الأخرى وبين كل الكنائس العالمية ، فقد انتشرت البدع فى العقيدة ودس أنوفهم فيها رغم عدم معرفتهم أو تفقههم فى مثل هذه الأمور.

- فقد قام أحد رجال الدين ويدعى «مكدونيوس» والذى كان أسقفا على القسطنطينية سنة ٣٤٣م وعزل من هذا المنصب سنة ٣٦٠م ، بإنكار لاهوت الروح القدس بقوله : «أن الروح القدس عمل إلهى منتشر فى الكون وليس بأقنوم متميز عن الآب والابن بل هو مخلوق يشبه الملائكة ولكنه ذو رتبة أسمى منهم »[٤]. وانتشر هذا القول ودخل معه أثناسيوس فى مجادلات جرمه فيها الأخير سنة ٣٦٢ ، وعندما ارتقى عرش الإمبراطورية الإمبراطور

١- رأفت عبد الحميد ، المرجع السابق، جـ٢ ، ص٩٢-٩٣ .

2- Jones , Op. cit., p. 46 .

٣- العبادى ، الرجع السابق ، ص٢٩٧-٣٠١ .

٤- القمص كيرلس الأنطونى ، عصر المجامع ، ص٩١ .

ثيودسيوس الأول دعا إلى عقد مجمع مسكونى فى القسطنطينية سنة ٣٨١م عرف بمجمع القسطنطينية الأول لمناقشة هذه الآراء العقائدية وحسم الخلاف بين رجال الدّين ، وتحديد مراكز وأولية الكنائس المسيحية ، وحضر هذا المجمع مائة وخمسون أسقفا لم يمثل الغرب الأوربى (كنيسة روما) أحد فى هذا المجمع لأن البابا داماسوس قد عقد مجمعا فى روما جمع أساقفة الغرب جميعا ، ولكنهم اعترفوا رغم ذلك بعالمية هذا المجمع[١]. لأنه كان فى قراراته فى صالح كنيسة روما التى أقر باحتلالها المركز الأول بين الكنائس .

وقرر المجمع : تجريد مكدونيوس من كل رتبة كهنوتية ووقوعه ومن يتبع آراءه تحت طائلة الحرمان الكنسى[٢]. وقرر المجمع كذلك بشأن أولية الكنائس أن تحتل كنيسة روما المركز الأول فهى الكنيسة الأم التى أسسها القديس بطرس الصخرة التى بنى عليها المسيح كنيسته ، وأن أسقفها هو نائب المسيح على الأرض . وأن تحتل كنيسة القسطنطينية المركز الثانى بعد روما لأنها روما الجديدة ومقر الأباطرة ، وزعم أساقفتها أن القديس أندراوس قد زارها من قبل، وهو أحد جوارى السيد المسيح[٣]. وأن تخضع لسلطانها وسيادتها كنائس الشرق الآسيوية فى آسيا الصغرى وتراقيا ، وأصبح أساقفة القسطنطينية منذ ذلك الوقت هم آذان الإمبراطور[٤]. وبعد ذلك تأتى فى الترتيب كنيسة الاسكندرية .

وقد أقر المجمع دستور الإيمان المسيحى التى تنص على : «الإقرار بما جاء فى مجمع نيقية عن الآب والابن ، وأن الروح القدس منبثق من الآب ، وأنه مساو فى الجوهر للآب والابن . وأن نؤمن بإله واحد آب ضابط لكل صانع السماء والأرض ، كل ما يرى وما لايرى . وبرب واحد يسوع المسيح ، ابن الله ، الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور نور من نور ، إله حق من إله حق ، مولود غير مخلوق ، مساو للآب فى الجوهر الذى به كان كل شئ . الذى من أجلنا نحن البشر، ومن أجل خلاصنا نزل من السموات وتجسد من الروح القدس ومن مريم

١- ايريس حبيب ، المرجع السابق، جـ١ ، ص٣٥٩-٣٦١ .

٢- نفس المرجع ، ص٣٦٣ .

٣- وهو الذى أتى ببطرس إلى السيد المسيح أول مرة ، بينز ، الإمبراطورية البيزنطية ، تعريب د. حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٥٠ ، ص٩٨-٩٩ .

4- Jones, Op. cit., pp. 84, 258.

العذراء وتأنس ، وصلب علنا فى عهد بيلاطس النبطى وتألم وقبر . وقام فى اليوم الثالث على ما فى الكتب وصعد إلى السموات وجلس عن يمين الآب . وأيضا يأتى بمجد ليدين الأحياء والأموات الذى لا فناء لملكه (وفى نص نيقية: «نزل من السماء وتجسد وصار إنسانا، وتألم وقام فى اليوم الثالث ، وصعد إلى السموات وسيأتى ليدين الأحياء والأموات) ، وبالروح القدس : الرب المحيى، المنبثق من الآب، الذى هو مع الآب والابن، مسجود له ومُمَجَّدٌ الناطق بالأنبياء . وبكنيسة واحدة جامعة مقدسة رسولية . ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا . ونترجى قيامة الموتى ، والحياة فى الدهر العتيد آمين [1].

ورغم أن المجمع قد وضع بطريركية الإسكندرية فى المرتبة الثالثة بعد روما والقسطنطينية إلا أنها وبفضل جهود وجهاد بطاركتها قد كان لها الزعامة السياسية والدينية فى ذلك الوقت من هؤلاء البطاركة الذين رفعوا من شأن البطريركية فى أواخر اقرن الرابع وبداية الخامس الميلادى كان البطريرك « ثيوفيلوس» الذى تولى رئاسة البطريركية فى الفترة من ٣٨٥-٤١٢م وركز جهوده حول إزالة بقايا الوثنية ، فدخل فى صراع مع الوثنيين . كما دخل فى نزاع مع الرهبان فى بدء رئاسته للبطريركية عندما أعلن فى إحدى رسائله إليهم أن ما ورد فى الإنجيل من المصطلحات المتعلقة باليدين والعينين إنما يقصد بها الناحية الرمزية ، ولكنه حارب وأعرض بعد ذلك عن هذه الآراء الأوريجينية وحارب الأوريجينيين بعد أن أعلن الرهبان سخطهم واستياءهم من هذه الآراء مما أدى إلى دخوله فى نزاع دائم مع بطريرك القسطنطينية فى ذلك الوقت «حناكريزوسيثم » فم الذهب بسبب استقبال الأخير للأوريجنيين المطرودين من كنيسة الاسكندرية، واشتدت العداوة بين الطرفين ، بل وتحولت إلى عداوة بين الاسكندرية وروما كذلك لأن البابا «انوسنت» بابا روما قد ساند «حنا فم الذهب» فى نزاعه مع ثيوفيلوس[2]. وقد حرض ثيوفيلوس الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى سنة ٤٠٣م ضد يوحنا فم الذهب بسبب استقباله للأربعة الأخوة الطوال السكندريين الأوريجينيين ، وطلب منه عقد مجمع فى القسطنطينية ليس مسكونيا عرف «بمجمع البلوطة» فى نفس العام، انتهى إلى عزل يوحنا من

١- العرينى، مصر البيزنطية ، ص٤١ هامش١ ؛ كيرلس الأنطونى ، المرجع السابق، ص ١٠٤ ، ١٠٥ ، الخريدة النفيسة ، جـ١ ، ٣٧٢ ومابعدها .

٢- العرينى ، المرجع السابق، ص٥٧-٦١ .

منصبه ونفيه ، ولكن الإمبراطورة «ايدوكسيا» زوجة الإمبراطور ثيودسيوس أصرت على إرجاعه إلى منصبه [١].

واشتهر ثيوفيلوس بأنه كان عالما فى الرياضيات ولذا فقد قام بوضع جداول رياضية مضبوطة تماما لعيد الفصح ، كما كان أديبا وشغوفا بالأدب . وعارض تيوفيل أفكار أراء أوريجين فى «الآب» حيث قال أوريجين «بأن الله لاجسم له فهو لايرى ولايمكن إدراكه «أى بالتنزيه» . أما ثيوفيلوس فيرى مع الرهبان بالتشبيه «أى أن الله شكلا بشريا». وقد نتج عن هذا التعارض قيامه بثورة ضد أحد الأديرة بالقوة المسلحة حتى أجبرهم على الاعتراف بآرائه وإنكار أراء أوريجين ، ماعدا هؤلاد الأخوة الأربعة الطوال الذين فروا إلى القسطنطينية واستقبلهم يوحنا فم الذهب [٢].

وخلف ثيوفيلوس فى رئاسة بطريركية الاسكندرية البطريرك «كيرلس» فى الفترة من ٤١٢-٤٤٤م ، وفى عهده تولى كنيسة القسطنطينية البطريرك «نسطوريوس» ودارت بينهما منازعات عقائدية ، وذلك لأن نسطوريوس أن أعلن للمسيح طبيعتين «الإلهية والبشرية» وأنه كلمة الرب ، وأن مريم العذراء هى «أم المسيح» وليست «أم الإله» Theatekos » ، لأن مريم العذراء بشر ولايمكن للإله أن يولد من إنسان ، فعلى ذلك يكون المسيح بشر وليس إله[٤].

فثارت القسطنطينية بأهلها ورهبانها ضد نسطور الذى جرد العذراء من قداستها وغلب على المسيح الطبيعة البشرية ، فخاطب الإمبراطورية بقوله : «أعطنى الأرض وقد تطهرت من الملحدين ، أمنحك نعيم الجنة المقيم «فأنزل الإمبراطور سخطه على الجموع الثائرة وقضى على الفتنة»[٥].

١- أسد رستم ، الروم ، جـ١ ، ط١ ، بيروت ، ١٩٥٥ ، ص١١٤ ، ١١٥ .

٢- أسد رستم ، المرجع السابق ، جـ١ ، ص١٢٢ .

3- Zachariah , The Syriac Chronicle , trans . by Hamilton & Brooks , London , 1899 , pp. 247-250 .

4- Evagarius , History of the Church , 431-594 . trans . by Memoires of the Authors , London , 1854 , pp . 257-258 .

٥- هسى ، المرجع السابق، ص١٠٥ ، هامش ١ .

أما كيرلس أسقف الاسكندرية فقد تعارض مع نسطوريوس فى آرائه فهو يرى أن للمسيح طبيعتين بشرية وإلهية ولكن إندمجتا وتمثلتا فى جسد المسيح ويتمثل فقط فى الطبيعة الإلهية Monophysite ، وأن السيدة مريم العذراء هى أم الإله ، وراسل نسطوريوس بذلك وأصدر ضده اثنى عشر بندا من اللعنة Anathena [١]. وحدث فى ذلك الوقت التقارب بين روما والاسكندرية ، وما حدا بالبابا «سلستين الأول» إلى التحالف مع كيرلس ضد نسطوريوس النزاع بين روما والقسطنطينية حول السيادة الكنسية فى إقليم إيلليريا ، وإعجاب سلستين وتعلقه بالقديس أوغسطين فى نظريته عن الخطيئة الأولى والقضاء والقدر [٢].

وفى سنة ٤٣١م استطاع كيرلس إقناع الإمبراطور ثيودوسيوس الثانى بعقد مجمع فى إفسوس عرف بمجمع افسوس الأول سنة ٤٣١م انتهى فيه رجال الدين إلى الحكم على نسطوريوس وبدعته الطبيعتين Dio physite بالزندقة ، ونفيه إلى صحراء مصر وإعفاءه من منصبه البطريركى [٣]. كما قرر المجمع استقلال كنيسة قبرص عن كنيسة أنطاكية[٤] . لأن يوحنا الأنطاكى كان مؤيداً لنسطور ، كما أن البدعة فى أساسها كانت أنطاكية [٥].

وأصدر المجمع دستور الإيمان الذى يقر الإيمان بما ورد فى مجمع نيقية ومجمع القسطنطينية الأول، ويؤمن بالطبيعة الإلهية الواحدة للمسيح وبأن مريم هى أم الإله : «نعظمك يا أم النور الحقيقى، ونمجدك أيتها العذراء المقدسة ، والدة الإله ، لأنك ولدت لنا مخلص العالم ، آتى وخلص نفوسنا . لمجد لك يا سيدنا وملكنا المسيح ، فخر الرسل ، إكليل الشهداء ، تهليل الصديقين ، ثبات الكنائس ، غفران الخطايا ، نبشر بالثالوث المقدس ، لاهوت واحد، نسجد له ونمجده ، يارب ارحم ، يا رب ارحم ، يا رب بارك ، آمين »[٥].

1- Jones , Op. cit . pp. 85 , 6 ;260 وعن البنود أنظر : كيرلس الأنطونى ، ص١٣٤-١٣٦ .

٢- العرينى ، مصر البيزنطية ، ص٦٥ .

٣- العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص٥١ .

٤- أسد رستم ، الروم ، جـ١ ، ص١٢٥ .

٥- للتفصيلات عن موقف يوحنا أسقف أنطاكية من المجمع أنظر : Evagarius , Op. cit ., pp. 259-263 .

٦- القرطبى ، الأعلام ، ص٢٦ .

كما وضع كيرلس الذى أصبح بذلك زعيما للكنيسة الشرقية دستوره الذى يوضح فيه عقيدته عن الطبيعة الواحدة للمسيح : «إن سيدنا يسوع المسيح هو الابن الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور ، وهو الكلمة المتجسد ، وهو الكائن فى حضن أبيه، هو بعينه الذى اتخذ جسداً فى ملء الزمان من السيدة العذراء مريم لأجل خلاصنا . وهو مساو للآب فى جوهر اللاهوت ومساو لنا فى جوهر الناسوت ، ولما كان الطبيعتان قد اتحدتا بلا اختلاط ولاامتزاج ولاتغيير فإننا نعترف برب واحد هو المسيح الواحد وهو الابن الوحيد الواحد . كما أننا نعترف بأن السيدة العذراء هى أم الله لأن ابن العلى اتخذ جسده منها وعاش فى أحشائها تسعة أشهر»[١].

وقد أثرى «كيرلس» العقيدة المسيحية بالعديد من المؤلفات المكتوبة هذا فضلا عن جهوده المضنية فى الدفاع عن العقيدة والإيمان الأرثوذكس القويم مثل : التجسيد الإلهى ، والعبادة بالروح والجسد ، والكهنوت ، حيث كان يعد الكهنوت تتمة لخدمة المسيح الواحد : المسيح العامل فى الكنيسة لكونه معها إلى انقضاء الأيام ، فالاثنى عشر رسولا يعتبرون اثنى عشر عموداً فى البناء الروحى الذى هو الكنيسة المقدسة ، كما قام بتفسير جميع أسفار العهدين القديم والحديث تفسيرا عميقا فى الدراسة يدل على سعة أفقه فى التفكير وإدراك غوامض الروحيات[٢].

وسار ديوسقورس الذى تولى رئاسة البطريركية فى الاسكندرية فى الفترة من ٤٤٤-٤٥١م على نهج سلفه كيرلس فى حماسة لما حصلت عليه بطريركية الاسكندرية من امتيازات ، وفى مثابرته وتوسله بكل الطرق لتحقيق أغراضه لصالح البطريركية والعقيدة ، وارتكن فى ذلك على تأييد الرهبان . خاصة وأنه قد تولى البطريركية . ولايزال النزاع العقائدى بين الاسكندرية والقسطنطينية قائمًا [٣].

١- ايريس حبيب، المرجع السابق، جـ١ ، ص٤٦٠ ، ٤٦١ .

٢- ايريس حبيب، المرجع السابق، جـ١ ، ص٤٦٤ ، ٤٦٥ .

٣- العرينى، مصر البيزنطية ، ٦٩-٧٢ .

فقد ظهر فى ذلك الوقت رئيس أحد الأديرة بجوار القسطنطينية ويدعى «يوطيخا Eu-tycha» ليقول بأنه كان للمسيح طبيعتين ، وأن طبيعة الناسوت تلاشت فى الطبيعة الإلهية فصار السيد المسيح بطبيعة واحدة ممتزجة »[١]، وهنا يتفق مع كنيسة الإسكندرية فى أن للمسيح طبيعة واحدة هى الطبيعة الإلهية ، ولكنه يختلف معها فى أنه يقول بالامتزاج مما أدخله فى صراع ونزاع مع ديوسقورس بطريرك الاسكندرية .

مما جعل الإمبراطور البيزنطى يدعو إلى عقد مجمع فى افسوس سنة ٤٤٩ م عرف «بمجمع افسوس الثانى» الذى حضره أساقفة مصر وفلسطين ومندوبين عن الإمبراطور وكذلك أرسل البابا بمندوبيه الثلاثة : أسقف وقسيس وشماس ومعهم رسالة Tome من لدنه يحاول فيها التوفيق بين المتنازعين وتقريب وجهات النظر «أن المسيح ليس إلا شخصا واحداً ، وهو كلمة الله ، اتحدت فيه الطبيعتان الإلهية والبشرية ، على الرغم من أن كلا منهما كاملة ، غير مختلطة بالأخرى ، وتؤدى وظائفها الخاصة ، فى نطاق وحدة الشخص »[٢]. وترأس ديوسقورس هذا المجمع ، وانتهى قرار المجمع إلى تبرئة يوطيخا بعد توبته أمام الحضور . ونص قرار الإيمان على : «القول بطبيعة واحدة بعد الاتحاد للكلمة المتجسد ، بدون اختلاط وامتزاج أو استحالة »[٣]. ورفض ديوسقورس تلاوة رسالة البابا مما جعل البابا يطلق على هذا المجمع «مجمع اللصوص» ويقال لأن الأساقفة قد هربوا أمام عنفوان ديسقورس ، ومن بقى منهم وقعوا على بياض قبل صدور القرارات مما جعلهم يطلقون عليه «مجمع اللصوص» [٤].

وغضب البابا لإغفال رسالته ولذا طلب من الامبراطور «مرقيان» ضرورة عقد مجمع مسكونى آخر لفض هذا النزاع . ولأن الإمبراطور وزوجته « بوليكيريا » كان يريدان السلام والهروء فقد أمر بعقد هذا المجمع فى خلقدونية سنة ٤٥١م لقربها من القسطنطينية حتى يتمكن من مباشرة الأمور بنفسه أو عن طريق مندوبين الذين حضروا هذا المجمع نيابة عنه [٥].

١- القمص كيرلس الأنطونى، المرجع السابق، ص١٥٦ .

٢- العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص٥٢ ، هامش١ .

٣- كيرلس الأنطونى، المرجع السابق، ص١٧٠ ، ١٧١ .

٤- أسد رستم ، المرجع السابق، جـ١ ، ص١٢٧ .

٥- العرينى، مصر البيزنطية ، ص٧٢ .

وفى هذا المجمع تحالفت روما والقسطنطينية ضد الاسكندرية التى حازت مركزا عظيما طوال مجمعى افسوس الأول والثانى فقد خشى الجميع هذه السلطة وحقدوا عليها هذه المكانة ولذا تحالف الجميع ضد ديسقوروس وبطريركيته ، وأصدر المجمع قرارا بحرمان ديوسقورس ، والإيمان بمذهب الطبيعتين للسيد المسيح ، وقبوله رسالة البابا Tome واعتبارها صحيحة ومتفقة مع الأرثوذكسية العقيدة السليمة ، وأهمها «أن المسيح موجود بطبيعتين ، دون اندماج أو تغيير أو انقسام أو نفصال »[١].

وفى هذا المجمع تعرض ديوسقوروس لاتهامات كثيرة من قبل الأساقفة ، فيقول باسيل أسقف سلوقية : «يفضل ديوسقورس أن يذهب جميع الأساقفة إلى المنفى بسببه ، ويدعى هذا القديس أنه ينافح عن العقيدة الأساسية ، غير أنه يعتبر شخصه فوق الله وفوق رسل روما والقسطنطينية وأنطاكية ، وجميع الأساقفة الآخرين . فإذا هزمت الاسكندرية وقضى ديسقورس نحبه فلن يظل العالم بلا أسقف »[٢]. كما وقف الإمبراطور مرقيان موقفا عصيبا من ديوسقورس [٣]، وقد أراد إلزامه بالاعتراف بمذهب الطبيعتين مهدداً إياه بالقتل ، ولكن ديسقورس وقف فى وجه الإمبراطور قائلا : «إن القيصر لايلزم البحث فى هذه الأمور الدقيقة، بل ينبغى له أن يشتغل بأمور مملكته وتدبيرها ويدع الكهنة يبحثون عن الأمانة المستقيمة ، فإنهم يعرفون الكتب ، وخير له ألا يميل مع الهوى ، ولايتبع غير الحق »، مما جعل الإمبراطور يصدر قراراً بنفيه إلى جزيرة فلاجونيا بآسيا الصغرى [٤]. وتعيين «بروتيريوس Proterius خلفا له ، ولكن شعب الاسكندرية لقى هذا القرار بغضب وثورة شديدة حيث تجمع الناس فى الشوارع وتجمهروا ضد الأسقف الجديد ورموه بالحجارة أثناء مجيئه من طيبة إلى الاسكندرية مقر البطريركية مما اضطروه إلى الفرار داخل معبد سيرابيس ، وتدخلت القوات العسكرية لفض الثوار والمتجمهرين ، لدرجة أن الإمراطور قد أرسل ٢٠٠٠ جندى لقمع هذه الثورة ، فتجمع الناس فى الهيبدروم للتفاوض مع القائد العسكرى Florus الذى أصدر أوامره بالتعرض للنساء

١- العرينى ، مصر البيزنطية ، ص٧٣ - ٨٠ .

٢- بينز ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص١٠٤ .

3- Evagarius , Op. cit ., pp . 283 ff ; Zachariah . Op. cit , pp. 252-253 .

٤- القرطبى ، المصدر السابق ، ص٢٧ .

والبنات لتهديد الثوار[1]. وهذا يعبر عن رفض المصريين تعيين أى أسقف عليهم من قبل الإمبراطور بدون اختيارهم حتى ولو كان منهم . وعندما كان هذا الموقف يتكرر يقول رجال الدين للأسقف الذى تم تعيينه من قبل الإمبراطور «نحن نحبك ولكن لانريدك أسقفا علينا لأنك من قبل الإمبراطور »[2]، وهذا يعبر أيضا عن الإنشقاق والاستقلال عن الكنيسة البيزنطية .

وها هى صيغة دستور الإيمان الصادرة عن مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م : «إننا نعلم جميعا تعليما واحداً ، تابعين الآباء القديسين، ونعترف بابن واحد ، هو نفسه ربنا يسوع المسيح ، وهو نفسه كامل بحسب الناسوت ، إله حقيقى وإنسان حقيقى، وهو نفسه من نفس واحدة ، وجسد مساو للآب فى جوهر اللاهوت ، وهو نفسه مساو لنا فى جوهر الناسوت مماثل لنا فى كل شئ ، ماعدا الخطيئة ، مولود من الآب الدهور بحسب اللاهوت . وهو نفسه فى آخر الأيام مولود من مريم العذراء والدة الإله بحسب الناسوت ، لأجلنا ولأجل خلاصنا . ومعروف هو نفسه مسيحا وابنا وربا ووحيداً، واحداً بطبيعتين بلا اختلاط ، ولاتغيير ، ولاانقسام ، ولاانفصال ، من غير أن ينفى فرق الطبائع بسبب الاتحاد، بل إنه خاصة كل واحدة من الطبيعتين ما زالت محفوظة ، تؤلفان كلتاهما شخصا واحداً ، وأقنوما واحداً ، لامقسوما ، ولامجزءاً إلى شخصين ، بل هو ابن ، ووحيد واحد، وهو نفس الله الكلمة الرب يسوع المسيح، كما تنبأ عنه الأنبياء منذ البدء ، وكما علمنا الرب يسوع المسيح نفسه ، وكما سلمنا دستور الآباء»[3].

ولم ينته الأمر بانفضاض جلسات المجمع واصدار قراراته ، فقد كانت له نتائج بعيدة المدى على المستويين السياسى والدينى فى مصر والإمبراطورية البيزنطية بأكملها . فاعتنق المصريون

١- Evagarius , Op. cit ., pp. 301-2 .

٢- العرينى مصر البيزنطية ، ص٧٦ .

3- Evagarius , Op. cit ., pp. 298-300 ; العرينى ، مصر البيزنطية ، ص٧٤

الدولة البيزنطية لنفس المؤلف ، ص٥٣ هامش ٢ ؛ أسد رستم ، الروم جـ١ ، ٥١٠ ، ٥٤٣ . ، ص١٢٧ ، ١٢٨ ؛ الخريدة النفيسة ، جـ١ ، ص٥١٠ ، ٥٣٤ .

والسوريون مذهب الطبيعة الواحدة Monophysite الذى عرف بالمونوفيزيقية [١]. وحقق هذا المجمع لبطريركية القسطنطينية ما قرره مجمع القسطنطينية الأول سنة ٣٨١م من الصدارة والزعامة الكنسية ، وإن كانت كنيسة روما تسبقها فى المرتبة فهذا سبق شرقى، أما هى فأصبحت مساوية لروما مما أدى إلى وقوع النزاع بين الكنيستين على الصدارة بعد ذلك [٢]. وقد عبر البابا آنذاك عن خوفه من هذه السلطة التى حازتها القسطنطينية [٣]. وفضلا عن هذا فقد منح المجمع كنيسة القسطنطينية السيادة على الكنائس ، ولبطريركها السيادة والسلطة على كنائس الشرق فى تراقيا وآسيا الصغرى و Pontica[٤] .

وفى مصر ألغت كنيسة الإسكندرية استخدام اللغة اليونانية فى طقوسها واستخدمت اللغة القبطية المصرية القديمة ، وعندما استخدمت الإمبراطورية الضغط والإضطهاد وخاصة فى عهد المقوقس كانت النتيجة مساعدة المصريين لأعداء الإمبراطورية فى احتلال أراضى الإمبراطورية للتخلص من الحكم البيزنطى مثلما حدث أثناء الفتح الفارسى لها ثم الفتح العربى الإسلامى فى القرن السابع الميلادى[٥]. ولم تصبح المسألة بعد ذلك تتعلق بالعقيدة فحسب ، بل اتخذت شكلا قوميا[٦] .

وبدأ النزاع بشأن اختيار البطريرك السكندرى فمن ينتخبه المصريون لايعينه الإمبراطور، ومن يعينه الإمبراطور لايقبله المصريون ، إلى أن تم الاتفاق سنة ٤٨٢ م على أن يختار المصريون أسقفهم دون تدخل الإمبراطور [٧].

١- العرينى ، مصر البيزنطية ، ص٧٥ ، ويرى المونوفيزيقون أن الطبيعة الإنسانية فى السيد المسيح «مجرد خيال وصورة ذهنية فقط».

Dearesly , History Middle Europe from 476 - 911 , New York , 1960 , p. 156 .

٢- العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص٥٣ .

3- Jones , Op. cit , p. 261 .

4- Loc. cit .

٥- العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص٥٤ . Baker , Relations , p. 16 .

٦- سيدة اسماعيل الكاشف ، مصر فى فجر الاسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٤، ص٤،٥ .

٧- العبادى، مصر ، ص٣٠٥ .

وفى بيزنطة العاصمة ذاتها ازدادت سلطة وعنفوان بطريرك القسطنطينية بعد انتصاره فى مجمع خلقدونية حتى أصبح يتحكم فى تولية العرش الإمبراطورى، وهذه سابقة لم تحدث من قبل ، فتلقى الإمبراطور «ليون الأول» العرش من يد البطريرك وليس من الجيش أو السناتو ، واتخذ التتويج مظهر التكريس الدينى بدلا من الاحتفال العسكرى المدنى [1].(وهذا مناقضا لمبدأ القيصرية البابوية Caesaro - Papism الذى أرساه الإمبراطور قسطنطين الكبير وجعل الكنيسة مجرد هيئة تابعة للبلاط الإمبراطورى، ومن حق الإمبراطور عزل وتعيين البطريرك وكافة رجال الدين فى الإمبراطورية) .

وواقع الأمر فرغم أن الإمبراطور مركيان قد أقر بمذهب الطبيعتين إلا أنه لم يكن راغبا فى تحطيم المونوفيزتى تماما خوفا فقدان مصر وسوريا اللتين تمتلكان قوت الإمبراطورية من القمح. وحدث ما كان يخشاه الإمبراطور فقد انشقت مصر وسوريا عن القسطنطينية وحاولتا الاستقلال وبدأ هذا واضحا فى القرن السابع الميلادى أثناء الفتح العربى الإسلامى بإظهار الرغبة فى الدفاع عن أنفسهم ضد الفاتحين ، ومفضلين الاستقلال السياسى عن الحكم الإمبراطور البيزنطى والخضوع لحكم الفاتحين المسلمين [2]. ويجمل ما سبيرو ذلك فى قوله : «لم يكن مذهب الطبيعة الواحدة فى جملته هرطقة دينية وإنما كان وسيلة للإنشقاق عن الكنيسة » [3].

وقد حاول الإمبراطور «زينون» التوفيق بين الكنائس وتوحيدها فى ثانية فأصدر فى سنة ٤٨٢م قانون يعرف بقانون «الاتحاد Hinoticon» يوفق فيه بين المذهب الخلقدونى أى مذهب الطبيعتين ، والمذهب المونوفيزيقى أى مذهب الطبيعة الواحدة ، حيث قرر فى هذا القانون الاعتراف بما صدر من القرارات فى المجامع المسكونية السابقة : مجمع نيقية ، والقسطنطينية الأول ، وخلقدونية سنة ٤٥١م، غير أنه تجنب فيه الإشارة إلى عبارة «طبيعتين» أو «طبيعة واحدة» ولم يذكر ما ورد فى قرار مجمع خلقدونية عن «اتحاد الطبيعيتين فى المسيح» . ولم

١- العرينى، الدولة البيزنطية ، ص٥٤ .

2- Koenigsberger , H. G., Medieval Europe , 400-1500 , Longman , 1987 , pp. 54 -55 ; Diehl, C, Byzantiuon Greatness and Decline , New Jersy, 1954 , p. 8 .

٣- بل، مصر من الإسكندر ، ص١٧٢ .

يوافق عليه كلا الطرفين من أصحاب المذهبين ، حتى أن البابا قام باصدار قرار بالحرمان ضد بطريرك القسطنطينية ، مما جعل البطريرك يرد عليه باسقاط اسمه من الصلوات والأدعية الكنسية فى الكنائس البيزنطية ، ووقع الشقاق بينهما لمدة ثلاثين سنة [١].

وقد حاول الإمبراطور التفاوض مع السكندريين وإقناعهم بالعودة والاتحاد بإرسال رسله للتفاوض معهم فى الاسكندرية مرة ، ومرة أخرى عن طريق استدعاءهم إلى القسطنطينية للتفاوض معهم بنفسه ، ولكنهم أصروا على موقفهم فى الانشقاق عن الكنيسة البيزنطية [٢].

وعندما ارتقى جوستنيان عرش الإمبراطورية سنة ٥٢٧ م أراد تنفيذ فكرة توحيد الإمبراطورية دينيا وسياسيا ، خاصة وأن زوجته ثيودورا قد نصحته بضرورة عودة المناطق والأقاليم المونوفيزتية إلى حظيرة الإمبراطورية ، ولكن العقبات العقائدية والمذهبية وقفت حجر عثرة فى وجه أهداف جوستنيان وأحالت دون تحقيقها [٣]. مما جعله يعقد مجمعا فى القسطنطينية سنة ٥٥٣م ويقر فيه الأساقفة ما قرره مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م ، هذا فضلا عن إصدار اللعنة ضد أوريجين السكندرى[٤]، والزعماء المونوفيزيتين الثلاثة [٥]:

Theodore of Mopsuestia , Theodret , and Ibas .

وعلى أية حال فبعد مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م، والانشقاق الكنسى الذى وقع بين كنيسة الاسكندرية وكنيسة القسطنطينية ، أصبح يتولى رئاسة بطريركية الاسكندرية اثنان من البطاركة فى ذات الوقت ، أحدهما يعينه الإمبراطور البيزنطى على مذهب خلقدونية ويعرف بالبطريرك الملكانى- أى التابع إلى الملك- ولايعترف به الأقباط حتى ولو كان من الأقباط أنفسهم ، والآخر يعينه الأقباط ليكون رئيسا عليهم ويعرف بالبطريرك اليعقوبى- نسبة إلى يعقوب الأقباط ليكون رئيسا عليهم ويعرف بالبطريرك اليعقوبى- نسبة إلى يعقوب البرادعى.

١- العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص٥٨ .

2- Evagarius , Op. cit ., pp. 361-2 , Meyendorff , J ., " Justinian : The Empire and the Church, " in Dumbarton Oaks Papers, vol . 22 , 1968 , p. 50 .

3- Meyendorff, Justinian , D . O . p. 22 . p. 59 .

4- Whitham , : The History of the Christian Church to the Separation of East and West , 4 Edition , London , 1931 , pp. 320-1 .

5- Holmes , The Age of Justinian and Theodora , II , p. 705 ; Ure , p. , N ., Justinian and His Ages , First Published , London , 1951 . p. 129 .

وظل الحال على هذا الأمر حتى ارتقى عرش الإمبراطورية البيزنطية الإمبراطور «هرقل ٦١٠-٦٤١» ، وبعد انتصاره على الفرس سنة ٦٢٧ م وطردهم من مصر والشام واسترداد صليب الصلبوت [١]. حاول التوفيق بين الكنائس وإرجاع الكنائس المونوفيزيتية إلى حظيرة الكنيسة الأرثوذكسية فى القسطنطينية ، فأقر مذهبا جديداً يجمع بين الآراء يقول بأن للسيد المسيح طبيعتين ولكن بإرادة واحدة ومشيئة واحدة وقضاء واحد، وعرف هذا المذهب «بالمونوثيليتية» وساعده فى ذلك أسقف القسطنطينية آنذاك المسمى «سرجيوس» [٢]. الذى دخل فى مفاوضات مع رجال الدين فى الكنائس المونوفيزيتية ليوفق بين مذهبهم ومذهب الطبيعتين . ولم يجد المذهب المونوثيليتى القبول من كلا الجانبين ، بل أدى إلى مزيد من السخط والهياج[٣] وخاصة فى الكنائس الشرقية فى مصر وبلاد الشام.

وفى ذلك يقول بتلر[٤] : «كان المسيحيون جميعا قد اتفقوا اتفاقا عجيبا عندما رأوا حرب هرقل وجهاده مع الفرس ذلك الجهاد المدهش، وكانوا يرقبونه وأنفاسهم خاشعة فى الصدور من عظم ما كان فى نفوسهم . فلما أن هزم الكفار وخلص بيت المقدس منهم وعلا أمر الصليب فرح المسيحيون بالنصر على اختلاف نحلهم من قبط وملكانيين ، وكذلك أظهروا سرورهم جميعا بما حل باليهود من النقمة واشتركوا كلهم فيما أمرهم به زعماؤهم من التوبة تكفيرا عن ذنبهم هذا، فكانت تلك الساعة فرصة من ذهب لو اغتنموها لأدت إلى وفاق دائم ووئام حق . وقد فطن هرقل إلى هذا وكان يعرف تعلق أهل ذلك العصر بأن يكون لهم شعار يحفظونه ومقالة يقولونها ، غير أنه لم يفطن إلى أن مذهبه الذى حاول به التوفيق قد يأباه أهل مصر ، ولم يعرف أن أهل مصر إذا أبوا ذلك المذهب كان شر الطرق إلى ضمهم إلى الجماعة أن يرغمهم عليه ويقذف به فى حلوقهم إذ قد كرهوا مرارة مذاقه منذ ذاقوه . وعلى أى حال قد كانت هذه خطته فى مصر والشام ، وكان من رأى ذلك العصر أن أمور الدين والعقيدة مما ينبغى للدولة

١- انظر التفاصيل عند : بتلر ، فتح العرب لمصر ، جـ١ ترجمة محمد فريد أبو حديد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩ ، ص١١٤-١٢٠ .

٢- نفس المرجع ، ص١٢١ .

٤- محمود الحويرى، مصر فى العصور الوسطى، الطبعة الأولى، دار عين للنشر ، ١٩٩٦ ، ص٤٨ .

٤- المرجع السابق ، ص١٥٥ .

أن تقوم عليه ويصدر الناس فيه عن أمرها. ولم يكن الإمبراطور فى هذا الشأن أحكم رأيا من أهل عصره ، فعقد النية على أن يظهر المذهب الذى ابتدعه رؤساء الدين الثلاثة فى دولته على كل ما عداه من المذاهب المخالفة له ، متوسلا إلى غرضه هذا بكل الوسائل حسنها وقبيحها ».

ومما زاد الطين بلة أن هرقل تعصب لفكرته وأراد تنفيذها بالقوة، فعين على مصر أحد أتباعه «كيرس» الذى عرف فى تاريخ مصر باسم المقوقس عظيم القبط فى مصر ، والذى تولى الزعامة السياسية والدينية فى وقت واحد ، وسام الأقباط أشد العذاب ، وأنزل بهم جام غضبه طوال عشر سنوات لإجبارهم على اعتناق مذهب هرقل «المونوثيلتى» .

وما أن وصل «كيرس» إلى الاسكندرية فى خريف سنة ٦٣١ حتى هرب بطريرك الأقباط المحبوب «بنيامين» إلى الصحراء بعد أن دبر أمر الكنيسة ، وقد أنبأ رجال الدين بأنه سينزل بهم العذاب والعسف على يد كيرس لمدة عشر سنوات «وحضهم على أن يثبتوا على عقيدتهم حتى يوافيهم الموت». وكان يعلم ما جاء به كيرس لذلك رفض قبل أن يلتقى به[١].

ويرجع فزع رجال الدين الأقباط من مجئ كيرس أنه قد جمع فى يديه السلطتين السياسية والدينية مما جعله ذا سلطان مطلق . ورغم أن كيرس لم يسع إلى التقرب من بطريرك الأقباط «بنيامين» إلا أنه تظاهر أمامهم بأنه إنما جاء مسالما ، وحاول استمالة كل من الأقباط المونوفيزتيين وأتباع مذهب خلقدونية الملكانى إلى مذهب هرقل الجديد بغرض التوفيق بين الكنائس ، ولكنه أساء إيضاح وبيان حقيقة هذا المذهب مما جعل الجميع يسيئون فهمه ، فرآه الملكانيون نقضا لمذهب خلقدونية ، وأما الأقباط فقد رأوا فيه اتفاقا مع مذهبهم قائلين «فإن المذهب الجديد ما دام قد سلم بأن الله له إرادة واحدة وفعل واحد، فإنه لابد أن يسلم بأن له كذلك طبيعة واحدة »[٢].

مما جعل كيرس يلجأ إلى عقد مجمع فى الاسكندرية لإزالة هذا الفهم الخاطئ من ناحية ، ومن ناحية ثانية إفساح المجال لرجال الدين وعلى رأسهم «صفر وينوس» أسقف بيت المقدس على هذه البدعة، فأقر كيرس المذهب ، وأصدر تسع سمات شائنة يوصم بها من لايقبله [٣].

١- بتلر، المرجع السابق ، ص١٥٦ .
٢- بتلر ، المرجع السابق ، ص١٥٨ ، ١٥٩ .
٣- نفس المرجع ، ص١٥٩ .

ولما لم يستطع كيرس إثناء الأقباط عن مذهبهم وعقيدتهم إلا بالخداع ولا برميهم بالكفر واللعنة ، حاول الإمبراطور هرقل اللجوء إلى الهروب والتخلص من المشكلة عن طريق التلاعب بالألفاظ اللاهوتية بيد «سرجيوس» أسقف العاصمة البيزنطية الذى رأى أن يقتصر المذهب الجديد على « أن الله له إرادة واحدة ، وأما نفاذ تلك الإرادة بالفعل وهل ذلك الفعل واحداً ومزدوج » فيرجأ القول فيها ويمنع الناس من الخوض فى المناظرات وقد أقر البابا «هونوريوس» بابا روما ذلك . ولكن هذا الحل زاد من المعارضة والرفض فى الكنائس الشرقية فى مصر وبلاد الشام [١].

ومن ثم فقد بدأ الاضطهاد وأشد أنواع العذاب ينزلها كيرس بالأقباط ، وكما يذكر بتلر[٢] «فإن حكم الروم الجديد لم يكن حدثا يحمدونه ويفرحون من أجله . فقد وجدوا فيه أنواع العقاب وصنوف العذاب ، فكأنهم وقد خرجوا من حكم الفرس إلى حكم الروم قد رفع عنهم التعذيب بالسياط ليحل بهم تعذيب آخر من لسع العقارب » ومن شدة العذاب تحول البعض إلى مذهب خلقدونية «الطبيعتين» ، أما الذين ثبتوا على عقيدتهم فقد ذاقوا الوبال حتى الموت، وكان من بين الذين عذبوا حتى الموت أخو «بنيامين» أسقف الاسكندرية الهارب «فقد أوقدت المشاعل وسلطت نارها على جسمه ، فأخذ يحترق حتى سال دهنه من جانبيه إلى الأرض ، ولكنه لم يتزعزع عن إيمانه ، فخلعت أسنانه ثم وضع فى كيس مملوء من الرمل وحمل فى البحر حتى صار على قيد سبع غلوات من الشاطئ ، ثم عرضوا عليه الحياة إذا هو آمن بما أقره مجمع خلقدونية ، فعلوا ذلك ثلاثا وهو يرفض فى كل مرة، فرموا به فى البحر فمات غرقًا» [٣].

وقد جاءت الاضطهادات بنتيجة عكسية فلم يتنازل الأقباط عن مذهبهم قيد أنملة ، ولم يقبلوا مذهب هرقل «المونوثليتى» ، أو مذهب الطبيعتين الخلقدونى، وثبتوا على عقيدتهم ، وتجرأوا على كيرس واتهموه فى وجهه بالكفر واللعنة ، ووصلت بهم الأمور إلى محاولة التخلص منه باغتياله فدبروا مؤامرة فى أحد الأديرة ورسموا خطة لهذا الغرض إلا أن أحد

١- بتلر ، المرجع السابق، ص١٦٠ ، ١٦١ .

٢- فتح العرب لمصر ، ص١٦٢ .

٣- بتلر ، المرجع السابق، ص١٦٣ .

الضباط البيزنطيين سمع هؤلاء الرهبان وهم يتحدثون فى هذا الأمر ، فأرسل جنوده فقتلوا الكثيرين منهم وجرحوا الكثيرين ونجا كيرس من هذه المحاولة [١].

وقد زادت هذه الاضطهادات من اتجاه الأقباط نحو القومية والاستقلالية، واستقبال الفاتحين العرب باعتبارهم رمز الخلاص من الحكم البيزنطى ، فيقول ميخائيل السريانى «لم يسمح الإمبراطور لكنيستنا المونوفيزتية بالظهور فى أيامه ، ولم يصغ إلى شكاوى الأساقفة فيما يتعلق بالكنائس التى نهضت ، ولهذا فقد انتقم الرب منه ... لقد نهب الرومان الأشرار كنائسنا وأديرتنا بقسوة بالغة ، واتهمونا دون شفقة، ولهذا جاء إلينا من الجنوب أبناء اسماعيل لينقذوننا من أيدى الرومان ، وتركنا العرب نمارس عقيدتنا بحرية ، وعشنا فى سلام»[٢] .

الرهبنة والديرية :

الرهبنة تعنى الانسحاب من العالم والتوحد فى الصحراء، والراهب يعرف بالناسك . وجاءت من المصطلحات اليونانية Anchorite و Anchoretes وهى السائح المبتعد عن القرى وEremite وMonachos الناسك الذى يعيش منعزلا وكذلك الراهب Coenolrites[٣].

والديرية إفرازاً ونتيجة للرهبنة فمصطلح الديرية Monasticism مشتق من الكلمة اليونانية Mones أى الوحيد Alone، وتعنى الحياة الدينية والأفكار الفلسفية التى تؤدى إلى الحياة الطاهرة النقية بعيداً عن الظروف الاجتماعية والاقتصادية ، بالتفرغ للصلاة والصيام وحياة الرهبان[٤].

وتكشف أوراق البردى من العصر البطلمى على وجود نظام الرهبنة فى مصر، أى قبل ظهور المسيحية بقرون ، وقد وجدت فى معبد الإله سيرابيس. إذ أن هؤلاء الرهبان قد وهبوا حياتهم لخدمة الإله سيرابيس ، وانقطعوا عن الحياة فى الدنيا فى الخارج تماما معتقدين أن

١- نفس المرجع ، ص١٦٤-١٧١ .

٢- الحويرى ، مصر فى العصور الوسطى ، ص٥٠ .

٣- العرينى ، مصر البيزنطية ، ص٢٥ .

4- Sinnigen, A History of Rome , p. 487 .

الإله سيرابيس قد ناداهم لأداء الفروض الدينية وخدمته . وفى بعض الأحيان كانت تؤدى للتفكير عن الخطايا ، ولذلك فقد كان البعض من الرهبان يظل فى المعبد مدى الحياة ، والبعض الآخر كان يقضى فترة من الوقت ويخرج إلى الحياة الدنيا[١].

وعلى أية حال فقد أدت ظروف الإضطهادات التى وقعت على المسيحيين فى مصر وخاصة فى عهد الإمبراطور «دسكسوس سنة ٢٥٠م» إلى فرار هؤلاء المسيحيين إلى الصحراء والاختفاء بالجبال فراراً بدينهم وحفاظا على عقيدتهم ، والتفرغ لعبادة الله عبادة دينية خالصة. ورغم ما تعرضوا له من أهوال وعذاب من جوع وعطش وإحاطتهم بالوحوش الضارية إلا أنهم وجدوا فى ذلك عذابا أخف من أهوال العذاب والإضطهاد على أيدى الحكومة الرومانية [٢].

وقد اختلفت آراء المؤرخين حول هذا النظام ، فيرى «بل» أن نظام الرهبنة والديرية لم يكن دينيا خالصا ولكنه كان وسيلة للتعبير عن القومية المصرية واللغة القبطية قائلاً : «ومن الإسراف فى الرأى تربط هذا النظام بنظام الزهد أو التنسك (Enkatchê - Katochê) الذى عرف فى عبادة سيرابيس ، ومقتضاه أن بعض الناسكين كانوا ينقطعون لخدمة هذا الإله فيقيموا داخل معبده الكبير فى منف أو غيرها . وكان ذلك يحدث بطريقة غامضة ، فلعلهم كانوا يستجيبون لوحى مقدس هبط عليهم فى صورة حلم ، وكان المصريون بطبيعتهم يميلون إلى حياة العزلة والتنسك ولامراء فى المسيحيتين وقد داخلها على الدوام لون من ألوان الزهد ، وأن الميول الرهبانية قد وضحت فى الكنيسة المصرية منذ فجر تاريخها . وتمثل هذا الدليل فى «القديس بولس الطيبى» فقد كانت طيبة معقلا للقومية المصرية والعبادات الكهنوتية التى تعبر عن هذه القومية ، وهذا يدل على أن الرهبنة قد استحدثت فى مصر[٣].

ويرى البعض «أن حياة الرهبان جبن وهروب من مواجهة الحياة ومسئولياتها. ولكن حقيقة الأمر أن هؤلاء الرهبان كانوا يرتاعون لو قيل عنهم إنهم يفرون من الحياة . فقد كانوا يواجهون

١- كولتون ، عالم العصور الوسطى، ص١٢٥ هامش ١ .

٢- العبادى ، مصر ، ص٣٣٤ ، ٣٣٥ .

٣- بل ، مصر من الإسكندر ، ص١٦٤ ، ١٦٥ .

عدوهم فى عقر داره حيث إن الصحراء هى مأوى الأرواح الشريرة والشياطين . فبوجودهم فى الصحراء معناه محاربة الشياطين فى مملكة الإله ست عدو أوزوريس ، معتمدين على عون الإله [١].

«ويرى الباحثون فى الطبيعة البشرية أن ازدهار حركة الرهبنة فى القرن الرابع لم يكن على أحسن الفروض خيرا خالصا : ذلك أنها كانت تعنى اعتزال آلاف الناس ميدان الحياة العملية ، وغالبا ما كان هؤلاء ذوى همة عالية وإرادة قوية ، وبينما كانت الإمبراطورية تعانى نقصاً خطيراً فى الأيدى العاملة ، كما كانت تعنى أيضا تحديداً شديداً لميدان النشاط البشرى وإقفاراً بالغا فى الحياة الثقافية»[٢]. هذا فضلا عن أن اللغة القبطية قد ظهرت فى الأديرة المصرية منذ نشأتها ، وهذا قد أكسب الكنيسة المصرية طابعا قوميا قويا [٣].

ويرى نورمان كانتور أن هذه الحياة الرهبانية كانت خالصة لوجه الله فيقول : «كانت الصحراء المصرية هى المكان المفضل الذى يفر إليه أولئك المتدينون الميالون للعزلة والتأمل . بيد أن أباء الصحراء اكتشفوا أن العالم لم يكن ليدعهم يذهبون بعيدا. فمنذ ذاعت أخبار تدينهم أخذ المريدون فى السفر إليهم عبر الصحراء المصرية طلبا لمساعدتهم فى التوسل إلى الرب. وهكذا فمنذ البداية الأولى للديرية المسيحية وجد الرهبان أنفسهم محاطين بالعالم الذى كانوا قد تركوه لتوهم إحتقاراً لشأنه ، كما أن المجتمع إلتمس منهم الشفاعة لأفراده لدى الرب. لقد كانت بداية حركة الزهد والتنسك فى المسيحية دليلا على علاقة الشد والجذب بين الدير والعالم » [٤].

والجدير بالذكر أن نظام الرهبنة والأديرة نظام مستقل تماما عن السلك الكنسى الكهنوتى وليس ضده ، يقول هارناك وهو أحد رجال الدين : «إنهم هربوا من الدنيا ، ومن ثم من كنيسة كانت قد ضمت العالم إلى صدرها . على أن هذه الحركة لم تكن تعنى بحال من الأحوال أنها

١- بل المرجع السابق ، ص١٦٦ .

٢- نفس المرجع، ص١٦٨ .

٣- نفس المرجع ، ص١٧١ .

٤- كانتور ، العصور الوسطى الباكرة ، جـ١ ، ترجمة د. قاسم عبده قاسم ، دار عين للنشر ، ١٩٩١ ، ص٢٥٦ ، ٢٥٧ .

ضد الكنيسة ، وإنما تعنى فقط أن الناسك قد وجد نفسه مستقلا لحد ما عن القس . وأنه عكف على أن يعمل لخلاص نفسه »[1].

ويرجع الفضل الأول فى نشأة الرهبنة والأديرة إلى القديس «أنطونيو» الذى ولد فى مصر الوسطى سنة ٢٥٠م ، وتوفى والده وهو فى العشرين من عمره ، وكثر تردده على الكنيسة والحياة المسيحية عنده هى محاربة الشيطان وكبح جماح النفس عن السعى إلى خيرات الحياة المادية ، وشروط النجاح فى هذه المعركة هو التهذيب والشجاعة وتحقيقا للآية الواردة فى انجيل متى ١٩-٢١ : «إذا أردت أن تكون كاملا ، فبع ما عندك واتبعنى، فسوف يكون لك كنز فى السماء »، فاعتبرها موجهة إليه، فباع أرضه التى تبلغ ٣٠٠ فدان ، وتصدق بثمنها على الفقراء ، وعهد بأخته إلى دير للعذارى وانصرف إلى العزلة والعبادة والنضال ضد الشيطان فى الصحراء لمدة عشرين سنة مكتفيا بالزاد المتواضع المكون من الخبز والإدام الرخيص الذى كان يحمله إليه بين الحين والآخر بعض المريدين الذين كانوا يذهبون إليه للاستماع إلى وسائله فى تحدى الشياطين فى الصحراء[2].

وعن عالم أنطون يقول أثناسيوس الذى كتب قصة حياة هذا القديس الذى حماه فى الصحراء بين الرهبان مدة طويلة أثناء مطاردة الأباطرة له : «عالم مجرد من الشرور والآثام : يقطنه جماعات من الناس يرتلون آيات الإنجيل ، ويهوون القراءة، ويمارسون الصوم ، ويؤدون الصلاة ، ويبذلون الإحسان ، ويعملون على أن تسود بينهم المودة والوفاق . فليس بينهم شرير ولا أثيم يجلب عليهم الكوارث ، بل هم جمع من النساك، جعلوا قبلتهم تحقيق الفضيلة . وإن كان منهم من يحسون بالراحة لبعدهم فى صحرائهم عن تقريع حياة الضرائب وتعسفاتهم»[3].

وتألف من الزهاد الذين إلتفوا حول أنطونيو مجتمع شبيه بالتلمذة فقد كان للشيوخ كل الاحترام والتقدير والسلطة الأدبية على تلامذتهم فى نفس يعود الفرد إلى الإنفرادية عندما ينتهى من تلقى دروسه. وانتشرت الرهبانية والأديرة الإنفرادية فى الوجه البحرى حتى أصبحت شواطئ النيل والبحر المتوسط مليئة بالرهبان الذين يعيشون تارة فرادى ، وتارة جماعات[4].

١- كولتون ، المرجع السابق، ص١٢٦ .

٢- العرينى، مصر البيزنطية ، ص٢٧ ، ٢٨ .

٣- العرينى ، مصر ، ص٢٩ .

٤- نفس المرجع ، ص٣٠ ، ٣١ .

وأوضح مثال على ديرية أنطون تمثل فى صحروات وادى النطرون وسقيط وسيليا Cellia نسبة إلى القلايات Cells ، ومن أشهر الرهبان والقديسيين الذين عاشوا فى هذه المناطق أو زاروها : بلاديوس وكاسيان ، والقديس جيروم، وروفينوس مؤلف تاريخ الرهبانية Historia Monachorum .

ويصف روفينوس القلايات وحياة الرهبان موضحا أن هذه القلايات أو الصوامع قد أقيمت بعيدا عن بعضها لمسافات بعيدة تتجاوز حد النظر والسمع ، ولايجتمع الرهبان الذين يعيشون فى هذه القلايات الانفرادية إلا فى يومى السبت والأحد لتأدية الصلاة الجماعية ، ثم ينصرفون إلى العزلة باقى أيام الأسبوع، ولايتزاورون إلا فى حالات المرض أو الدواعى الدينية [١].

وخير مثال لتوضيح مظاهر الحياة داخل هذه الأديرة ما يرويه لنا بالاديوس من خلال زيارته لوادى النطرون سنة ٣٩٠م : «وأقام فى جبل النطرون خمسة آلاف راهب، يمارسون ألوانا مختلفة من الحياة كل منهم حسب طاقته ووفق رغبته ومشيئته . فلكل منهم الحرية فى أن يعيش منفرداً ، أو مع شخص آخر، أو فى جماعة . وفى الجبل سبعة مخابز ، وكنيسة كبيرة ، قام بجوارها ثلاث نخلات ، تدلى من كل منها سوط ، أعد أحدها لتأديب الرهبان الذين يثبت سوء خلقهم وسيرتهم ، ويستخدم الثانى لإنزال العقاب باللصوص ، أما الثالث فيجرى استعماله للمخالفين من الزائرين الذين يقومون فى زيارة عابرة فمن ارتكب ذنبا وجرى عليه الحكم بما يستحقه ذنبه من الجلد، تقرر ربطه إلى النخلة، لتنفيذ العقوبة المقررة عليه، وبذلك يصلح حاله ، وقام قرب الكنيسة داراً للضيافة ، وكل من يفد إليها من الضيوف يلقى الترحيب وحسن الضيافة حتى يرحل باختياره ، حتى لو امتدت ضيافته سنتين أو ثلاثة . ففى الأسبوع الأول يعيش الضيف كيفما شاء من حياة الدعة والكسل ، ثم بعدئذ يطلب إليه أن يعمل إما فى الحديقة أو فى المخبز أو فى المطبخ ، فإذا كان من ذوى المكانة جرى إعطاؤه كتابا يطالع فيه غير أنه لايجوز له أن يتحدث إلى غيره حتى ظهر اليوم . وأقام فى هذا الجبل أطباء، وصناع للفطائر وصناع للنبيذ ، وجاز بيع النبيذ ، واشتغل الجميع بنسيج الكتان بأيديهم كيما يسدوا بذلك حاجاتهم ، وحوالى الثالثة بعد الظهر جاز للواحد منهم أن ينهض ليستمع إلى ما يصدر من كل دار من التراتيل ، فيتخيل ما يلقاه من يغيم الفردوس غير أنهم لايجتمعون فى الكنيسة إلا فى يومى السبت والأحد» .

١- العرينى ، مصر ، ص٣١ ، ٣٢ .

وامتازت الديرية فى وادى النطرون بالتنسكية أو شبه التنسكية ، كما عرفت بالتطوع والاختيار ، فقد منح كل راهب قدراً كبيراً من حرية التصرف دون التقيد بقانون محدد [١].

هذا إلى جانب أنه وجد فى وادى النطرون أيضا مجموعة أخرى من الرهبان الذين لايعيشون داخل الدير، وعرفوا بالنساك المعتزلون الذين عاشوا متوحدين فى جوف الصحراء كل فى صومعته أو كهفه بعيداً عن زميله، ويبلغون فى تعدادهم الستمائة ، ولايجتمعون أو يتصلون برهبان الأديرة إلا يومى السبت والأحد حين يشهدون الصلاة الجماعية [٢].

وقد وضع القديس أنطونيوس للرهبان فى أديرته نظاما ودستورا يسيرون على نهجه ويلتزمون بتعاليمه تمثل فى : أن يعيش الرهبان حياة النسك والتقشف والعمل اليدوى اقتداء بالسيد المسيح الذى كان نجاراً . وأن يعيش كل منهم فى صومعة منفردة ، وألايجتمعوا إلا فى مساء السبت وصباح الأحد للصلاة ، وقضاء بقية أيام الأسبوع فى عبادة انفرادية انعزالية . وقد حدد دستور أنطونيوس ساعات الصلاة التى هى الصلة بين المخلوق والخالق ، وتنحصر هذه الصلوات اليومية فى تلاوة بعض المزامير ومقتطفات من العهد القديم ، وبعض الصلوات التلقائية الفردية والجماعية . والتقشف عند أنطونيوس يعنى الاحتفاظ بالعفاف التام (التبتل وعدم الزواج) ، وإخضاع الإرادة الإنسانية للإرادة الإلهية ، وإخماد الحواس الجسمية عن طريق تعذيب الجسد . وأن يتمثل الراهب بالولاء والطاعة العمياء . وأما العمل اليدوى فيقصد به ألا يعيش الراهب عالة على غيره ، ولابد أن يأكل من كده وعمل يده فلايليق به «أن يكون متعطلا حتى لايفترس به الشيطان». وقد اتخذ أنطونيوس له ولرهبانه لباسا من الكتان الأبيض شبيه باللباس الفرعونى الكهنوتى [٣].

√ «ولم تقتصر الرهبنة الأنطونية على الرجال فحسب بل شملت النساء أيضا اللاتى لم تكن حياة الاعتزال لزاما عليهن ، بل كن فى استطاعتهن أن يقمن بحياة الطهر والتنسك فى بيوتهن وفى جماعات صغيرة من المسيحيات العذارى». ومن الأسباب التى أدت بهؤلاء النساء إلى الانخراط فى سلك الرهبنة ترك الرجال الحياة واعتزالها بالرهبنة ترك بالتالى الكثير

١- العرينى، مصر ، ص٣٢، ٣٤ .

٢- العبادى ، المرجع السابق، ص٣٤٠ .

٣- إيريس حبيب ، المرجع السابق، جـ١ ، ص١١٢ ، ١١٣ .

من النساء بدون زواج وبدون أزواج مما كان يؤدى إلى ظاهرة أخلاقية خطيرة ، فدفع هذا الوضع رجال الكنيسة إلى تشجيع النساء على حياة التبتل والتنسك وألفوا الكتب والخطب والنصائح الدينية التى تدفع بالعذارى إلى هذه الحياة ، وعلى رأس هذه الرسائل رسالة القديس أثناسيوس وهى عبارة عن نصائح للعذراء تحثها على المواظبة على قراءة الكتاب المقدس فى المنزل ، وأداء الصلاة فى مواعيدها ، وإرتداء الملابس المتميزة حين تذهب إلى الكنيسة أو العمل ، وتناول العشاء البسيط بعد التاسعة مساء ، والإمساك عن شرب الخمر، ومساعدة الفقراء والمحتاجين ، ومقابلة الرهبان مقابلة حسنة والاستماع إلى نصائحهم ، وعدم التكبر على قريناتها وأن تكون قدوة حسنة لهن [١].

وعندما زار القديس «باخوم» فى القرن الميلادى هذه الأديرة أراد أن يتطور بها من الجانب الإنفرادى إلى الجانب الجماعى ، ولذا يرجع إليه الفضل فى إرساء الأديرة الجماعية . ويرجع مولد القديس باخوم إلى سنة ٢٩٠ م ، واعتنق المسيحية وهو فى العشرين من عمره . وخدم فى جيش قسطنطين وليكينيوس . وتعلم على يد راهب يدعى «بلامون» كان يعيش فى إقليم دندرة على مقربة من النيل . ثم ترك الحياة العسكرية والحياة بأكملها وعاش فى أحد معابد سيرابيس [٢].

ولقد كانت للحياة العسكرية التى عاشها باخوم فى الجيش الإمبراطور أثرها الواضح على نظام الرهبانى حيث اتسم بالشدة والصرامة والالتزام ، وكذلك الطاعة والعمل اليدوى والحياة المشتركة [٣].

وقد وضع باخوم دستور للحياة الديرية الجماعية يتمثل فى النقاط التالية :-

١- أن يأكل الراهب ويشرب ما يشاء ، مع إلزامه بالعمل بقدر ما يطعم ، وألا يكلف الصائمين والضعفاء بأعمال مضنية .

٢- أن يقيم كل ثلاثة من الرهبان فى قلاية واحدة .

١- العبادى، المرجع السابق ، ص٣٤٠ ، ٣٤١ .

٢- العرينى، مصر البيزنطية ، ص٣٤ .

٣- ايريس حبيب، المرجع السابق، جـ١ ، ص٣٠٤ .

٣- أن يتناول الجميع الطعام فى مكان واحد .

٤- أن يكون النوم على مقاعد ذات مساند يستندون إليها ولايفترشون الأرض .

٥- أن يلبس الرهبان ليلا جلبابا بغير أكمام ، وأن يشدوا أوساطهم بحزام، وأن يغطى كل منهم رأسه بقلنسوة وأن يتناولوا العشاء فى يومى السبت والأحد ، وأن يزينوا مقدمة الطاقية بصليب أرجوانى .

٦- أن يقسم الرهبان إلى أربع وعشرين رتبة مع تميز كل رتبة بحرف أبجدى من الألف إلى الياء(١) .

وقد أسس باخوم أول دير له فى تابنيسى، وتوافد عليه أعداد وفيرة من الراغبين فى التنسك والرهبنة سواء كانوا من الرجال أو النساء ، فيقول Jones(٢) أنهم قد وصلوا إلى ١٣٠٠ تقريبا ، وفى بداية القرن الخامس وصلوا إلى ٧٠٠٠ راهب وراهبة ، وفى وادى النطرون وسكيتى وُجد مجموعتان من الرهبان الـ Laurae فى الصحراء الغربية كل مجموعة تتراوح ما بين ٣٥٠٠ و ٥٠٠٠ من الرهبان ، وفى حوالى سنة ٥١٨م وصلت عدد الأديرة الباخومية إلى ٨٥ ديراً . وقد ضمت هذه الأديرة كافة الأجناس التى كانت تعيش فى مصر ، وانفردت كل طائفة جنسية فى رواق أو بيت مستقل (٣). ولكل بيت رئيس أو قائد لايخضع إلا لسلطان رئيس الدير ويتولى الإرشاد والتهزيب فى داره (٤).

ولم يقتصر وجود الرهبان فى الأديرة الباخومية على العبادة فقط ، ولكن انقسم هذا الوجود ما بين العبادة فى أوقات محددة، والعمل فى الدير لسد حاجات الدير الذاتية «فمن الرهبان من يشتغل بالحديقة أو فى الحقل ، ومنهم من يعمل فى الحدادة أو فى المخبز أو فى النجارة أو فى تنظيف الثياب أو فى صناعة السلال أو الدباغة ، ومنهم من يقوم برتق الأحذية ، أو حياكة الملابس ، أو نسخ الكتب ، ومنهم من يقوم بتربية الإبل والخنازير، وكانوا يحفظون الأناجيل

١- إيريس حبيب ، المرجع السابق، جـ١ ، ص٣٠٦ .

2- Jones , Op. cit ., p. 334 .

٣- العبادى ، المرجع السابق، ص٣٤٣ .

٤- العرينى ، مصر ، ص٣٥ .

عن ظهر قلب ، ويجتمعون بالكنيسة أربع مرات فى اليوم ، ويؤدون القداس فى يومى السبت والأحد »[١]. وعلى الرغم من أن نظام باخوم قد اتسم بالشدة والصرامة والحيوية والنشاط ، فقد لازمه أيضا البر والعطف والإحسان والحماس [٢].

وقد ركز باخوم على العمل اليدوى فى الأديرة لتحقيق أمرين : أولا أن يكسب الراهب عيشه بعرق جبينه ، وثانيا : أن ينشغل الراهب عن التعرض للتجارب والفرار من الأفكار الشريرة ، هذا فضلا عن أنهم كانوا يرددون المزامير من الأسفار الإلهية أثناء العمل [٣].

وأما عن طبيعة الحياة فى الأديرة الباخومية فكانت كالتالى :-

١- يشترط على المتقدم لسلك الرهبنة ألا يكون هاربا من العدالة أو المسئولية ، وأن يقضى ثلاث سنوات تحت التمرين والمراقبة ، وأن يتعلم القراءة والكتابة ، وبعد هذه الفترة إن كان صالحا يتم نقله إلى القلايات المعدة للرهبان .

٢- الملابس كانت بسيطة عبارة عن جلباب قصيرة حتى الركبتين فوقه حزام جلدى، وقلنسوة تغطى الرأس فى مقدمتها صليب يعبر عن رتبته ، وإذا خرج من الدير فيلبس فوق ذلك جلد خروف يغطى كتفيه وعليه عباءة فضفاضه ويلبس صندل مفتوح فى رجليه .

٣- أما الطعام فكان عبارة عن وجبتين يوميا ظهرا وغروبا ومكون من الخبز والحساء والخضر والجبن والفاكهة ، أما اللحم والخمر فهما حرام ولايتناولهما إلا أثناء المرض . وأثناء دخول قاعة الطعام يدخل الراهب حافيا صامتا ، وأثناء الطعام يقوم أحد الرهبان باعتلاء المنصة وقراءة فصولا من الأسفار الإلهية حتى الفراغ من الطعام .

٤- والنوم كان على المصاطب داخل القلاية . وكان على الراهب أن ينام فى النصف الأول من الليل ثم يستيقظ فى منتصف الليل للصلاة ويظل حتى الصباح . أما فى ليالى الصيف فقد سمح للراهب بقضاء الليل فوق سطح القلاية .

١- العرينى، المرجع السابق ص٣٦ .

٢- نفس المرجع ، ص٣٧ .

٣- ايريس ، المرجع السابق، جـ١، ص٣٠٧ .

٥- وقد فرض العمل اليدوى على جميع الرهبان ساعة على الأقل يوميا ، يقوم الجميع بالعمل سويا .

٦- وكان التعليم من الأسس الرئيسية فى الحياة الديرية حيث كان على الراهب المبتدئ وتحت التمرين أن يحضر ثلاثة دروس يوميا ، أما الرهبان القدامى فقد كانوا يحضرون دروس تفسير الأسفار الإلهية فى يومى الأربعاء والجمعة ، وكانت المكتبة مفتوحة على مصراعيها للقراءة والإطلاع .

٧- وانقسمت العبادة إلى عامة لجميع الرهبان حيث كانت تقام ثلاث يوميا صباحا وظهراً ومساء، هذا فضلا عن ذبيحة القداس وتناول الجميع العشاء الربانى فى يومى السبت والأحد . وخاصة وقد كان أمرها موكولا لكل راهب فى صومعته وعلى حريته .

٨- كما قرر العقاب على المذنبين والمخطئين والمتمردين بالتعنيف والحرمان من الطعام أو السجن أو الطرد من الدير .

٩- وتم تنظيم الأديرة الباخومية بتقسيمها إلى إدارة محلية أى خاصة بكل دير الذى يقوم برئاسة أو الرهبان أو مقدم الدير وله وكيل وأمين لبيت المؤونة وأمين المكتبة إلى جانب المدرسين والخباز والنجارين وغير ذلك ، وقد حكم كل هؤلاء الطاعة التامة فى التعامل فيما بينهم. وعندما زادت أعداد الرهبان واختلفت جنسياتهم تم تقسيمهم إلى أسر حسب الجنسيات كما أسلفنا الذكر . وأصبحت كل ثلاثة أديرة أو أربعة متقاربة تؤلف قبيلة . أما الإدارة المركزية فتمثلت فى إدارة كل الأديرة الباخومية بواسطة القديس باخوم ومعاونيه ، حيث كان يقوم بزيارة الأديرة مرتين سنويا فى عيد القيامة وفى أواسط شهر أغسطس ، للاحتفال بالعيد المجيد ، وفى المرة الثانية للإطلاع على أعمال وتقارير الأديرة وخط سيرها ، ونقل بعض رؤساء الأديرة من واحدة إلى أخرى ، ثم تقام الصلاة ويتم الصفح عن المذنبين وتختم الأعمال بذبيحة القداس الإلهى. كما اهتم باخوم بالمرضى فتم إعفاءهم من الصوم كما تخصص لهم أطباء روحيين وجسديين . وكذلك فقد اهتمت القوانين الباخومية بحسن الضيافة واستقبال الضيوف الغرباء بغسل أرجلهم وخدمتهم [١].

١- ايريس حبيب ، المرجع السابق، جـ١ ، ص٣٠٨ ، ٣١١ .

ولم تقتصر الأديرة الباخومية على الرجال فحسب ، بل شملت أيضا النساء ، وأول من التحقت بها «مريم شقيقة باخوم نفسه» التى بنى لها ديرا قريبا منه ، وأصبحت الأديرة تعج بالنساء سواء المصريات أو الأجنبيات ، ومن الطبقات الأرستقراطية كذلك مثل السيدة «يوليانا» من قيسارية الكبادوك التى حمت أوريجين فى بيتها عامين كاملين أثناء الاضطهادات ، و«ميلانيا الكبرى» أسبانية الأصل وابنة أحد القناصل فى روما ، وشريفة رومانية تدعى «ميلانيا الصغرى» ، و«أوليمبياس» زوجة ابن والى القسطنطينية ، و«كانديدا» ابنة القائد تراجان [(١)].

ومن الجدير بالملاحظة والذكر أن الأباطرة قد وقفوا موقف الصرامة والشدة لتدخل هؤلاء الرهبان فى الأمور والمنازعات السياسية والدينية ، لأنهم اعتبروا أنفسهم حماة الأرثوذكسية ، وقد لاحظنا موقفهم من الجدال بين أريسو وأثناسيوس وحمايتهم لأثناسيوس أثناء مطاردة الأباطرة له، وموقفهم من قرارات المجامع الدينية ومعاضدة رجال الكنيسة ضد الأباطرة ، وزعموا لأنفسهم حق تقويم الشرود ، ودأبوا على التدخل فى الأحكام وفى تطبيق القوانين . فها هو الإمبراطور فالنز يصدر أوامره للجنود باقتحام الأديرة فى وادى النطرون سنة ٣٧٥م وإدخال الرهبان فى الخدمة العسكرية قهرا ، كما أن الإمبراطور ثيودسيوس الأول رغم تقواه وموقفه إلى جانب المسيحية وإصدار قراراته باعتبارها الدين الرسمى للإمبراطورية إلا أنه ضاق ذرعا بهؤلاء الرهبان مما جعله يحرم عليهم دخول المدن وإقامتهم فيها حيث أن الأديرة فى ذلك الوقت قد أصبحت مصدر خطر على الإمبراطورية بعد أن أصبحت مأوى وملاذاً للعامة من المصريين الذين لم يكن لهم من أمر البلاد شيئا ، وكفلت لهم الحرية . هذا فضلا عن أنها اتخذت طابعا قوميا بالغ الخطورة حيث اعتبر الرهبان أهل الإسكندرية عنصرا غريبا عن مصر لتغلب العناصر الأجنبية بها . وعلى أية حال فقد بدأت الرهبانية فى مصر فى التدهور بعد مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م [(٢)].

١- ايريس ، المرجع السابق، جـ١ ، ص٣١١ ، ٣١٢ ، ٣٢٠ ، ٣٢١ ، ٣٢٢ ؛ العبادى ، المرجع السابق، ص٣٤٤ .

٢- العريني، مصر البيزنطية ، ص٣٩ ، ٤٠ .

الفصل الثالث
التنظيمات الإدارية

التقسيم الإدارى فى عهد دقلديانوس – الوحدات الإدارية الداخلية: الأقاليم– النومات– الباجيات– النظام القضائى – التقسيم الإدارى فى عهد جوستنيان – الإصلاحات الإدارية – الباجركيات – الإصلاح القضائى والمحاكم الاستئنافية – الشرطة .

بعد موقعة اكتيوم سنة ٣١ ق.م خضعت مصر للحكم الرومانى، وأصبحت ولاية رومانية ويُلقب حاكمها بوالى مصر[١] . ولم تصبح جزءاً من الجمهورية الرومانية مثلها مثل الولايات الأخرى ، بل جعلها أوغسطس قيصر ملكا خاصا وشخصيا للإمبراطور الرومانى وأشرف على إدارتها موظفون إمبراطوريون ، وبذلك حل الأباطرة الرومان محل البطالمة والفراعنة فى مصر، فسيطروا على مقاليد الأمور فيها [٢].

وارتبطت مصر بروما من خلال جزية مالية وضريبة نوعية من القمح ترسلها مصر إلى روما كل عام . وقد حرم أغسطس على أعضاء مجلس الشيوخ أو العسكريين من الرتب العالية أو من الطبقة الأرستقراطية دخول مصر أو الإقامة فيها لأى سبب كان إلا بتصريح خاص منه. خوفا من أن يعمد بعض ذوى الطموح إلى الاستقلال بها بسبب كثافة سكانها وكثرة ثرواتها وسهولة الدفاع عنها » . وحتى لايصيب إيطاليا بمجاعة عن طريق السيطرة على تلك الولاية ومنافذها البرية والبحرية فيصمد بقوة مهما كانت صغيرة أمام جيوش عظيمة » [٣]. وإن كان الإمبراطور قد برر هذا محتجا بأن دخول هذه الشخصيات الكبيرة مصر قد يسبب حرجا لوالى مصر لأنه أقل رتبة منهم [٤].

١– زبيدة عطا ، إقليم المنيا فى العصر البيزنطى، ص١٥ .

٢– دوسن، تكوين أوربا ، ترجمة د. محمد مصطفى زيادة ود. سعيد عاشور ، القاهرة، ١٩٦٧، ص١٨ .

٣– محمد نور فرحات ، تاريخ القانون ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص٣٣٢ ، ج٤ .

٤– نفتالى لويس ، الحياة فى مصر تحت الحكم الرومانى، ترجمة د. السيد جاد ، الاسكندرية ١٩٩٠، ص١٦ .

وقد تم تعيين موظف كبير من طبقة الحكام لحكم مصر يحمل لقب Praefectus أى قائم بالأعمال أو والى chargé d`affaires[١] . كما رابطت بها حامية عسكرية رومانية تتكون من ثلاث فرق عسكرية للمحافظة على الأمن الداخلى فى البلاد ، وضمان إرسال الغلال إلى روما ، والمحافظة على سلامة الطرق التجارية التى تربط الإمبراطورية الرومانية بالشرق [٢].

وقد قام الإمبراطور «دقلديانوس» بالكثير من الإصلاحات فى جميع النواحى فى الإمبراطورية، وشملت هذه الاصلاحات النظام الإدارى فى مصر فقسم مصر إلى ثلاث ولايات أساسية : ١- ولاية مصر الجويترية أو مصر جوفيا Agyptus Jovia وتشمل غرب الدلتا بما فيها الإسكندرية ، وبها الحاكم العام لولاية مصر .

٢- ولاية مصر الهرقلية Agyptus Herculia وتشمل شرق الدلتا ومصر الوسطى.

٣- ولاية طيبة وتشمل الصعيد جنوبى أسيوط أو مصر العليا . أم الصحراء الغربية فقد أصبحت ولاية مستقلة أطلق عليها اسم ولاية ليبيا . وأصبحت مصر «دوقية» ولقب حاكم الاسكندرية بلقب Praefectus Agypti ؛ بينما أطلق على الحاكمين الآخرين لقب praeses ، وخضعوا جميعا لحاكم دوقية الشرق الذى حمل لقب كونت Comes [٣].

وفصل دقلديانوس بين السلطتين المدنية والعسكرية فى حكم الولايات ، فحكام الولايات الثلاث كانوا مدنيين وليس لهم سلطات عسكرية ، أما الجيش أى حامية العسكرية الرومانية فى مصر فقد تولى قيادتها قائد عسكرى مستقل [٤]. فقد أراد دقلديانوس بذلك التخفيف من وطأة سيطرة الجيش على الدولة ، وأن يخضع الجميع من العسكريين والمدنيين لسلطته . وعلى ذلك لم يعد الولاة فى الأقاليم نوابا عن الإمبراطور ولم يصبح لهم سلطات على الجيش ، فأصبح الحاكم فى الإقليم مجرد حاكم إدارى فقط[٥] . وفى ظل هذا الفصل تمتعت عواصم

١- نفتالى لويس ، المرجع السابق، ص١٥ .

٢- العرينى، مصر البيزنطية ، ص٨١ ، ٨٢ .

٣- العبادى، المرجع السابق، ص٣١٢ ، ٣١٣ .

٤- العبادى، المرجع السابق، ص٣١٤ .

٥- دوسن ، المرجع السابق، ص٢٠ .

الأقاليم بالاستقلال الذاتى[١] . وحقق الإمبراطور أهدافه بذلك فى الحد من سلطة القواد عديمى الولاء [٢].

كما ألغى دقلديانوس منصب الاستيراتيجوس Stratigus ، ومنصب الكاتب ، وصار مجلس الشورى مسئولا عن الإدارة المدنية والمالية ، وتحولت الأقاليم إلى بلديات تتمتع بالحكم الذاتى ويخضع لها ما يحيط بها من الأراضى[٣] .

وفى القرن الرابع الميلادى انفصلت مصر عن ولاية الشرق وأصبحت ولاية مستقلة ويحكمها حاكم عام بلقب Praefectus [٤]. حيث قام الإمبراطور «ثيودسيوس الأول» باقتطاع جزء من أوجستامنيكا لتكوين مقاطعة أركاديا Arcadia ، ثم تقسيم أوجستامنيكا نفسها إلى جزءين الأول Prima والثانى Secundia . ثم جاء الإمبراطور ثيودسيوس الثانى ليقسم مقاطعة طيبة إلى قسمين طيبة العليا، وطيبة السفلى . وكان حاكم طيبة العليا أو الشمالية يجمع فى يديه السلطتين المدنية والعسكرية ويلقب بلقب دوق Duke وله السلطة على حاكم طيبة السفلى الذى لم يكن بيديه إلا السلطة المدنية فقط ، وذلك لتقوية سلطة حاكم هذه المنطقة الذى كان بصدد الدفاع عن الحدود ضد البليميين والنوبيين[٥] . وقبيل جوستنيان وفى بداية القرن السادس الميلادى تم تقسيم مصر إلى جزءين مصر الأولى ، ومصر الثانية [٦].

وعلى أية حال فقد تم تقسيم مصر داخليا إلى باجيات أو مديريات Pagi، وتقسيم هذه الباجيات إلى عدد من القرى، هذا فى مطلع العصر البيزنطى أى فى القرن الرابع الميلادى، ثم حدث تطور بعد ذلك فى تقسيم هذه المديريات ، هو المحافظات أو الباجركيات Pagarchia ،

١- بل ، المرجع السابق ، ص١٥٥ .

٢- رنسمان الحضارة البيزنطية ، ترجمة د. عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة ، ١٩٦١ ، ص١٥ .

٣- العرينى ، مصر البيزنطية ، ص٨٤ .

4- Ostorogorsky , The History of the Byzantine State trans, by Joan Hissy, Oxford , 1968 , p. 35 , note I .

5- Bury , History of the Later Roman Empire , 2 New York , 1958 , p. 338 .

6- Ibid , p. 339 .

والسبب فى العودة إلى الوحدات الإدارية النوميات . ومفردها نوموس » . أى الأقاليم Nome الخروج من خطورة الالتجاء إلى التفتيت . وأن تجميع الوحدات الصغيرة فى وحدات أكبر وهى الباجركية خير لتنظيم أحوال البلاد والمحافظة على وحدتها وتماسكها [١].

وقد أدى تقسيم البلاد إلى وحدات إدارية صغيرة إلى وجود مجموعة كبيرة من الموظفين الذين بدورهم يساعدون حكام الأقاليم وحاكم عام الولاية ، فقد عرف فى المدن ما يسمى بالحكم المحلى، ومن الموظفين الذين اندرجوا تحت هذا النظام :-

١- المشرف على المدينة ، وينتخبه مجلس المدينة، وقد أصبح رئيسا للمدينة، ويختص بالإشراف والمسئولية على ميزانية المدينة، ونقابات العمال والتجار ، وتقدير الضرائب ، والإشراف على الأمن والتموين للمدينة ، ويساعده بعض المعاونين من الموظفين .

٢- حامى المدينة : ويختص بحماية دافعى الضرائب من عنفوان جامعى الضرائب ، وله سلطة اعتقال أى شخص أو وضعه تحت المراقبة وتحديد إقامته فى المدنية إذا كان متهما باضرار شخص آخر .

٣- الموظف المالى : ويختص بجمع الضرائب وتوصيلها للحكومة المركزية .

٤- المجالس المنتخبة : وتحملت هذه المجالس المسئوليات الإدارية ، وأصبحت طبقة وراثية، وهى الطبقة الثرية فى المدينة [٢].

٥- رئيس الهيئة الإدارية : وكانت مهمته المحافظة على التقاليد اليونانية والإشراف على الأوضاع القانونية لأهالى المدينة ومراقبة من لا ولى له ، وغلب الطابع الإدارى على مهمته خلال العصر البيزنطى.

٦- مسئول التموين : ويتولى إمداد المدنية بالطعام وتوفير المؤن الضرورية ، ولكثرة الأعباء التى ألقيت على كاهله ، هرب الموظفون من تولى هذه الوظيفة مما جعل الدولة تضاعف عدد هؤلاء الموظفين حتى وصلوا إلى اثنى عشر موظفا .

١- زبيدة عطا ، اقليم المنيا ، ص٤١ .

٢- العبادى، المرجع السابق، ص٣١٥ ، ٣١٦ .

٧- موثق العقود والمشرف على تنظيم الأسواق وأساليب التعامل فيها وما يرتبط بها من توثيق العقود [١].

ولأن القرية كانت المنبع الرئيسى لتصدير المواد الغذائية للمدن والأقاليم فقد تم تعيين ما يعرف «بمجلس القرية» ويقوم باختيار أعضاء هذا المجلس مجلس الشيوخ [٢]، وهذا المجلس أى مجلس القرية مسئول عن تنفيذ أوامر الوالى، ويتكون من الأعيان ويرأسهم «العمدة Mei-zon» الذى عرف فى القرن السادس ، ويتولى الإشراف على النواحى المالية والقضائية فى القرية ، ويتناول راتبا عينيا أو نقديا. «وشيخ البلد Comarch» ومسئول عن جمع أموال القرية المقررة وتنظيم الشرطة . «والمسئول عن مياه فيضان النيل» و «مسئول الخزانة» و «حراس الحقول المشرفون على القنوات وتنظيمها». وفى غالب الأحيان كانت هذه الأعمال تتم عن طريق السخرة أى دون أجر[٣]. و«الجباة Exacts و«الكتاب» و «عمال البريد» الذين يتولون نقل الأموال مباشرة إلى خزائن عاصمة الولاية [٤]. ومن المهام التى تولاها مجلس القرية أيضا الإشراف على الأعياد والاحتفالات الدينية المسيحية[٥]. أما الشرطة فقد كانوا يتولون مهمة جمع الضرائب وتوصيلها إلى الإدارة ، هذا فضلا عن أعمال الحراسة وحفظ الأمن الداخلى . ولأهمية القرية كوحدة إدارية أصبح لأهلها الحق فى امتلاك ما يحيط بها من أراضى[٦].

وفى القرن الخامس تم تقسيم الأقاليم إلى باجيات Pagi ومفردها باجوس Pagus ، ويتكون الباجوس من عدة قرى، ولحاكم الباجوس الحق فى الإدارة وزراعة الأراضى المهملة وتقدير

١- زبيدة عطا ، المرجع السابق، ص٤٤ .

٢- الشيوخ هم مجموعة من الذين يؤدون بعض أعمال الخدمة العامة الإجبارية Leitourgia وكانت أهم مسئولياتهم تقع فى دائرة القيام بمهام الشرطة وجمع وتحديد الضرائب .

٣- والليتورجيا : كلمة يونانية الأصل تشير إلى العديد من أعمال السخرة أو الخدمة العامة الإجبارية والمناصب التى كان مطلوبا من كل الذكور فى مصر أن يشاركوا فيها باستثناء أفقر الفقراء . نفتالى لويس ، الحياة فى مصر ، ص٢١١ .

٤- زبيدة عطا، المرجع السابق، ص٤٨ .

٥- نفس المرجع ، ص٥٠ .

٦- العرينى ، مصر البيزنطية ، ص٨٥ .

الضرائب وجبايتها ، وفى بعض الأحيان له سلطة القضاء . ثم تحولت هذه الباجيات إلى ما يعرف بالباجركيات ويطلق على حاكمها الباجرك» ومنصبه تكليفيا أى من أعمال الخدمة العامة ولايتقاضى عليه راتبا خاصة وأن هذا الباجرك كان دائما من الأغنياء [١].

ودخل القضاء ضمن هذه الأعمال والوظائف الإدارية فى مطلع العصر البيزنطى، فقد كان القضاء المدنى يختص به الحاكم العام[٢]. سواء كان هذا الحاكم بلقب «استراتيجوس» الرومانى، وهو القائد الأعلى للنوموس والذى يتولى المسئوليات القضائية والإدارية ، أو كان بلقب Praefectus بريفيكتوس أى القائم بالأعمال، وهو والى مصر Praefectus Aegypti الذى يعينه الإمبراطور كممثل له فى حكم البلاد [٣].

أما المحاكم العسكرية التى يكون فيها القاضىPraepositi فتختص بالفصل فى القضايا التى يكون أحد طرفى الخصوم فيها من العسكريين . ويكون الحكم على الجانى أو المقصر هو الطرد أو مصادرة أملاكه . وتختص الشرطة بالقبض عليه riparri ، وكتابة تقرير عن هذه الحالة ، وعن أى حالات أخرى ترتكب . وقد صدرت هذه الأوامر والتعليمات فى الفترة من سنة ٣٦٧م إلى سنة ٣٧٠م، كما أصدر الإمبراطور «ثيودسيوس الأول» مرسوما ينص على ذلك سنة ٣٩٢م. وتتضح هذه الأوامر من خلال شكوى ضد الحاكم العسكرى Praepositus حيث يمنع المجرمين من الحضور إلى القضاء حوالى سنة ٣٤٦ م تقريبا [٤]. وفى المرسوم الذى أصدره حاكم مصر Flavius Eutolmius Tatianus يطلب من كل مدنى يتعرض للأذى من أحد العسكريين أن يتقدم بشكوى ضده إلى المحكمة العسكرية ، وعلى القاضى العسكرى العدالة ومصادرة أملاك هذه العسكرى حتى ولو كان سناتوريا [٥].

ويتضح من خلال أوراق البردى شكاوى كثيرة بهذا الصدد ، وعلى رأسها شكوى بنت أحد المتوفين ضد عمها المدعو Eudaemon الذى استولى على أملاك أخيه، ويبدو أنEudaemon

---

١- العرينى ، المرجع السابق ص٨٥ .

2- The Oxyrhy Nchus Papyri , part VII , edited by Litt, London , 1911 , p. 166 .

٣- نفتالى لويس، المرجع السابق، ص٢١٢ .

4- Ox., p., VIII , p. 167 .

5- Ibid , p. 168 .

كان رجلا عسكريا ، وحكمت المحكمة فى النهاية بالربع من الأملاك لهذا الأخ ، والباقى لابنه المتوفى [١].

وأوضحت أوراق البردى كذلك وظائف هؤلاء العسكريين فى مصر ومنها حماية البلاد من اللصوص وقطاع الطرق ، وكذلك الدفاع عن الحدود ضد أعداء البلاد والمغيرين عليها [٢]. وقد قام الأباطرة بتوزيع الفيالق العسكرية فى طول مصر وعرضها ، واحدة فى الاسكندرية ، والثانية فى حصن بابليون حيث مصر الوسطى ، والثالثة فى طيبة ، ثم الفرق العسكرية الصغيرة فى المدن التابعة لهذه الأقاليم الكبيرة [٣].

وعندما اعتلى الإمبراطور جوستنيان عرش الإمبراطورية البيزنطية قام بثورة عارمة من الإصلاحات فى كافة نواحى الحياة الإمبراطورية ، هذا لكى يحكم قبضته على جميع أقاليم الإمبراطورية . ومن ناحية مصر فقد قام بإصداره أوامره فى القانون رقم ١٣ لسنة ٥٣٨م الخاص بالإصلاح الإدارى فى مصر ، والذى ينص على إزالة لقب دوقية وحاكمها نائب الإمبراطور ، وجعلها ولاية تابعة مباشرة لدوق الشرق Praetorian Prefect of the East وتقسيمها إلى وحدات إدارية Dioceses على كل وحدة حاكم إدارى ، فأصبحت تقسم إلى خمس ولايات وهى : مصر ، أوجستامنيكا ، أركاديا ، طيبة وليبيا .

١- دوقية مصر : وتضم الجزء الواقع غرب الدلتا بما فيه مدينة الإسكندرية العاصمة ومقر الحاكم العام الأوجسطال Augustal Prefect ، وتنقسم إلى أبروشيتين : مصر الأولى، ومصر الثانية ، ويحكمها أوجسطالا يجمع فى يديه السلطتين المدنية والعسكرية ويعتبر نائبا لقائد جند الشرق .

٢- أوجستامنيكا : وتضم الجزء الواقع شرق الدلتا ، وتنقسم إلى أبروشيتين، ويحكمها أوجسطال ويجمع فى يديه السلطتين المدنية والعسكرية .

1- Ox ., p. , VIII , pp. 169-171 .

2- Ibid , pp. 177-179 .

٣- زبيدة عطا ، إقليم المنيا، ص٣٦ .

٣- أركاديا : وتمتد على الشاطئ الأيسر للنيل وعاصمتها أرسنيوى «الفيوم» ويحكمها حاكم إدارى يلقب دوق Duke ويجمع فى يديه أيضا السلطتين المدنية والعسكرية ، وتتكون من أبروشية واحدة .

٤- طيبة : وتشمل على الجزء الجنوبى من ولاية مصر حتى جزيرة فيلة ، وتنقسم إلى أبروشيتين على رأس كل منها حاكم مدنى ويخضع لحاكم طيبة الأوجسطال والذى يجمع فى يديه السلطتين المدنية والعسكرية ويخضع مباشرة لوالى الشرق .

٥- ليبيا : وهى إقليم من أقاليم الأطراف تخضع إداريا لولاية مصر ويحكمها دوق وفى يديه السلطة المدنية فقط [١]. ولم يكن له سلطة عسكرية لوجود القوات العسكرية على الحدود[٢].

وأصبح على رأس كل أبروشية صغيرة مدير ذو سلطات مدنية يسمى Praeses بمعنى رئيس أو حاكم[٣]. ويعتبر هؤلاء الحكام وسطاء بين الموظفين الحكوميين وبين الحاكم الأعلى[٤]. وقد أراد جوستنيان من وراء جمع السلطتين المدنية والعسكرية فى يد شخص واحد تجنب وتفادى الصراع بين السلطتين [٥]. وكانت القرارات تصد لهؤلاء الحكام من قبل الإمبراطور مباشرة[٦].

كما هدف جوستنيان من وراء هذه التعديلات والإصلاحات بصفة عامة تقوية حكومات المقاطعات بالحكم فى الصراعات القضائية ، وخاصة عندما جمع السلطتين المدنية والعسكرية فى يد الحاكم ، حيث كانت وظائف ومهام الدوقات استيراتيجية وخطيرة ، ولذلك وضع أفضل الرجال فى هذه الوظائف [٧]. ولإصلاح الفساد فى الدولة وتحقيق هذه الإصلاحات فلابد من

١- العرينى ، مصر البيزنطية ، ص١٥٥-١٥٩ .

2- Bury , opO cit ., 2 , 343 .

٣- بل، المرجع السابق، ص١٨٢ .

4- Levtchenks , Byzance , p. 73 .

5- Bury , Op. cit ., 2 , p. 339 .

6- Jones , Op. cit ., I , p. 281 .

7- Ibid , I, p. 282 .

رفع الظلم عن الرعايا والعدل والامتناع عن الرشوة . وكذلك تغذية خزينة الدولة بالأموال اللازمة ، وهذا لن يتحقق إلا بأمانة الموظف وإخلاص المكلف[١] . ثم رأى بعد ذلك أن هذا ليس كافيا فلجأ إلى انقاص النفقات بانقاص الجيش وشراء السلم من العدو على الحدود[٢]. وإن كان هذا قد أدى إلى ضياع هيبة الدولة فى الداخل والخارج .

وقد عمل جوستنيان على الإقلال من عدد الولايات وإنقاص عدد الموظفين فى حين زاد من رواتبهم ، وأنعم باللقب «جوستنيانى Justiniani» على الحكام فزادهم فخرا ووقارا[٣]. وزاد من قوة سلطانهم [٤].

هذا فضلا عن أن هدف جوستنيان الأساسى من وراء كل ذلك ضمان وصول حصة القمح التى تمد بها مصر القسطنطينية . ولذلك حرم على السلطات المركزية فى الإمبراطورية الذهاب إلى مصر. «وأن دافعى الضرائب قد أكدوا على أنهم قد أدوا كل ما عليهم من واجبات وأنجزوا كل ما عليهم من مسئوليات كاملة . بينما لم تصل إلا ضريبة القمح والعشيرة، وأن البجاركة وحكام القرى وجامعى الضرائب هم الذين استفادوا من كل ذلك لأنفسهم »[٥].

*ولذلك فقد عمل جوستنيان على تطهير الجهاز الإدارى ، «وصار لزاما على الولاة أن يكونوا ذوى أيدى طاهرة» حتى أصبحت هذه العبارة لزمة ثانية Leit Motif فى كل قرارات الإمبراطور». وتم تأكيد ذلك بالقسم والعهد الذى يؤديه الحاكم قبل توليه الوظيفة «فى أن يعملوا على زيادة إيرادات الخزانة ، وأن يبذلوا كل جهدهم فى الدفاع عن مصالحها »، وإلا تعرض لشدائد يوم الحساب الرهيب ، واستحق مصير يهوذا ، وبرص جيجزى، والفالج الذى أصاب قابيل »[٦]. والعقاب الشديد من قبل الإمبراطور . ولذا عين القناصل والجنود لتحصيل الضرائب ، وفرض لهم وللخيول الأموال والأعلاف اللازمة ، كما فرض العقوبات على التأخير فى وصول ضرائب القمح إلى القسطنطينية [٧].

1- Nov ., 8 , 16 , 8 , 10 ‘ 1 , 102 , 104 - 7 - nov ., 28 , 31 , 5 ; 1 , 197 .

2- Nov., 28 , 31 , 5 ; 197 .

٣- أسد رستم ، الروم ، جـ١ ، ص١٧٤ ، ١٧٥ .

4- Holmes , The Age of Justiniane , II , p. 472 .

5- Bury , op. cit ., 2 , p. 342 .

٦- موسى، ميلاد العصور الوسطى ، ترجمة د. عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص١٨٩ .

7- Thorndike , The History of Medieval Empire , U . S . A ., 1956 , p. 96 .

وهكذا فقد حدد جوستنيان فى قوانين الإصلاحية واجبات موظفى الحكومة ، وكذلك واجبات الأهالى، وقرر الثواب والعقاب للموظفين فى أعمالهم: «فأمر الموظفين بأن يحسنوا معاملة الرعايا ، وأن يحموهم مما يقع من الظلم ، وأن يرفضوا كل الرشاوى، وأن يراعوا العدالة فيما يصدرونه من أحكام قضائية وإدارية ، وأن يحاربوا الجريمة ، وأن يقوموا بحماية البرئ ، وأن يعاقبوا المجرم بمقتضى القانون . والخلاصة ، أن يكونوا فى معاملة الرعية مثلما يكون الوالد فى معاملة أبنائه . غير أنه فى الوقت الذى طلب فيه إلى الموظفين أن تقف أيديهم عن تناول الرشوة، ألزمهم بمراعاة دخل الحكومة والعمل على زيادة ما يدخل إلى الخزانة من أموال، وبذل كل ما فى وسعهم من جهد لفائدتها. وحتم ضرورة دفع الضرائب كاملة وفى مواعيدها المحددة » [١].

واستمر جوستنيان فى إصدار الكثير من المراسيم الارتجالية من أجل الإصلاح الإدارى والقضاء على الفساد ، وهذا يعنى الدليل على عدم تأثير هذه المراسيم وعدم تنفيذها ، أى أنها لم تجد أو تؤت ثمارها المرجوة منها ، مما جعل جوستنيان فى مواجهة الفتن والثورات يلجأ إلى تطبيق الأحكام العرفية فى كثير من الأقاليم [٢].

الأقسام الإدارية :

١- **الدوقيات** : وهى الولايات ويحكمها الدوق ، ويجمع فى يديه السلطتين المدنية والعسكرية ، ويتولى حكم جميع الوظائف من خراج وقضاء وغير ذلك . وكان يتم اختيار هؤلاء الدوقات فى غالب الأحيان من المدنيين وأعيان البلاد . وقد حباهم جوستنيان بالسلطات التى تركزت فى أيديهم حتى يتم استتباب الأمن فى البلاد ويسهل أمر استغلال خيرات هذه الولاية لصالح الخزانة الإمبراطورية [٣].

وقد عمل جوستنيان على زيادة مرتبات هؤلاء الدقات حتى يملأ عيونهم ويضمن ولاءهم ، وحتى لايلجئون إلى السرقة والفساد وعدم إرسال الضرائب والخراج من القمح إلى الخزانة

١- العرينى ، الدولة البيزنطية ، ص٨٤ .

٢- نفس المرجع ، ص٨٥ .

3- Maspero , Etudes sur les papyrus d'Aphrodité, VI , VIII , 1910 , p. 83 .

الإمبراطورية . ولم يكتف جوستنيان بتحديد مرتبات هؤلاء الموظفين الكبار فحسب ، بل صار يعمل على استرضاءهم بما غمرهم به من كرمه وسخائه ، وفى ذلك دليل على تقديره لهم . غير أنه لم ينس أن هذا الإجراء لم يبلغ من الكفاية والكمال ما يجعل الدوقات يؤدون عملهم فى شئ من الأمانة والدقة ، ولذا فرض عقوبات صارمة على الدوقات المخالفين تمثلت فى النفى ومصادرة الأملاك والضرب حتى الموت وغير ذلك من العقوبات الصارمة [١].

وفى ديوان الدوق يوجد مجموعة من الموظفين الذين يختارهم الدوق ، ويرفع هذا الاختيار إلى والى الشرق الذى يرسله بدوره إلى البلاط الإمبراطورى فى العاصمة القسطنطينية ليصدق عليه الإمبراطور وتتم الموافقة على هؤلاء الموظفين الذين يعملون فى إدارات الديوان وهى :-

١- الإدارة المالية الخاصة بجباية الخراج وحفظ أموال الضرائب بالاسكندرية عاصمة الولاية حيث يتم نقلها إلى القسطنطينية .

٢- إدارة التجنيد الخاصة بتوزيع الشهادات على المجندين .

٣- إدارة الشئون القضائية الخاصة بالقضايا والمحاكم .

٤- إدارة المحفوظات «ديوان الإنشاء» وبها يجرى تحرير الوثائق وحفظ السجلات .

٥- إدارة المظالم والملتمسات وإليها ترفع الشكاوى والتنظيمات حتى يتسنى للموظفين رفعها إلى المحاكم .

٦- إدارة المنشآت العامة الخاصة بالعمائر والمبانى .

٧- إدارة الخزانة الخاصة بتجميع الأموال من الضرائب والخراج نقداً أو عينا .

٨- الإدارة الخاصة بالموثقين للعقود ، والرسل المبعوثين ، ورجال البريد [٢].

وقد تحمل هؤلاء الموظفين نفس العباء والمسئوليات التى تحملها الدوق الأوجسطال . وقد كانت الدواوين فى سائر الأقاليم فى مصر على هذا النحو [٣].

1- Rovillard . :, L'Administrion civil de L'Egypte Byzantine , Paris , 1925 , p. 41 .

2- Rouillard , op. cit ., pp. 44-7 .

٣- العرينى، مصر البيزنطية ، ص١٦٤-١٦٦ .

٢- رؤساء الأبروشيات : وهى الأقاليم الصغيرة المنبثقة عن الأقاليم الكبيرة التابعة للدوقية . وكان رئيس الأبروشية قبل عهد جوستنيان يتبع حاكم الولاية مباشرة ، أما فى عهد جوستنيان فقد ضعفت أهميته حيث أصبح تابعا لحاكم الإقليم الصغير [١].

٣- الباجركات : والراجح أن ظهور الباجركات مرتبط بما حدث فى القرن الخامس من تغييرات خطيرة فى الإدارة المالية حيث اعترفت الحكومة الإمبراطورية بنظام الحماية وظهور ما يعرف بحامى المدنية ، وازدياد عدد كبار الملاك ونمو نفوذهم وحصولهم على حق الجباية الذاتية وظهور القرى المتمتعة بالجباية الذاتية [٢].

وقد أقر الإمبراطور جوستنيان وظيفة «حماة المدن» الذين يدافعون عن الضعفاء والفقراء فى المدينة وحمايتهم ضد تعسف الجباة . وقد طلب منهم جوستنيان فى مرسومه الالتزام بالأمانة وعدم المخالفة وتقاضى الرشوة وضرورة إلتزام القانون ، ولذلك أقر لهم براتب شهرى من خزانة الدولة [٣].

وعلى أية حال فإن هذا الباجرك يستمد سلطانه من الإمبراطور مباشرة ، ولذا فإن الإمبراطور وحده هو الذى يقرر تعيين وعزل البجاركة ، الذين يتم اختيارهم من طبقة الموظفين أو طبقة كبار الملاك المحليين واتخذ لقب كونت Conte [٤].

ومن المهام التى كلف بها الباجرك فى الباجركية أى المدنية وما يحيط بها من أراضى، مسئولية جباية الضرائب من الجهات التى لم تتمتع بالجباية الذاتية ، والمشاركة فى أمور القضاء وتنفيذ القرارات والأحكام التى تصدر عن محكمة الدوق. ويخضع لأوامر هذا الباجرك الجباة والمراقبون والكتاب والمساعدون . ولتسهيل مهمته أثناء الطوافه لتفقد أحوال البلاد تقرر أن يكون تحت تصرفه سفينة وبحارة [٥]. ومن الجدير بالذكر أنه فى حالة اتهام أحد البجاركة بعدم الأمانة تعرض لعقاب الإمبراطور بمصادرة أملاكه وعزله من وظيفته [٦].

١- العرينى مصر البيزنطية ، ص١٦٧-١٦٨ .

2- Diehl , L`Egypte Chértienne et Byzantine (Hannoteau: Histoire de la Nation Egyptienne III p. 464 .

3- Novella, VIII , II , II .

4- Rovillard , Op. cit ., p. 54 ; Diehl , Op . cit ., p. 464

5- Rovillard , Op. cit ., p. 54 ; Diehl , Op. cit ., p. 464 .

6- Rovillard , Op. cit ., p. 54 ; Diehl , Op. cit ., p. 464 .

٤- إدارة المدن والبلديات :

وفي المدن التي تتكون منها الباجركية كان هناك نواب البلدية الذين كانوا يقومون بجباية الضرائب والخراج[١] . هذا فضلا عن مجلس الشورى الذى فرض عليهم جوستنيان القيام بالعديد من الأعمال دون أجر ضمن أعمال الخدمة العامة ، وتم إعفاءهم من كثير من الامتيازات التي حصلوا عليها من قبل[٢].

كما وجد في المدن والأقاليم ديوان إدارى يتكون من العديد من الموظفين الذين يساعدون النواب وأعضاء مجلس الشورى مثل :

١- مسئول إمداد المدينة بالمؤنة .

٢- المشرف على الأسواق .

٣- المشرفون على جباية ضريبة القمح ، والقائمون على منح تصاريح مزاولة التجارة.

٤- إدارة المصارف المالية والحسابات والخزانة .

٥- المشرفون الإداريون المسئولون عن تبليغ أوامر الوالي إلى القرى.

وقد تحمل هؤلاء الموظفون أعباء هذه الوظائف ومسئولياتها مما جعلهم يجأرون من القيام بها [٣].

وكذلك في القرى وجد مجلس لإدارة القرية وعلى رأسه الكومارك Comark ، ويتألف هذا المجلس من أعيان القرية الذين يقومون بمهام الإدارة المالية، وجمع المؤونة اللازمة للجند ، وتنظيم الشرطة والأمن في القرية ، وأعمال البريد وغير ذلك [٤].

ورغم ما أعطاه الإمبراطور جوستنيان لحاكم الباجركية من صلاحيات ، وما منحه له من سلطة الإشراف التام على شئون الباجركية بمدنها وقراها ومتابعة الشئون القضائية ، والتخلص

١- العريني، مصر البيزنطية ، ص١٧٢ ، ١٧٣ .

٢- زبيدة عطا ، المرجع السابق، ص٤٦ .

٣- زبيدة عطا ، المرجع السابق، ص٤٧ .

٤- العريني، مصر البيزنطية ، ص١٧٤ .

سلطات رجال الحكم المحلى الذين كانوا فى الباجيات أو المديريات ، فقد جمع الباجرك فى يديه كل المام والسلطات بمقتضى القانون رقم ١٣ لسنة ٥٣٨م . إلا أن الظروف السياسية والدينية فى مصر قد أحالت دون تحقيق هدف الإمبراطور ولم يؤت هذا القانون ثماره المرجوة منه، فقد عجز الأباطرة من إحكام قبضتهم على مصر والنيل منها ، لذا لجأوا إلى تعيين وشغل مناصب المحافظين من أبناء الأقاليم . فقد اتجهت البلاد المصرية منذ القرن الرابع أى منذ الانشقاق الكنسى إلى الاستقلال والإدارة الذاتية وهذا ما جعل المحافظات والأقاليم الإدارية تتحول إلى ما يعرف بالبلديات Civitates وتقوى بها أيادى الحكم المحلى [١].

الإصلاحات القانونية فى عهد جوستنيان :

وعلى الجانب القانونى قام الإمبراطور جوستنيان بعمل تطورات عظيمة فقد أمر بجمع القوانين الرومانية التى صدرت منذ تأسيس الإمبراطورية وحتى عصره ، وتصنيفها ، هذا لتحقيق «الوحدة السياسية والدينية والقانونية» حيث إن القانون لحمة الرومان وسداهم ، ومن أسرار عظمتهم التاريخية ، فالعقلية الرومانية عقلية قانونية [٢].

ولقد أراد جوستنيان من وراء هذه الإصلاحات إزالة التعارض والتناقض بين القوانين التى أصدرها الأباطرة السابقون من ناحية ، وأن تتوافق هذه القوانين مع روح العصر الدينية والحضارية . فقد كان القانون الرومانى بالحالة التى تسلمه عليها من أسلافه عبارة عن كتلة ضخمة من السوابق والأحكام تبدو فيها القاعدة الأصلية وقد طغت عليها الأوامر العديدة المتعارضة التى صدرت فى القرون الخمسة السابقة ، وقد حاول ثيودسيوس الثانى قبل ذلك تنظيم القوانين فى مجموعات تتوافق مع روح العصر الدينية المسيحية ، ولكن لم ينجح هو أو غيره فى ذلك [٣].

ويقول جوستنيان فى النوفلات حول هدفه من وراء هذه التنظيمات القانونية : «أن العظمة والرفعة التى عليها القانون «التشريع » الحالى ستجعله أكثر مصداقية فى كل الأقاليم التى

١- زبيدة عطا ، المرجع السابق، ص٤٢ ، ٤٣ .

٢- عبد القادر أحمد اليوسف ، الإمبراطورية البيزنطية ، بيروت ١٩٦٦ ، ص٧٢ .

٣- أومان، الإمبراطورية البيزنطية، ترجمة د. مصطفى طه بدر، دار الفكر العربى، ١٩٥٣، ص٢٣،٢٤ .

4- Nov ., VIII , II, II .

تنتمى إليه فهو سيفى بكل المطالب والترتيبات التى تجعل الجماهير تقتنع بالنفع الذى سيعود على شعوبنا وبالعناية والاهتمام فى سبيل تأهيل حكام صالحين وباعتبار أن ما نقوم به هو للصالح العام فإن الجماهير سوف تسارع إلى مساعدتنا ». وكما يقول أحد المؤرخين المحدثين[١]: «فكأنه بذلك أراد قهر الكيانات البربرية الجرمانية فى الغرب ثقافيا وعسكريا فى آن واحد». ولذا يعتبر جوستنيان الحامى للإمبراطورية البيزنطية والمدافع عنها ضد أعدائها، وكذلك الحامى للقانون[٢] » .

ولذلك شرع الإمبراطور جوستنيان فى إصدار الكثير من القرارات والتشريعات التى تؤدى إلى تبسيط الإجراءات القانونية والتى تسهل على المتقاضين تقديم الالتماسات إلى حاكم الإقليم بدلا من تقديمها إلى محاكم العاصمة الإمبراطورية. وعلى أية حال فإن هذه الإجراءات تؤدى إلى تحقيق السرعة فى القضاء المحلى من ناحية ، ومن ناحية ثانية تخفيف الضغط على العاصمة الإمبراطورية[٣]. ولذا فقد كثرت المحاكم الإقليمية وتنوعت فى عهد جوستنيان .

فأصبحت مهمة القضاء وإدارتها من أعمال حكام الأقاليم ، وأصبحت محكمة الدوق فى الأقاليم أهم المحاكم المحلية ، وأصبح الدوقات يمارسون القضاء الجنائى العالى ويفصلون فى المخاصمات بين الموظفين ، والقضايا المدنية الخاصة بالقادة والجند[٤] . وكذلك الجرائم المرتكبة بواسطة بعض الأعمال القهرية أو عن طريق العصيان العام أو عن طريق ما سيكون له علاقة بجباية الضرائب وتحصيلها ، وقد حباهم الإمبراطور جوستنيان بكثير من الامتيازات حتى أنه وصف جميع أحكامهم بالنزاهة ويجب على كل فرد ألا يطعن فى أحكامهم أو فى سلطتهم القضائية [٥].

وقد انبثق عن ديوان الدوق الكثير من الإدارات مثل إدارة الشكاوى والملتمسات ويتولى إدارتها موظف كبير بلقب كونت Comt الذى ترفع إليه الشكاوى ثم يقوم بدوره برفعها إلى

١- عبد القادر أحمد اليوسف ، المرجع السابق، ص٧٢ .

٢- موسى ، ميلاد العصور الوسطى، ص١٩٠ .

3- Rovillard , Op. cit ., p. 149 ; Diehl , Op. cit ., p. 471 .

4- Vasiliev , History Byzantine Empire , vol . I , Madison 1928, p. 174 .

5- Nov, VIII , II , II .

الدوق Duke حيث يصل هذا الأمر إلى المحكمة . وإدارة الجنايات ، الخاصة بالقضايا الجنائية، ويقوم رئيس هذه الإدارة بمطاردة مثيرى الفتنة والمخلى بالأمن العام. وفى الإدارة القضائية وجد موظف كبير يعرف «بالمستشار القضائى للدوق»، كما وجد المحامون [١].

وبعد أن كان رئيس الأبروشية يمتاز بكثير من الامتيازات القضائية أصبح فى ظل اصلاحات جوستنيان القضائية مرءوسا للدوق فى هذه الناحية فقد أصبح الدوق كبيراً للقضاة فى إقليمه [٢]. على حين أن جوستنيان قد منح البجاركة وحماة المدن بعض الامتيازات الخاصة بالمحاكم والقضاء، فبالقانون ١٣ لسنة ٥٣٨م بالملحق ١٥ قام الباجركية محكمتان : محكمة الباجرك ، وأصبح الباجرك بمقتضى هذا القانون قاضيا للمصالحات ينظر فى عقود الضمان وفى الشكاوى ، ويرد الحقوق إلى أصحابها . ومحكمة حامى المدنية ، وأصبح من حق حامى المدنية النظر فى القضاء المدنى والجنائى ، وعظمت قضاياه ، فبعد أن كان ينظر فقط فى قضايا المعاملات المالية التى لاتتجاوز ٥٠ صولداً ذهبيا، أصبح ينظر فى قضايا المعاملات التى تتجاوز قيمتها ٣٥٠ صولداً ذهبيا . بعد أن كان البجاركة وحماة المدن لايحق لهم النظر إلا فى القضايا الصغيرة ، وبعض القضايا المدنية . وهذا لايعنى أنه أصبح لحماة المدن النظر فى كل القضايا الجنائية ، فالجرائم الكبيرة تقف مهمتهم فيها عند حد القبض على الجناة فقط [٣].

وفى القرية كان هناك رجال الشرطة المحلية الذين كان لهم سلطة قضائية فى القضايا قليلة الأهمية [٤]. فقد كانوا يتسلمون الشكاوى من سكان القرية ، ويقومون بفحص موضوع الشكوى ، ويلزمون المفسد باصلاح ما أفسده ، وفى حالة امتناع المفسدين عن تنفيذ أوامرهم يبعثون بهم إلى المحكمة أمام حامى المدنية أو الباجرك ، وتصبح مهمتهم عندئذ هى مراقبتهم ومنعهم من الهروب قبل المحاكمة [٥].

1- Rovillard , Op. cit ., p. 151 .

2- Diehl , Op. cit ., p. 471 .

3- Rovillard , Op. cit ., p. 154 ; Diehl , Op. cit ., 471 .

٤- محمد نور فرحات ، تاريخ القانون ، ص٣٧٨ .

٥- العرينى ، مصر البيزنطية ، ص٢٢٠ .

ولكى يجعل جوستنيان سلطته محسوسة عند سكان مصر أصدر ضمن إصلاحاته ما يعرف بالإلتماس «فأصبح من حق سكان مصر أن يرفعوا قضاياهم إلى محكمة الإمبراطور مباشرة فى صورة ملتمس ، وعندئذ يصدر الحكم فى صورة أمر[١].

وقد أنشأ جوستنيان ما يعرف بالقضاء العسكرى والمحاكم العسكرية التى ترفع إليها القضاء التى يكون فيها الجند أحد طرفى النزاع ، ويكون القضاة فى هذه المحاكم من العسكريين [٢]. ولأنه لم يكن لائقا أن يمثل أحد رجال الدين أمام المحاكم المدنية إلا إذا كانت الدعوى جنائية فقد ظهر ما يعرف «بالمحاكم الكنسية» الخاصة بقضايا رجال الدين ويكون القاضى فيها من الأساقفة ، وما يصدره الأسقف فى المحكمة الكنسية يقوم القاضى بتنفيذه نيابة عنه، ويعتبر القرار الذى يصدره صحيحا . كما كان الأساقفة فى محاكمهم يقومون بمساعدة القضاة فى الفصل فى القضايا المدنية عندما تتراكم القضايا فى المحاكم [٣]. وقد قرر جوستنيان فى تشريعاته بأن حكم الأسقف لايسرى على أولئك الذين لم يمثلوا طوعا أمامه فى المحكمة ، أى أنه لابد من وجود المتنازعين فى محكمته الأسقفية [٤]. وقد ركز جوستنيان على هذه المحاكم آملا العدالة والنزاهة فى رجال الدين بعكس المدنيين الذين أفسدو الحياة بالرشوة المخالفات الناجمة عن الجشع [٥]. وقد حرص الإمبراطور جوستنيان على ضرورة الحكم فى جميع القضايا المقدمة إلى المحكمة وخاصة المحكمة الإمبراطورية حتى ولو استدعى الأمر تعليقها لفترات طويلة حتى يتم استدعاء مجلس الشيوخ للانعقاد والنظر فى الدعوى [٦].

وقبل جوستنيان كان لسكان مصر حق رفع شكاواهم إلى الإمبراطور ، ثم تطورت الأمور ولم يعد الإمبراطور يفصل فى الدعوى بنفسه، وإنما أصبح يحيلها إلى القاضى المختص للفصل فيها طبقا للرأى الذى يبينه له . كما كان للمتقاضين الحق فى استئناف الأحكام الصادرة من

1- Diehl , Op. cit ., p. 471 .

2- Rovillard , Op. cit ., p. 158 ; نور فرحات ، المرجع السابق، ص٣٧٩ .

٣- العرينى ، المرجع السابق، ص٢٢٢ ؛ نور فرحات ، المرجع السابق ، ص٣٧٩ .

4- Nove ., VIII , II , II .

5- Novella, VIII , II , II .

6- Nove. , XXIII , IV , II .

محكمة أدنى إلى محكمة أعلى . فأحكام الباجرك وحامى المدنية كان من الممكن استئنافها أمام محكمة حاكم المقاطعة . وكانت الأحكام التى يصدرها حكام المقاطعات تستأنف أمام محكمة الإمبراطور فى القسطنطينية هذا إذا تجاوزت الدعوى سبعمائة صولدى ذهب [١].

ولكن الإمبراطور جوستنيان فى القانون ١٣ لسنة ٥٣٨ م ملحق ٢٣ قرر إنشاء محاكم متوسطة بين محكمة الأبروشية ومحكمة الإمبراطور أو والى الشرق فى القسطنطينية وتعرف هذه المحاكم «بمحاكم الاستئناف» ، وذلك لبعد المسافة بين مصر والقسطنطينية ، والنفقات التى كان يتكلفها المتقاضون كانت أكبر من المبالغ المتنازع عليها أحيانا ، هذا فضلا عن ازدحام العاصمة بفئات من المتقاضين فى قضايا تكاد تكون تافهة ، إلى جانب أن هؤلاء المتقاضون قد تركوا أراضيهم الزراعية دون عناية ولمدة طويلة انتظار للحكم فى قضاياهم مما يؤثر على الزراعة والاقتصاد الزراعى وبالتالى على الخراج من القمح الذى يصل إلى القسطنطينية [٢].

من أجل كل هذا أمر جوستنيان بإقامة محاكم الاستئناف Spectabiles Indices فى المقاطعات تحكم فى القضايا التى تبلغ مقدارها أقل من ٥٠٠ صولدى ، وكذلك التى تصل إلى ٧٥٠ صولدى فى حدود ضيقة جدا . وهذا فقط من حق حاكم مصر Praefectus Augustalis ودوق طيبة Dux Augustalis [٣]. وقد حدد القانون مدة الاستئناف وهى لاتتجاوز العشرة أيام ، ويكون حكم الوالى فى هذه الحالة نهائيا [٤].

ودخلت أعمال الشرطة ضمن تنظيمات جوستنيان حيث اعتبرت قوانين جوستنيان الدوق فى إقليمه رئيسا للشرطة حيث أنه يقوم بمساعدة الجند على حفظ الأمن العام ، ويكفل انتظام جباية الضرائب، بما يبذله لعمال الخراج من المساعدة بالقوة العسكرية ، ويؤدى رئيس الأبروشية فى إقليمه مهمة قائد الشرطة ، فيصد من ديوانه أوامر القبض على المجرمين واعتقالهم فى سجن الإقليم . كما أوكلت أعمال الشرطة فى المدنية إلى حامى المدنية ورجاله حيث تحددت

١- نور فرحات ، المرجع السابق، ص٣٧٩ ، جـ٤ نفس الصفحة .

2- Nove ., XXIII , IV, II ; العرينى ، مصر البيزنطية ، ص٢٢٢-٢٢٥ .

3- Jones , Op. cit ., I , p. 282 .

4- Nove . XXIII , IV , II .

مهامهم فى حفظ الأمن فى المدينة والتحفظ على المتهمين مراقبتهم حتى يمثلوا أمام القضاء . وفى غالب الأحيان كانت أعمالهم من قبيل السخرة والتكليف . وهذه المهام أوكلت كذلك إلى رجال الشرطة فى القرية الذين كان على رأسهم أعيان القرية [١].

وفى الأطراف أى على حدود الإقليم تم إقامة الأبراج التى يقيم فيها رجال الشرطة لحماية الحدود من إغارات البدو والرعاة . وقد أنشأ كبار الملاك لأنفسهم شرطة خاصة لحماية مزارعهم وأملاكهم من اللصوص ، واستخدامها كذلك ضد الجباة فى حالة عدم التمتع بالجباية الذاتية . وفى حقيقة الأمر أن جوستنيان قد كان يهدف من وراء كل ذلك استغلال موارد البلاد وضمان انتظام جباية الضرائب ووصول حصة القمح «الشحنة السعيدة» المفروضة على مصر إلى القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية [٢].

وكثرت قرارات وأوامر جوستنيان الإصلاحية ، وكثرتها دليل على عدم تنفيذها ، دليل كذلك على أن هذه القوانين لم تأت ثمارها المرجوة منها. وفى مرارة يقرر المؤرخ المعاصر لجوستنيان «بروكوبيوس»[٣] سوء حكم جوستنيان وإصلاحاته فيقول : «عندما اعتلى جوستنيان العرش لم يمر وقت طويل حتى سادت الفوضى فى كل شئ وأبيحت الأمور التى يمنعها القانون واحدة تلو الأخرى ، واكتسحت التقاليد الراسخة كلية كما لو أنه كان مكلفا كحاكم لأن يغير الأمور إلى أشكال جديدة ، فألغى المكاتب الحكومية المؤسسة منذ فترة طويلة وأقام غيرها جديدة لإدارة شئون الدولة ، وتعامل مع القوانين الخاصة بالأرض وتنظيمات الجيش بنفس الطريقة ، ليس لأن العدالة كانت تتطلب هذا ، أو أن المصلحة العامة قد أحثته على ذلك، ولكن لمجرد أن يبدو وكل شئ جديد ومرتبط باسم ، فلو أن الموقف لم يسمح بتغيير شيئا فى وقته وحينه ، فكان يلحق به اسمه على الأقل. ولم يكن يشبع من أخذا الممتلكات بالقوة ، وقتل رعاياه، وسلب الكثير من منازل أعيان الشعب وبعثر أموالها على القبائل الأجنبية ، ومشاريع المبانى الجنونية مبذراً فى كل ما جمعه من غنائم . وكانت تتملكه شهوة

١- العرينى، المرجع السابق، ص٢٢٥-٢٢٧ .

٢- نفس المرجع ، ص٢٢٨ -٢٣١ .

3- Procopius , The Secret History , Translated to English by G . A. Williamson , London , 1966 , p. 94 .

القتل والدم سواء بقتل رعاياه أو بالإيقاع بين الدول الأجنبية لتقوم الحرب بينها . كما أفلس الخزينة الإمبراطورية بانفاق الكثير من الأموال للحصول على السلام من الهون والقبائل السلافية والفرس .

هذا فضلا عن أن كثيرا من الأمراض الاجتماعية قد انتشرت فى هذا العصر مثل الشذوذ الجنسى ، وخرق القانون ، وخصى الشباب والعذاب ، واضطهاد علماء الفلك بالتعذيب ، كما انتشرت الرشوة التى قام بها الإمبراطور بنفسه فقد كان يعمل على الرشوة من الذى يدفع أكثر للحصول على الوظائف أو تزوير الأحكام [1].

1- Procopius , Op. cit ., pp. 95-113 .

الفصل الرابع
« النظام المالى »
العلاقة بين الإمبراطورية ومصر

نظام الأراضى الزراعية وملكيتها - نظام الحماية- النظام الإقطاعى- الضرائب وأنواعها: ضريبة الأرض الزراعية - ضريبة الرأس- ضريبة السخرة أو الخدمة العامة - ضريبة المهنة- ضريبة الحيوانات- ضرائب المحصولات الزراعية من الفواكه والخضروات - الميرة العسكرية- المكوس الجموكية - ضريبة القمح - كيفية تحصيل الضرائب - شحن القمح- إيصالات الضرائب .

ارتبطت مصر بالإمبراطورية البيزنطية والعرش بالقمح والمال الذى فرضه الإمبراطور على أراضى مصر وسكانها حيث فرضت ضريبة القمح والتى سميت «الشحنة السعيدة» التى تعيش عليها بيزنطة ومن قبلها روما، والمال الذى كان عن طريق الضرائب الضخمة والمتعددة التى فرضت على سكان مصر ، ولذا فقد كانت مصر جزءا حيويا بالنسبة للإمبراطورية البيزنطية لايمكن الاستغناء عنه بحال من الأحوال .

نظام الأرض الزراعية وملكيتها :

انقسمت الأرض فى مصر إلى عدة ملكيات منها : الضياع الإمبراطورية أو أرض التاج ، وهى الأراضى التابعة لملكية الحكومة . والأملاك الخاصة للإمبراطور شخصيا [١]. وكذلك أرض الكنائس والمعابد وهى الأملاك الكنسية التى تملكها الكنائس والأديرة والمعابد وقد آلت إليها عن طريق الهبات التى وهبها إليها الأباطرة من أملاكهم الشخصية والأملاك المصادر من أصحابها [٢]. وكانت تقوم بزراعتها أو تأجيرها للمزارعين [٣].

١- العرينى ، مصر البيزنطية ، ص٩٧ .

2- Bury , op. cit ., 2 , p. 355 .

٣- العرينى، مصر ، ص١٠٦-١٠٨ .

وقد انتقلت كثير من أراضى التاج إلى الأفراد وأصبحت ملكا خاصا لهم، ومنها ما صارا أرض طعمة، كما تم التصرف فى البعض منها بالبيع ، وعلى هذا فقد أخذت أملاك الإمبراطور فى التناقص. ولم يعد الإمبراطور فى العصر البيزنطى هو المالك الوحيد، أو أهم الملاك فى مصر [١].

وهكذا بدأت تنتقل ملكية الأراضى الحكومية والإمبراطورية إلى يد الأفراد، واستمر بصورة أقوى فى القرن الرابع الميلادى ، وازداد قطاع الملكية الخاصة بصفة عامة والملكيات الكبيرة بصفة خاصة . وعلى هذا بدأت الملكية الخاصة تزداد على حساب أراضى الدولة والملكيات العامة. وهذا إما عن طريق البيع أو الهبة للكنائس [٢]. ففى منتصف القرن الرابع الميلادى ملك حوالى $\frac{١}{٦}$ مساحة الأرض الزراعية فى مصر كبار الملاك فى مدينة هرموبوليس . وفى القرن السادس ملكت أسرة «أبيون» وحدها $\frac{٢}{٥}$ المساحة الزراعية فى مدينة اكسريتوس[٣].

وأخذ هؤلاء الملاك فى توسيع رقعة أملاكهم وحصلوا على «حق الجباية الذاتية» وأصبحوا يحصلون الضرائب المقررة على أراضيهم ويقومون بتوصيلها مباشرة إلى السلطة المركزية . واستفحل أمرهم وأصبحوا يعيشون عيشة الملوك حيث أصبح لهم الحرس الخاص ، وهيئات البريد الخاصة بهم ، والكتاب والنظار والفلاحين العاملين فى أراضيهم ، والشرطة الخاصة ، والجيوش الخاصة بضياعهم ، ومتولى الخزانة ، وكذلك السجون الخاصة بالضياع يلقون بها من يحاول الاجتراء على سلطانهم ، كما سكوا العملة الخاصة بهم، إمعانا فى الاستقلال والإعلان عن نفوذهم الذى أصبح يقاوم النفوذ البيزنطى نفسه ، ومن أمثلة ذلك أسرة «أبيون»[٤]، التى كانت أغنى الأسرات المصرية ، وحازت فى سنة ٥٣٩م حوالى ١٢٠ ميل Square . وكانوا ينتجون ٣٠٠ جنيه ذهبى فى العام، كما كانوا أحد أفراد هذه الأسرة مستشاراً فى البلاط الإمبراطورى [٥].

١- العرينى ، مصر ، ص٩٧ ، ٩٨ .

٢- العبادى ، مصر ، ص٣٢٠ .

3- Jones ., op . cit ., p. 292 .

٤- العرينى، الدولة البيزنطية ، ص٨٢ ، ٨٣ ؛ زبيدة عطا ، المرجع السابق، ص٥٠ ، ٥٣ .

5- Jones , op. cit ., p. 279 .

وقد بدأت بذور هذا النظام عندما قام الفلاحون باستئجار مساحات كبيرة من الأراضى الإمبراطورية مقابل مبالغ ضئيلة يدفعونها سنويا ، ويقومون بزراعتها بالحبوب التى كانت مرتفعة الأسعار مما جعلهم يحوزون أموالا ضخمة اشتروا بها هذه الأراضى من الدولة، وغيرها من الأراضى التى تركها أصحابها وأراضى الأطراف ، وتكونت بذلك الضياع الكبيرة التى أصبحت أملاكا خاصة للأفراد الذين تحملوا تسديد ما على الأرض من التزامات مالية . ونتيجة تضخم الأملاك الخاصة أصبح هؤلاء الملاك على درجة من القوة التى جعلتهم يتحدون سلطان الحكومة ، وهذا واضح من خلال قانون سنة ٣٩٥م الموجه إلى والى مصر [١].

واعتبرت القرية وحدة إدارية واقتصادية بالغة الأهمية ، ومسئولة عن الأراضى المحيطة بها وتدخل ضمن حيازتها ، وقد بلغت بعض القرى من الرخاء والثروة بفضل ما صار لها من ملكية الأراضى حيث إنها استطاعت أن تشترى من كبار الموظفين ما صار إليهم من حماية ، وقد صدرت الكثير من التشريعات والقوانين التى تمنع بيع أراضى القرية لأى أجنبى عنها . وقد أدى ذلك إلى خسران الخزانة الإمبراطورية الكثير من الأموال التى كانت تحصل عليها من الأراضى المصرية حيث إن كبار الملاك الذين حصلوا على حق الجباية الذاتية قد خففوا ما على أراضيهم من ضرائب [٢].

ورغم أن الفلاح قد ظل مرتبطا بالأرض والعمل فيها ، والتنقل بحرية تامة طالما يدفع ما عليه من ضرائب وإلتزامات حتى أصبح مالكا للأرض أو مستأجراً لها. وظلت القوانين الإمبراطورية فى مصر تحافظ على الفلاح وحريته ، وتمنع الأجانب من تملك الأراضى فى مصر، وكذلك تحقيق العدالة وحماية الفلاح من طغيان حماة القرى، وسطوة الضرائب ، ولكن دون جدوى فقد كان حماة المدن من الأرستقراطيين أقوى فى طغيانهم من قوة القوانين والتشريعات الإمبراطورية [٣].

وقد نظمت القوانين والتشريعات الإمبراطورية عملية تأجير الأرض الزراعية ويتضح من البرديات كيفية هذا الإيجار ، فقد كانت تؤجر الأرض للزارع لمدة عام واحد، ويدفع الإيجار

١- العرينى، مصر ، ص٩٩ ، ١٠٠ .

٢- العرينى، مصر ، ص٩٢ - ٩٥ ، ١٠٥ .

٣- زبيدة عطا ، المرجع السابق، ص٥٥ - ٥٧ .

عينيا أى من نفس المحصول إذا كان قمحا . أما فى محاصيل الخضروات فيدفع نقداً. وفى القرن الثانى كان يتفق حول مسئولية كل من المالك والمستأجر ، فكان ما يقوم به المستأجر من مسئوليات تجاه الحكومة أو بخصوص الإله ديونيسيوس يقتطع من الإيجار [١].

أما فى القرن الخامس فقد أصبحت الأمور أكثر وضوحا فوصل مجمل إيجار أربعة أرورات[٢] arourae إلى ٥٢ كارات Carats من الذهب . وهذا واضح من خلال بردية عبارة عن عقد اتفاق بين مالك ومستأجر يتعهد فيه المستأجر بدفع ١٣ كارات من الذهب لكل أرورة، على أن يدفع الإيجار كاملا أثناء تحصيل الضرائب وبدون تأخير ، هذا على أن يزرع الأرض بأى محصول يتفق عليه. كما تحدد فى العقد الأرض بجميع الحدود المتاخمة لها من جميع النواحى، والمنطقة التى تقع فيها ، فكانت أرض هذا العقد فى منطقة هيراقليوبوليت Her-acleopolite [٣].

وتشير البرديات أيضا إلى أن الأرض كانت تؤجر بقرض أو عن طريق الإعارة وكان القرض يتراوح فى صيغته المألوفة ما بين ١٠١ و ٥٠١ دراخمة [٤]. فقد اقترض أحد المستأجرين مقدما لزراعة الأرض مبلغ ٢٠٠ دراخمة من الفضة فى المعدل المعتاد ، وكذلك للإتفاق على خدمات الإله ديونيسيوس ودفع الضرائب، واتفق فى العقد على أن يبدأ الإيجار من شهر بؤونة لمدة عام ، وأن الجزء الغير مزروع يقتطع من الإيجار ، وكذلك الضرائب السنوية التى يدفعها المستأجر على الأرض. ويبقى المحصول فى حوزة المالك حتى يتسلم كل مستحقاته ، وأن يخزن المحصول فى المخزن العام ضمن الإيجار [٥].

1- Ox. p., VIII , pp. 217-8 .

٢- الأرورة هى كلمة يونانية تعنى فى الأساس «أرض زراعية» وفى مصر الهللينستية والرومانية كانت تشير إلى وحدة قياس للأرض تساوى ٢٩,٨٢٥ قدما مربعا ، أو حوالى سبعة أعشار الفدان أو ما يزيد قليلا عن ربع هكتار ، نفتالى لويس ، المرجع السابق، ص٢١٠ ؛ أو كما يقول بل أنها تساوى ٢٧٥٦ م٢ ، المرجع السابق، ص٦٣ ، ج١ .

3- Ox ., p. , VIII , pp. 220-21 .

٤- الدراخمة هى وزن يساوى ثلاثة جرامات ونصف . وهى الوحدة الأسياسية للعملة اليونانية التى استمرت فى شرق البحر المتوسط خلال قرون الحكم الرومانى ، وهى عملة فضية أساسا، وقد تدهورت قيمتها فى مصر عدة مرات ، كما تلاعب الأباطرة بها للحصول على امتيازات مالية . وكان الدينار الرومانى يساوى أربعة دراخمات . نفتالى لويس ، المرجع السابق، ص٢١٠ .

5- Ox., p. , VIII , pp. 218-9 .

وتشير البرديات إلى انتقال ملكية أرض الدومين والعلاقة بين ورثة المالك وبين المستأجر ، فعندما يموت أحد الملاك تنتقل الأرض إلى ورثته ويبقى المستأجر أو المزارع فى الأرض كما هو على أن يتعهد بتقديم ما عليه من واجبات ، وألا يكون الوريث مسئولا عن الأعمال النظرية أو الأشياء الغير شرعية(١).

وهكذا فقد ظهرت بذور النظام الإقطاعى فى مصر فى القرن الرابع الميلادى بظهور طبقة كبار الملاك الأثرياء Potentiores ، والذين توسعوا فى أملاكهم وحصلوا على حق جباية الضرائب المفروضة على أملاكهم وتوريدها مباشرة إلى الخزانة بالإسكندرية وهو ما عرف «بالجباية الذاتية أوتوبراچيا autopragia » . وعندما أثقلت الضرائب كاهل صغار الملاك لجأوا إلى هؤلاء الملاك الكبار وتنازلوا لهم عن أراضيهم وزرعوها كمستأجرين فى مقابل أن قوم هذا السيد المالك الكبير بدفع ما على الأرض من إلتزامات تجاه الحكومة وحماية هذا المزارع ، «وهكذا تحول المالك الصغير إلى مستأجر مربوط إلى الأرض ، التى آلت حينئذ إلى غيره أى أصبح قنا Colonus adscripticius لايختلف وضعه فى الواقع عن أقنان الأرض »(٢). ولم يعد طلب الحماية مقصورا على الأفراد فحسب ، بل إن قرى بأكملها كانت تطلب إلى كبار الملاك شمولها بحمايتهم ، وانتهى الأمر بالسلطة المركزية إلى قبول الأمر الواقع (٣).

ولم تكن الحكومة الإمبراطورية راضية عن انتشار نظام الحماية Patrocinium وحاولت بكافة الوسائل الحد من حدته مثل التدخل فى حق الإرث أو مصادرة بعض الأملاك أو فرض وقف أملاك بعض كبار الملاك على الإمبراطور أو اتهام أحد الأديرة بالزندقة ومصادرة أملاكه وغير ذلك من الوسائل (٤).

ولما رأت الحكومة أن كل هذه الوسائل غير مجدية سلمت بالأمر الواقع، ففى سنة ٤١٥م أصدرت مرسوما ينص على أن يبقى جميع من اقتنوا أراضى قبل سنة ٣٩٧ م بمقتضى الحماية،

1- Ox. , p. , VIII , pp. 215-6 .

٢- بل، المرجع السابق، ص١٧٩ .

٣- نور فرحات ، المرجع السابق، ص٣٥٦ .

٤- أسدر رستم ، الروم ، جـ١ ، ص١٧٢ .

محتفظين بها ، على أن يتعهدوا بأداء كافة الالتزامات المفروضة على مؤاجريهم ، وأن يلغى لقب حامي. وقد أكسب هذا المرسوم المؤاجرين المربوطين إلى الأرض صفة قانونية ولكنه لم يحل، كما قصد منه، دون تفشى نظام الحماية » [١].

وقد صار هؤلاء الإقطاعيون فى القرن الخامس والقرن السادس بصفة خاصة أكثر عدداً وأعظم قوة ، وازداد وضع التابعين سوءاً ، فأصبحوا أشبه برقيق الأرض ، فصاروا يلحقون بصفة دائمة بالأرض التى يفلحونها ، فكانوا يقيمون عليها مع زوجاتهم وأولادهم وماشيتهم ومنقولاتهم ، ولم يعد فى وسعهم مغادرتها بأية حال . وكانت تتولى إدارة هذه الأملاك إدارة منظمة على غرار الإدارة التى تشرف على أملاك الإمبراطور من الموظفين المتفاوتى الدرجات ، والشرطة ، والجنود ، والسجون ، هذا فضلا عن أن هؤلاء الإقطاعيين قد شغلوا مناصبا كبيرة فى الدولة توارثها أبناؤهم [٢]. وقد أصبحت هذه الإقطاعيات شبه مستقلة فى عصر جوستنيان حيث فقدت القوى الإدارية ، واعتمد الموظفون الإمبراطوريون اعتمادا كاملا على كبار الملاك [٣]. فى الفترة من ٤٩٧ وحتى ٦٢٥ م أى حتى قبيل الفتح العربى الإسلامى لمصر[٤].

وعلى أية حال فإن ملكية الأرض فى مصر فى العصر البيزنطى لم تكن مشروطة بأداء الخدمة العسكرية ، كما أن الضياع الكبيرة لم تكن فى جميع الأحوال فى منطقة واحدة بل كانت متفرقة فى مناطق بعيدة عن بعضها . وكان المالك مقيما فى قصره بعيدا عن الأرض الزراعية ، ويأتى إليها بغرض الإشراف عليها وعلى الإدارة البيروقراطية التى كانت على غرار إدارة الإمبراطورية المركزية [٥].

وانقسم الناس فى القرية إلى ثلاث فئات إما من الأقنان أو الفلاحين الأحرار:

١- بل، المرجع السابق، ص١٨٠ .

٢- محمد نور فرحات ، المرجع السابق، ص٣٥٦-٣٥٧ .

3- Thorndike, op. cit ., p. 105 .

٤- بل، المرجع السابق، ص١٨٢ .

٥- بل المرجع السابق، ص١٨٤ .

١- الفلاحون الذين عاشوا بالقرية واشتغلوا بفلاحة الأرض ، سواء كانوا أرقاء أو مستأجرين أو أحرار .

٢- المصريون أهل القرية ، وارتبطوا بزراعة الأرض التي هجرها أصحابها .

٣- الفلاحون القراريون ، وهم الذين ارتبطوا بالأرض في قريتهم ، وهم من الأحرار ولكنهم سعوا بمحض إرادتهم إلى طلب الحماية من الأغنياء أو الأقوياء فأصبح بذلك مستأجراً لأرضه بمثابة هذه الحماية ، على أن يقوم السيد الحامي بالالتزامات المالية على الأرض سواء كانت نقدية أو عينية .

وعلى هذا الأساس أصبح هناك علاقة بين السيد والتابع في صورة علاقة إقطاعية صيغت في صورة عقود رسمية تفرض على التابع أن يقوم بفلاحة الأرض سواء بالإيجار أو غيره، وأن يقوم السيد بحماية التابع ودفع ما على الأرض من مستلزمات مالية [١].

ورغم وجود مظاهر النظام الإقطاعي ، إلا أن هناك دلائل تدل على عدم وجود القنية في مصر في العصر البيزنطي : أولا : «ما أشار إليه سجل ضرائب أنتيهابوليس «العثمانية» من أن الضرائب العينية انخفض مقدارها انخفاضا محسوسا . والواضح أن هذا السجل إنما يعطي صورة حقيقية للضرائب المقررة وقتذاك ، وفي ذلك من الدلالة على أن الفلاح توافر لديه من الحبوب ما يصح له أن يتصرف فيه بالبيع في السوق الحرة . وبلغ متوسط سعر القمح طوال القرن السادس ديناراً لكل ستة أردب ، ويعتبر هذا السعر مجزيا للفلاح . والدليل على ما أصاب مصر من الرخاء ووفرة المال ما جرى تحصيله من أفروديتو وأنتيهابوليس والبهنسا من مقادير كبيرة من الذهب .

ثانيا : نمو المسيحية ، لاسيما الديرية التي ناهضت كل محاولة قام بها المالك لإنزال الظلم بمزارعين وفلاحين . فلما صار الهارب الآبق من الفلاحين قديسا ، وجد من الكنيسة حاميا له ، وتيسر له بذلك أن يفلت من ظلم الملاك. وإذا كانت الديرية نمت وتطورت أوائل عهدها نتيجة ما أنزله جباة الضرائب من الظلم والاستبداد فليس ثمة من الأدلة ما يشير إلى أن الفلاح اتخذ هذه الوسيلة في العصر المتأخر للديرية [٢].

١- العريني، المرجع السابق، ص٨٠١-١١٥ .

2- Johnson , Allan chester & louis C. west , Byzantione Egypt, Economic Studies , Princetion , 1949 , p. 32 .

أما الشق الثانى من التنظيمات المالية فقد كان الضرائب المتعددة التى فرضت على مصر منذ عصر الإمبراطورية الرومانية . فقد قامت الإمبراطورية الرومانية على أكتاف الجند والطبقة العسكرية ، ولأن الإمبراطورية كانت لاتزال فى حالة حرب فكان عليها أن توفر كل متطلبات الجنود وتعمل على استرضائهم ولذا سن الإمبراطور «سبتميوس سيفيروس» المبدأ القائل «تجزل العطاء للجند ولاتعبأ بالآخرين». لذا ازدادت الضرائب زيادة ضخمة لسد مطالب الجند ومواجهة مطالب الحرب، هذا فى الوقت الذى تضخمت فيه العملة تضخما كبيرا فى النصف الثانى من القرن الثالث ، فأثر هذا على الناحية الاقتصادية فارتفعت الأسعار ، فلجأت الحكومة إلى فرض ضرائب عينية إجبارية إلى جانب ضريبة الخدمة العامة أو السخرة [١].

وبعد أن كان التعداد السكانى يحصر سنويا فى مصر بأن يقوم السكان بتسجيل أنفسهم سنويا ، أصبح فى العصر الرومانى وما بعده لايحدث إلا كل ١٤سنة أى عندما يصل الفرد إلى السن التى تفرض عليه فيها ضريبة الرأس [٢].

وتمثل هذا المصدر المالى للإمبراطورية البيزنطية فى الضرائب العديدة مثل :

١- ضريبة الأرض الزراعية : ومثلت هذه الضريبة أهمية كبيرة فى الاقتصاد البيزنطى وعرف نظام هذه الضريبة بـ adiectis Sterilium . وكانت هذه الضريبة تحدد سنويا بمراجعة سجلات الأراضى عن طريق المحليات والوحدات التابعة لها الأراضى ، لتحديد فئة الضريبة ودافعها (المالك أو المستأجر) وذلك بتحديد نوع الأرض وكيفية ريها (رى طبيعى أو عن طريق ضخ المياه) ونوع المحصول والمساحة . ولذا كانت فئة الضريبة وقيمتها تتغير من عام لاخر نتيجة انتقال الملكية ومستوى الفيضان المفاجئ . وكان على المزارع أن يعلن الجهة الإدارية التابع لها بأى تغير طرأ على أرض أو أى ضرر نزل بالمحصول [٣].

وقد تطور نظام هذه الضريبة فبعد أن كانت تفرض على ملاك الأراضى الزراعية فأصبحت فى نهاية القرن الثالث تفرض على ملاك الأراضى الغير زراعية ، وبالمثل على أملاك الدولة التى تعرف «بأرض التاج» ، وكانت تحسب هذه الضريبة بالأنونا annona [٤].

١- دوسن ، تكوين أوربا ، ص١٦ ، ١٧ .

٢- نفتالى لويس، المرجع السابق، ص١٥٦ .

٣- نفتالى لويس، المرجع السابق، ص١٥٩ .

4- Ostrogorsky , Hist. Byzantine Empire . p. 41 .

وفرضت قوانين جوستنيان على الأرض الزراعية بمعدل ٧ $\frac{٢}{٣}$ كارات على الأرورا . والمعدل الطبيعى لأرض الفاكهة ١٢ كارات للفدان[١] . ودفعت هذه الضريبة بالصولدى العملة المتداولة آنذاك فى الإمبراطورية البيزنطية ، وهو من الذهب ويزن ٤,٤٨ جرام . مقدار ٧٢ صولدى يساوى جنيها ذهبيا ، وكذلك Seliqua الفضية التى تزن ٢,٢٤ جرام وتساوى ٢٤ صولدى[٢].

وأحيانا كانت تدفع عينا من نفس المحصول . ولقسوة هذه الضرائب فقد هجر كثير من الملاك أراضيهم التى أصبحت لاتدر محصولا يعادل مقدار الضريبة ، ولذا أصدر الإمبراطور جوستنيان قراراً بإلزام المزارعين بالقرى بزراعة الأراضى المجاورة لهم والتى هجرها أصحابها مع دفع الضرائب المقررة عليها[٣]. حتى لايساء استخدام هذه الأراضى ، وعرفت هذه الضريبة بـ epibole[٤].

٢- ضريبة الرأس Kephaletion : وتفرض على الأفراد من سن الرابعة عشر وحتى سن الستين ، وفى العصر الرومانى أعفى منها الرومان والإغريق واليهود وكبار الموظفين وأعضاء المجمع السكندرى والكهنة ، كما امتاز سكان عواصم الأقاليم بدفعها مخفضة ، وتفاوتت فى مقدارها من إقليم إلى اخر[٥]. حيث تم تقديرها حسب المنطقة التى يعيش فيها الفرد. وكانت تدفع على دفعات ، وليس مرة واحدة[٦]. وقد سار جوستنيان على هذا النهج ، ففى القانون ١٣ لسنة ٥٣٨ م قرر إعفاء أهالى المدن وخاصة الإسكندرية من ضريبة الرأس ، حيث تمتعت المدينة بالانتعاش الاقتصادى آنذاك[٧].

1- Jones, op. cit ., p. 308-9 .

2- Ostrogorsky , op. cit ., p. 42 .

٣- العرينى، المرجع السابق، ص١٨٣ ، ١٨٤ .

4- Bury, Hist . L. R . E ., 2 , p. 350 .

٥- نفتالى لويس ، المرجع السابق، ص١٦٩-١٧٠ .

٦- العرينى، المرجع السابق، ص١٧٩ .

٧- نفس المرجع ، ص١٢٦ ، ١٢٧ .

٣- ضريبة السخرة أو الخدمة العامة الإجبارية Leitourgia : وتعنى «العمل من أجل الناس» وهى يونانية الأصل ، وعرفت فى العصر الرومانى باسم الموتيرا munera . وكانت تقتصر على الأغنياء وما يقومون به من خدمات عامة [١].

وفى العصر البيزنطى فرضت هذه الأعمال على الفقراء والعامة مما جعل الكثيرين منهم يتخلصون من هذه الأعباء بالفرار لشدة وطأة هذا النظام الذى فرض عليهم عنوة ، وتمثلت أعمال السخرة فى مراقبة توزيع مياه الفيضان فى النيل ، وتطهير القنوات ، وإقامة الجسور[٢]. ولكن الأباطرة فى القرن الخامس خففوا من وطأة هذا العبء بفرض مقابل عينى أو مادى من الطعام أو الملابس أو قليل من المال لهؤلاء الناس ، واستمر هذا الأمر حتى النصف الثانى من القرن السادس كما تشير أوراق البردى[٣].

ومن هولاء الذين كلفوا بالخدمة العامة : شيوخ القرية والقائمون بأعمال الشرطة وجامعوا الضرائب من القمح والنقود وعمال نقل القمح من مخازن الغلال إلى الميناء النهرى، ومن الميناء إلى الاسكندرية أو معسكر الجيش ، والمشرفون على فيضان النيل والحقول التى وصلتها المياه أو لم تصلها ، وعلى أعمال السدود والمشرفون على الأعمال العامة وجمع الضرائب وعلى إمدادات كبار الزائرين والمتصرفين فى الأموال العامة والأوصياء على القصر ، والقائمة الطويلة لأعضاء مجالس المدن المركزية والموظفون . وتراوحت مدة العمل ما بين عام إلى ثلاثة أعوام فى الخدمة العامة [٤].

هذا فضلا عن أن هؤلاء الناس كان مفروضا عليهم القيام بنفقات المناصب التى يقومون بها. وتسليم كمية الضرائب المفروضة على منطقتهم كاملة ، وهذا يعنى أنه فى حالة العجز كان عليهم تسديده من أموالهم الخاصة . ولذا كان يقع ترشيح هذه الفئات من بين الأغنياء والمقتدرين ماليا، والذين عرفوا «بأصحاب الياقات البيضاء» . ولذا كان الكثيرون منهم

١- نفتالى لويس، المرجع السابق، ص١٧٧ .

٢- العرينى، المرجع السابق، ص١٢٨-١٢٩ .

3- Ox., p., VIII , p. 214 .

٤- نفتالى لويس ، المرجع السابق، ص١٧٨ .

يهربون من هذا التكليف بكافة الوسائل حتى ولو بالرشوة لرجال البلاط حتى لايدرجون أسماءهم ضمن هذه الفئات أو يفرون من البلاد[١].

٤- ضريبة المهنة أو الحرفيين : وفرضت على أصحاب الحرف ذكوراً وإناثاً، وكانت تدفع على دفعات [٢]. وقد أقام الحكام البيزنطيون نظام النقابات والحرف ليسهل عليهم تحصيل هذه الضرائب من هؤلاء الحرفيين عن طريق النقابة [٣]. كما ربط الإمبراطور جوستنيان الناس بمهنة أبائهم وبخاصة ما يتصل منها بالأرض والزراعة . وكلف كل عاطل بالعمل فى مصانع ومخابز الدولة [٤].

٥- ضريبة الحيوانات : وتفرض إما نظير ملكيته لها أو نظير استعماله لمراعى مملوكة للدولة ، وكانت تدفع عن كل رأس من رءوس هذه الحيوانات . ولذا كان على المالك أن يبلغ سنويا عن عدد قطعانه حتى تظهر الزيادة أو النقصان لتحديد الضريبة المفروضة[٥] . وتمثلت هذه الضريبة فى الإبل والحمير والخيول والأغنام والماعز والحمام والدجاج [٦].

٦- ضريبة الخنازير : وتقدر بدراخمتين على كل فرد . وقد فرضت فى العصر الرومانى لتزويد المعابد بحيوانات القرابيه[٧]. واستمرت فى العصر البيزنطى لنفس الأهداف الدينينة[٨].

٧- ضريبة السدود: وكانت مفروضة وموحدة على جميع سكان مصر، وقدرت بست دراخمات وثلثى دراخمة [٩].

١- نفتالى لويس ، المرجع السابق، ص١٧٨ ، وما بعدها .

٢- نفس المرجع ، ص١٧١ .

٣- العرينى، المرجع السابق، ص١٢٩ .

٤- رنسمان ، الحضارة البيزنطية ، ترجمة د. عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة ، ١٩٦١، ص٩٥، ٩٦ .

٥- نفتالى لويس، المرجع السابق ، ص١٦٩ .

٦- العرينى، المرجع السابق، ص١١٨-١٢٠ .

٧- نفتالى لويس ، المرجع السابق، ص١٧١ .

٨- العرينى، المرجع السابق، ص١٢٠ .

٩- نفتالى لويس المرجع السابق، ص١٧١ .

٨- ضريبة المرافق العامة : وهى خاصة بإعداد الكبارى والطرق والأسوار والموانى، وهى ضريبة شخصية ، وفرض على سكان المدن إمداد العمال فى هذه المرافق بالطعام[١].

٩- ضريبة الهواء أو السماء : (aerikon) air - tax or sky - tax ، وفرضت على المبانى العالية فى المدن ، وتدفع سنويا إلى خزانة الدولة بمقدار ٣٠٠ Ibs من الذهب أى ما يعادل فى وقتنا الحاضر ١٣٥,٠٠٠ دولار [٢].

١٠- ضريبة المساحة : وفرضت على ملاك الأراضى الزراعية ، وكانت تجبى من أجل المساحين الذين يقومون بتحديد مساحات الأراضى المنتجة وغير المنتجة ، وكانت تفرض عادة على بساتين الكروم بنسبة ٤٠ دراخمة على الأرورة [٣].

١١- ضريبة النخيل : وفرضت على أصحاب مزارع النخيل ، وتقدر ما بين عشرين وثلاثين دراخمة [٤].

١٢- ضريبة الميراث : وفرضت على التركات التى تركها الأغنياء ، وكبار الملاك دون أبناء يرثونهم [٥].

١٣- الرسوم البلدية : وفرضت على سكان القرى والمدن لسد النفقات المحلية [٦].

١٤- ضريبة المعاملات التجارية : وفرضت على البضائع والمحلات والمتاجر فى القرى والمدن[٧].

١٥- الميرة العسكرية Annona Military : وهى الضريبة التى كانت تحصل لتموين الجيوش بكل ما يلزمها من طعام ووقود وعشب وضيافة ووسائل الانتقال[٨]. كما كان الجنود يتقاضون

1- Bury , op. cit ., 2 , p. 350 .

2- Loc. cit .

٣- نفتالى لويس ، المرجع السابق، ص١٦٩ .

٤- نفس المرجع والصفحة .

٥- العرينى ، المرجع السابق ، ص١٢٨ ، ١٢٩ .

٦- العرينى، المرجع السابق، ص١٨٢ .

٧- نفتالى لويس ، المرجع السابق، ص١٧٢ .

٨- نفس المرجع ، ص١٧٣ .

رواتبهم عينا من القمح والزيت [١]. وكانت تحصل هذه الضريبة من الأقاليم التى تمر بها الجيوش المحاربة ، أو المناطق التى تقيم فيها القوات العسكرية [٢].

١٦- المكوس الجمركية : وتقررت هذه المكوس أو الرسوم على المتاجر والبضائع الواردة إلى مصر والخارجة منها أى على الاستيراد والتصدير . ولذلك تقرر عمل نقاط ومراكز لتحصيل هذه الرسوم على طول الموانى المصرية . ولأهمية هذه الرسوم فقد كان الموظف المكلف بإدارة الجمارك والمدعو «الآلابارك Alabarque من كبار الموظفين فى الدولة ، ويجتمع مباشرة مع الدوق الأوجستال ومتولى الخزانة فى بيزنطة [٣]. ولكى يجد هذا الموظف الآلابارك ومساعديه فى عملهم ولايتهاونوا فيه فرض لهم الإمبراطور جوستنيان إلى جانب مرتباتهم حوافز إضافية عبارة عن نسبة من الأموال التى جمعوها من الرسوم الجمركية [٤].

وقد عرف نظام جباية وتحصيل هذه الضرائب فى مصر منذ العصر الرومانى عن طريق الجباة، فقد كان يعين فى كل عام بالتناوب فى كل مخزن مجموعة من محصلى الحبوب المعروفين بالسيتولوجوى Sitologoi وهم من السكان المحليين ماعدا الفقراء ، وكانوا يقومون بهذا العمل دون مقابل وكخدمة إجبارية ، بل هم الذين يدفعون نفقات هذا المنصب كما أوضحنا من قبل ، وكانوا مسئولين عن كمية ونوعية الحبوب منذ تسلمها لهم وحتى شحنها إلى مخازن الغلال فى نيابوليس بالقرب من الإسكندرية حيث يشرف عليها المدير المالى الذى يشرف على شحنها إلى العاصمة [٥].

وفى العصر البيزنطى تطورت الأمور فقد كان يقرر المختصون مقدار الضرائب ثم يقوم الجباية المختصون بجبايتها سواء كانوا من الموظفين فى مصر أو الجباة الذين يرسلهم إلى الشرق لجباية الضرائب بصورة دورية وفى أوقات محددة من كل عام . ويودع جزء منها فى الخزانة العامة للإقليم ، ويرسل الجزء الآخر إلى خزانة الإمبراطورية فى القسطنطينية [٦].

١- زبيدة عطا ، المرجع السابق، ص٦٠ وما بعدها .

٢- العرينى، المرجع السابق، ص١٢١ ، ١٨٢ .

3- Rovillard , op. cit ., p. 84 .

4- Bury , op. cit ., 2 , p. 355 ; note 6 .

٥- نفتالى لويس، المرجع السابق، ص١٦٧ .

6- Rovillard , op. cit ., p. 93 .

وقد أقام الإمبراطور جوستنيان إدارة للحسابات مراجعة الإيرادات والنفقات ليضرب على يد المفسدين والمختلسين الذين يجنحون إلى الوسائل التى تؤدى إلى زيادة النفقات على الايرادات [١]. كما فرض الإمبراطور جوستنيان فى القانون ١٣ لسنة ٥٣٨ م الإصلاحى عقوبات صارمة على كل من يخل بعملية تحصيل الضرائب سواء من جانب دافعى الضرائب أو المندوبين أو الإداريين أو حتى الدوقات أنفسهم ، وقد بلغت هذه العقوبات حد الغرامة المالية أو النفى أو مصادرة الأملاك أو التعذيب حتى الموت [٢].

ولأن مصر قد ارتبطت بروما من قبل ثم ببيزنطة بعد ذلك بأنها الممون الرئيسى لهما بالقمح الذى تعيش عليه الإمبراطورية [٣]، فقد أصبح القمح المصرى من أهم الواردات التى تورد إلى الخزانة الإمبراطورية فى روما ثم بعد ذلك فى القسطنطينية ، وأصبح الرابط الأساسى فى العلاقة بين الإمبراطورية ومصر . وأصبحت هذه الضريبة «ضريبة القمح» على رأس الضرائب. وسميت «بضريبة الميرة» أى المؤونة للجنود وإعدادهم وتزويدهم ، ومن قبلهم لحياة الشعب فى العاصمة الإمبراطورية ، وقد قررت حسب مساحة الأرض وجودتها وغلتها الانتاجية سنويا . وهذه الكمية التى خصصت للوصول إلى الخزانة الإمبراطورية عرفت «بالشحنة السعيدة» أو «الميرة المدنية»[٤] annona civica .

ولأهمية هذه الشحنة السعيدة التى إذا تأخرت عن موعد وصولها إلى العاصمة الإمبراطورية جاع أهلها وماتوا جوعا ، تقرر إعداد كل الوسائل التى تحافظ عليها ، فقد أقيمت لأجل ذلك فى الأقاليم الشون الكبيرة لتخزن فيها كمية القمح المخصصة للعاصمة الإمبراطورية، والشون الصغيرة لتخزن فيها كمية القمح المخصصة لعاصمة الإقليم ونفقاته الإدارية . وإلى جانب هذه الشون تم إقامة الإدارات الخاصة بتحصيل وتنظيم هذه الضريبة حتى وصولها إلى الاسكندرية ثم إلى القسطنطينية فتقوم السفن والقوارب عن طريق النيل ، أو على ظهور البغال والحمير برا إلى الاسكندرية حيث يتم شحنها بالسفن العظيمة إلى القسطنطينية [٥].

1- Ibid , p. 106 .

2- The Detoils in : Rovillard , op. cit .. pp. 117-120 ; Diehl , op . cit ., p. 467 .

3- Holmes , The Age of Justinian and Theodora , II , p. 483-4 .

4- Diehl , op. cit ., 469 ; Rovillard , op. cit ., pp. 125-128 .

5- Johnson , op. cit ., pp. 156-160 ; 252 - 253 ; 327 .

ولكى يضمن الإمبراطور جوستنيان وصول «الشحنة السعيدة» من القمح إلى العاصمة الإمبراطورية كاملة دون نقصان أو سوء وفى مواعيدها المحددة ، فرض إلى جانب ضريبة القمح، ضريبة أخرى تعرف «بضريبة النولون» وهى خاصة بأجور نقل القمح وقدرت بـ ١٠٪ من ثمن الشحنة، حتى يصل إلى العاصمة الإمبراطورية وتوزع أموال هذه الضريبة على قادة السفن والعاملين عليها ، حيث كان بعض القادة يقومون بالعمل على تأخير وصول هذه الشحنة إلى العاصمة بتحريض من بعض ذوى المكانة فى الدولة ، أو الإلقاء بها فى عرض البحر، أو إغراق السفن المحملة بالقمح حتى تجوع العاصمة مما يؤدى إلى إحداث الثورة ضد الأباطرة [١].

ولذلك فقد قرر الإمبراطور جوستنيان فى القانون رقم ١٣ لسنة ٥٣٨م الكثير من العقوبات الصارمة على كل من يخل بأمر هذه الضريبة فى تحصيلها وجبايتها ، أو استغلالها لصالحه أو لصالح غيره ، أو حتى تأخير جبايتها أو شحنها أو توصيلها إلى العاصمة الإمبراطورية بدءاً من عمال الجباية وعمال النقل والشحن وحتى الدوق الأوجستال [٢].

ومن الجدير بالذكر أن ربان السفينة فى النيل كان يتسلم هذه الكميات من محصلى الضرائب بإيصالات يحدد فيها الكمية [٣]. وكذلك جميع الضرائب الأخرى كان يعطى الجباة للمولين ايصالات يحدد فيها نوع الضريبة وقيمتها وتاريخ استلامها ، وكانت تكتب هذه الإيصالات وتمنح بمعرفة الموظف الحكومى فى الدومين الإمبراطورى [٤].

وتشير أوراق البردى إلى العديد من هذه الإيصالات ، فها هو إيصال على ضريبة الملابس Clothes - tax - Anabolicum ، وكانت تجمع كل ١٥ سنة، ويقر فيه الموظف المدعو Sarmates , Assistant , Apphous بأنه استلم من جزار لحوم الماعز المدعو Theon فى التحصيل الرابع أربعة عباءات لا أكثر . وقد فرضت هذه الضريبة سنة ٣٧٧ م ضمن قوانين ثيودسيوس الأول، وأصبحت بعد ذلك تدفع نقداً [٥].

1- loc . cit ., Diehl , op . cit ., p. 470 ; Rovillard , op. cit . pp. 143-147 .

2- Rovillard , op. cit ., p. 147 ; Diehl , op. cit ., p. 470 ; Johnson , op. cit ., pp. 241-243 .

٣- نفتالى لويس ، المرجع السابق، ص١٦٨ .

4- Ox., p. , VIII , pp. 233-234 .

5- Ox ., p. , VIII , p. 236 .

وإيصال يرجع إلى سنة ٥٦٢-٥٦٣ م على الضرائب أو الحقوق المستحقة على الأرض لأحد الملاك فى قرية سرابيون فى التحصيل الحادى عشر ، وقدرت هذه الضريبة بعشرين وربع كارات من الذهب [١].

وإيصال ثالث لضريبة الأموال Money taxes فى القرنين الخامس والسادس الميلادين ، ويوضح الإيصال أن هذه الضريبة كانت تدفع لمصلحة الكنيسة ولذا فرضت على العامة والخاصة وكذلك السكندريين ، أى على جميع سكان الولاية المصرية ، وتقدر بمبلغ ١٢ صولدى، وأقل من ٥١ كارات [٢].

وإيصال رابع لضريبة الخمور فى القرن الرابع ، ومحدد فيه الفئات المفروض عليها هذه الضريبة وهم بائعى الخضروات وعمال الحديد والنحاس وبائعى الجعة والخبازين وبائعى الزيوت والنجارين ، ويرجع تاريخ الإيصال إلى سنة ٣٢٢ م، وتقدر هذه الضريبة بثلاثة آلاف دراخمة[٣]. وقد كانت هذه الضريبة تدفع عينا فى القرن الثالث الميلادى ، وتفرض فقط على تجار الخمور وزارعى المواد الخمرية بمقدار ١٠ Jars من الخمر ومثلهم من الخل [٤].

وكذلك ضريبة الرأس كان يمنح الفرد إيصال بالمبلغ الذى دفعه للجابى ، وهذا واضح من خلال خطاب أحد الأشخاص إلى أخته يطلب منها تسجيل اسمه فى الإحصاء من أجل ضريبة الرأس ، وأنه سيرسل إليها الأموال اللازمة لدفع الضريبة ، على أن تحصل على إيصال من الجابى [٥].

وعلى أية حال فإن عملية جباية الضرائب لم تكن تتم فى هدوء وسلام، ففضلا عن كثرة الضرائب وقسوتها التى أرهقت كاهل الشعب ، فقد عانى الناس الكثير من قسوة وتعسف الجباة الذين استخدموا أعنف الوسائل فى ابتزاز الناس وكذلك فى طريقة المعاملة مع هؤلاء الناس ، هذا منذ العصر الرومانى وحتى نهاية العصر البيزنطى. فقد أرهقت الضرائب كاهل

1- Ox., p. , VIII , pp. 236-8 .

2- Ox ., p., VIII , pp. 237-8 .

3- Ox ., p. , VIII , pp. 238-9 .

4- Ox ., p. VIII , p. 240 .

5- Ox., p. , VIII , pp. 259-60 .

المصريين حتى تركوا أراضيهم وبلادهم هربا من قسوة هذه الضرائب ، ومعاملة الجباة القاسية لهم ، فيقول فيلو الفيلسوف اليهودى السكندرى : أن هؤلاء الجباة كانوا لايتورعون حتى عن الحجز على جثة الشخص طالما عليه ضرائب، وحتى الأولاد والزوجات والأقارب كان يزج بهم إلى السجن ويسامون أشد العذاب حتى يرشدون عن مكان اختفاء أحد الهاربين ، مما أدى إلى أن أقفرت بلادبأسرها من السكان الذين فروا وتركوها خرابا [١].

وعلى لسان جباة الضرائب ما يصدق ذلك ويوضحه : «إن سكان القرى ، بعد أن كانوا كثرة ، قل عددهم حتى غدوا حفنة من الأفراد، لأن البعض لاذوا بالفرار ، لانقطاع مواردهم ، والبعض الآخر ماتوا دون أن يتركوا أقارب»[٢].

وفى ذلك يقول بل[٣] : إن تاريخ مصر الرومانية قصة محزنة من قصص الاستغلال الذى يدل على قصر النظر وينتهى حتما بالانهيار الاقتصادى والاجتماعى ، ولم يكن سبب ذلك أن الأباطرة كانوا يضمرون لمصر نوايا سيئة ، فكثيرا ما حذروا المسئولين من مغبة ابتزاز أموال الأهالى. وقد قيل إن الإمبراطور «تيبريوس» قد عنف واليا أرسل إليه حاصل الضريبة زائداً عن النصاب السنوى، ... وذكره بأنه إنما ولى على مصر ليجز صوفها لا ليسلخ جلدها . غير أن النوايا الحسنة كانت عديمة الجدوى طالما كانت الحكومة متمسكة بنظريتها الأصلية وهى أن مصر بقرة ينبغى حلبها لصالح روما. وليس ثمة شك فى أن البقرة كانت حلوبا ، ولكن روما دأبت على استدرار لبنها حتى استنفزته ». وما ينطبق على موقف روما من مصر ينطبق بالتالى على بيزنطة فقد كانت استمرارا لنفس السياسة ونفس الهدف .

وقد جاء فى إحدى البرديات وصف لما قام به موظف كبير. بهدف جباية الضريبة : «فقد غزا القرية بعصابة من الجنود سلكو مسلك قطاع الطرق كما يقول مقدمو الشكوى . فعاملوا النساء بعنف وغزوا دير الراهبات ، وسدوا قناة الرى التى تأتى بماء النيل حتى أن الأرض بقيت قاحلة وضاع ما كان يؤمل من محصول . وقبض على بعض سكان القرية واقتيدوا من سجن إلى آخر ، وأسيئت معاملتهم وابتزت أموالهم ، وانتزعت ماشيتهم بل ثيابهم [٤].

١- محمد نور فرحات ، المرجع السابق، ص٣٤٢ .

٢- نفس المرجع والصفحة .

٣- مصر من الاسكندرية ، ص١٢٧

٤- محمد نور فرحات ، المرجع السابق، ص٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ج١٦ .

ويرجع هذا التسعف وهذا الظلم إلى أن نظام تحصيل الضرائب كان يعطى لمن يدفع أكثر للحكومة الإمبراطورية ، ولذا كان على محصل الضرائب استخدام كافة الوسائل لاستثمار هذا التحصيل ، والحصول على أعلى ربح ممكن من وظيفته وتعويض ما دفعه أضعافا مضاعفة ، خاصة وأن مجموعة من الجنود والحراس المسلحين كانوا يرافقونه أثناء التحصيل لحمايته [١]. وكان لهذا عواقبه الوخيمة على الحكم البيزنطى، فقد أدى إلى نفور الشعب المصرى من الإدارة البيزنطية ، والنزعة إلى الاستقلال، والانفصال النهائى سياسيا ودينيا ، وساعد المصريين على ذلك موقف الرهبان ورجال الكنيسة السكندرية من أباطرة وبطاركة بيزنطة . وتجلى هذا فى موقف المصريين من الغزو الفارسى لمصر ، ثم الفتح العربى الإسلامى، فقد رحبوا بهذه الأحداث ولم يعارضوها ، بل كانوا أدلاء للفاتحين المسلمين .

١- نفتالى لويس ، المرجع السابق، ص١٦١ .

الفصل الخامس

« المجتمـــع »

السكان- الطبقات الاجتماعية- عوامل تمايز مدينة الإسكندرية - النشاط الاقتصادى : الصناعات- النشاط التجارى والطرق التجارية العالمية - الصادرات والواردات- النقابات - الأعياد والاحتفالات - مظاهر الترف والثراء- الحياة العلمية والفكرية- موقف الأقباط من الغزو الفارسى والفتح العربى الإسلامى- عوامل تدهور الحكم البيزنطى فى مصر - الفتح العربى الإسلامى.

ولأن مدينة الاسكندرية كانت حاضرة الإقليم المصرى، ولأنها كانت المركز الحضارى والفنى والفكرى والتجارى لوجود الميناء والسوق ، والجامعة والآثار العريقة، فقد سكنها خليط من الأجناس المختلفة الذين بلغوا فى العصر البيزنطى ، وبالتحديد فى القرن السادس الميلادى حوالى ٦٠٠ ألف نسمة [(١)].

وتتمثل هذه الجنسيات فى :

١- **اليونانيين** : والذين كان لهم السلطان والحظوة ، وهم الأرستقراطيون الأغنياء ، واختير منهم أعضاء السناتو بالإسكندرية [(٢)]. وهؤلاء اليونانيون أو الاغريق كما كان يطلق عليهم قد أتوا مع الإسكندر الأكبر منذ تأسيس مدينة الاسكندرية فى القرن الرابع قبل الميلاد، كما جاءوا للتجارة والخدمة فى الجيش واستقروا فى المدن الأربع وعلى رأسها الإسكندرية . وقد تمتع هؤلاء الإغريق بكثير من الامتيازات مثل : الإعفاء من ضريبة الرأس ، وشراء الأراضى المعروضة للبيع على حين يُحرم منها المصريين أصحاب البلاد، كما أعفيت أراضيهم الواقعة داخل حدود المدينة من الضرائب ، وأعفوا كذلك من الخدمة العامة أو السخرة Lei-turgia [(٣)].

1- Diehl , Op. cit ., p. 480 .

2- Loc. cit .

٣- نفتالى لويس ، المرجع السابق، ص٢٥ ، ٢٧ .

٢- **اليهود** : وهم جالية كبيرة بالمدينة ، واشتغلوا بالتجارة وبنوك الأموال [١]. ويرجع ظهور هؤلاء اليهود فى مصر مرة ثانية بعد خروجهم مع سيدنا موسى على يد فرعون منذ منتصف القرن السادس قبل الميلاد حوالى القرنين الخامس والرابع ق.م ، فقد ذكرت البرديات وجود حامية يهودية عند الشلال الأول للنيل لحراسة حدود مصر الجنوبية، ثم بدأ توافدهم واستقرارهم فى الإسكندرية لقربها من فلسطين ، وقد أحدثوا الكثير من الشغب والثورات طوال العصر الرومانى مما عرضهم للاضطهاد والطرد من المدينة عدة مرات . كما أمر البطريرك كيرلس بطردهم وعدم دخولهم المدينة . ومن آثار تخريبهم وثوراتهم تدمير معبد الإله جوبيتر فى القدس مما دفع الأباطرة إلى فرض ضريبة عليهم لترميم هذا المعبد وبنائه عرفت «بضريبة اليهود» والتى تضاعفت أربع مرات ، وفرضت على جميع اليهود حتى العبيد والأطفال من سن الثالثة[٢].

٣- **المصريين** : وهم أهل البلاد الأصليين ، والنواة الأساسية لسكان المدينة، وكانوا يتحدثون اللغة القبطية تعبيرا عن قوميتهم [٣]. وعرف هؤلاء المصريون بأنهم الفئات الأخرى من غير الرومان أو الإغريق أو اليهود ، وكانوا فى نظر الإدارة الإمبراطورية أقل شأنا من كل هؤلاء ، وفرضت عليهم الضرائب العديدة وعلى رأسها ضريبة الخدمة العامة أو السخرة [٤].

٤- وقد أقام فى الاسكندرية وغيرها من المدن الأخرى العديد من الأجناس الأخرى الذين جاءوا بغرض التجارة أو العلم مثل السوريين والأثيوبيين والعرب والفرس والهنود [٥].

وقد عمل الأباطرة البيزنطيون على استتباب الأمن فى المدينة حاضرة الإقليم ومقر الوالى الأوجستال ، فقرروا «الجراية من القمح» لسكان المدينة وتصرف لهم سنويا، وقد ذكرنا أنه قد خُصِصَ حصة من ضريبة القمح لمدينة الاسكندرية . كما قام الأباطرة بالانفاق على الحمامات والمرافق العامة ومساعدة المحتاجين من قبل الحكومة الإمبراطورية [٦].

1- Diehl , Op. cit ., p. 481 .

٢- نفتالى لويس ، المرجع السابق، ص٢٨-٣١ .

3- Diehl , Op. cit ., 481 .

٤- نفتالى لويس ، المرجع السابق، ص٣١ - ٣٥ .

5- Diehl , Op. cit ., p. 282 .

٦- العرينى ، مصر البيزنطية ، ص٢٥٣-٢٥٥ .

وانقسم هؤلاء السكان إلى طبقات اجتماعية تمثلت فى :

١- طبقة الأغنياء أو الأرستقراطية المدنية : وتكونت هذه الطبقة من كبار التجار وأصحاب المصارف ، ومن الأسرات العريقة من النبلاء المحليين ، وكبار الملاك، وقد تم اختيار أعضاء السناتو وكبار الموظفين من أبناء هذه الطبقة ، ولذا فقد كانوا أكثر ارتباطا بالحكومة البيزنطية المركزية فى الاسكندرية والقسطنطينية [1].

٢- الطبقة الارستقراطية الكنسية : وتتكون من رجال الدين الأغنياء ، وعلى رأسهم بطريرك الإسكندرية الذى كان يحوز الكثير من الأموال والأملاك خارج مدينة الاسكندرية عن طريق الهبات والمنح التى تهبها الحكومة وتمنحها الكنيسة حتى أصبحت الكنيسة من أغنى الهيئات فى مصر ، لدرجة أن أصبح لها أسطولا خاصا يتكون من أكثر من ٣٠٠ سفينة تجوب البحار، كما اكتظت خزانة الكنيسة بالأموال من جراء التجارة حتى أن الحكومة البيزنطية كانت تلجأ إلى الاستدانة من الخزانة الكنسية المصرية وقت الضرورة وخاصة لدفع الجزية للفرس. وقد قدمت الكنيسة للشعب المسيحى فى مصر الكثير من الحسنات المالية فقد تكفلت بالإنفاق على أكثر من ٧٥٠٠ من الفقراء سواء من أهل مدينة الإسكندرية أو خارجها ، كما وزعت الرواتب على كل من يقصد بابا البطريرك طلبا للمساعدة المالية سواء كان فى حاجة إلى ذلك من عدمه [2].

ومما يجعلنا نركز فى دراسة الحياة الاجتماعية فى مصر فى العصر البيزنطى على مدينة الإسكندرية أنها تمايزت فى ذلك الوقت بالعديد من المميزات عن غيرها من مدن مصر . فقد كانت مركزا نشطا ومزدهراً للتجارة بين الشرق والغرب . كما أنها مركزا فكريا وعلميا وفنيا وأدبيا مزدهراً لوجود المكتبة والمتحف والمدارس سواء الوثنية أو المسيحية . هذا فضلا عن أنها تميزت بعظمتها وفخامتها بفضل وقوعها على ميناءين، ميناء خارجى على البحر المتوسط ، وميناء داخلى على بحيرة مريوط . والتقسيم الهندسى البديع لعمارتها من شوارع فسيحة

1- Diehl , Op. cit ., p. 283 .

2- Diehl , Op. cit ., p. 283 .

وكذلك وجدت الطبقة الوسطى من الموظفين الإداريين أصحاب الوظائف الصغرى فى الأقاليم، والطبقة الدنيا من عامة الشعب من المزارعين والحرفيين. زبيدة عطا ، المرجع السابق، ص٧٨ .

مستقيمة ، ودور من عدة طبقات تعلوها أبراج شاهقة . وآثار جميلة وأسوار منيعة وحدائق غناء . وفى شرق المدينة يقع قصر ملوك البطالمة ، والذى أصبح قصر الوالى الرومانى ثم داراً للأوجستال البيزنطى ، وهذا القصر يشرف على الميناء . كما يوجد الشارع التجارى الرئيسى الذى يقطع المدينة من الشرق إلى الغرب ، ومدرسة الجمباز ، والدكاكين التى يتألف منها السوق[١] . وقوس النصر ذى الأبواب الأربعة العالية فى وسط المدينة وأمام قصر الوالى . والملعب وميدان السابق خارج الباب الشرقى، ودور اللهو والمسارح والحمامات العامة، والكنائس والأديرة العديدة التى ملأت المدينة ، وفضلا عن ذلك فقد وجد مظهراً حضاريا أثار دهشة المشاهدين والسكان تمثل فى الصهاريج المقامة على أعمدة تحت الأرض كما كان فى عاصمة الإمبراطورية [٢]. أى أن الإسكندرية بآثارها وفكرها وفخامتها كانت صورة ثانية لعاصمة الإمبراطورية البيزنطية .

وفى واقع الأمر لقد انتشرت الطرز الإغريقية الفنية المعمارية فى كافة مدن مصر فى ذلك الوقت ، ففى مدينة الشيخ عبادة «أنطونيوبوليس» شارعان رئيسيان أحدهما يقطع المدينة من الشمال إلى الجنوب ، والآخر من الشرق إلى الغرب ، وعندما تقاطع هذين الطريقين قام السوق Agora الذى أحاطت به الأعمدة الدورية الشكل. ويلغ أقصى عرض للطريق عشرين مترا ، كما انتهى كل طريق ببوابة عظيمة . وانقسمت المدينة إلى أحياء ، وانقسم كل حى إلى عدد من الوحدات السكنية التى بنيت من الطوب اللبن ، أما المعابد والمنشآت العامة فبنيت من الحجارة [٣].

ولقد ازدهرت مدن مصر آنذاك بالنشاط الاقتصادى التجارى والصناعى ، وخاصة مدينة الاسكندرية التى أصبحت مركزاً صناعيًا وتجاريا حيويا حتى أصبح لايعيش فيها عاطل[٤]. ويروى لنا أحد المؤرخين نصا يوضح الحياة الصناعية فى مدينة الاسكندرية قائلا : «إنها مدينة غنية تتمتع بالثراء والرخاء ، ولايوجد بها عاطل عن العمل، فالبعض يعمل فى صناعة

1- Diehl , Op. cit., pp. 479-80 .

2- Diehl , Manuel d'Art Byzantin , Paris . 1910 . p. 60 .

٣- زبيدة عطا ، المرجع السابق، ص٢٨ .

4- Johnson , Economic Studies , p. 100 .

الزجاج، وآخرون يعملون فى صناعة أوراق البردى، وكثيرون يعملون فى صناعة النسيج أو فى أية صناعة أو حرفة أخرى، حتى أصحاب العاهات من العجزة والخصيان والعميان كان له عمل، وحتى من فقدوا أيديهم لايقضون حياتهم عاطلين هناك»[١].

ومن الصناعات التى اشتهرت بها مصر آنذاك وتركزت فى معظمها فى مدينة الإسكندرية ، صناعة البردى، فقد ظلت الإسكندرية حتى الفتح العربى الإسلامى مركزاً رئيسيا لاحتكار أوراق البردى وتصديره إلى أنحاء العالم [٢]. وصناعة الأحجار الكريمة وتهذيبها وصقلها بالمجوهرات والعقيق وصناعة الأطباق من الفضة والتى كانت تصدر إلى القسطنطينية بصفة خاصة[٣] . هذا فضلا عن صناعة الزجاج والأوانى الزجاجية التى اشتهرت بها مصر ، فقد كان يجلب الرمل اللازم لصناعة ، ومن شهرته تأثر صناع الزجاج فى غالة به حتى أصبحت المؤثرات الإسكندرانية واضحة هناك [٤].

وصناعة الأوانى الفخارية التى كانت تستخدم محليا ، وكانت هذه القوارير تحمل نقوشا دينية متأثرة بالظروف والحياة الدينية آنذاك ، كما اتخذت هذه الأوانى صوراً وأشكالا مختلفة، ولشهرتها وازدهارها أضاف جوستنيان فى القانون رقم ١٣ لسنة ٥٣٨م «ضريبة الأوانى الفخارية» إلى موارد البلاد [٥]. وقد تأثر المسلمون بهذه الصناعة بعد الفتح العربى الإسلامى لمصر[٦].

١- محمد نور فرحات ، المرجع السابق، ص٣٣٩ .

٢- العرينى ، المرجع السابق، ص٢٥٨ ؛ العبادى المرجع السابق، ص٣٢٥ . 2- Johnson , Op. cit ., p. 130 ;

٣- زبيدة عطا، المرجع السابق، ص٧٢ . 3- Johnson , Op. cit ., p. 131 ;

٤- زبيدة عطا ، المرجع السابق، ص٧٢ ؛ 4- Johnson , Op. cit ., p. 110 ;
وإن كان أحد المؤرخين يذكر أن الزجاج المصرى فى ذلك الوقت كان أقل جودة من الزجاج فى البلاد الأجنبية، العبادى، المرجع السابق، ص٣٢٤ ، كيف ذلك وقد تأثرت به المصانع الأوروبية .

5- Johnson , Op. cit., pp . 113-116 .

٦- العرينى ، مصر البيزنطية ، ص٢٥٩ .

وبرع المصريون واشتهروا فى صناعة المنسوجات الصوفية والحريرية والكتانية وتطريزها ، وقد تأثر المصريون فى زركشة المنسوجات بالفن السورى، والساسانى الفارسى. وقد اشتهرت هذه الصناعات فى الأديرة إلى جانب المصانع الحكومية ، وقد قام لهؤلاء العمال «نقابة» تجمعهم وتقوم على خدماتهم ، وضمت إليهم صناع الأدوات الجلدية والخياطين والأساكفة [١].

وتشير أوراق البردى إلى ازدهار صناعة النسيج والفخار فى بلاد الصعيد حيث وجدت المصانع الخاصة بذلك وورش النجارة فى مدينة «اكسيرنخوس» ، ومدينة «الأشمونيين» أو «هرموبوليس» [٢]. ومن المنسوجات العظيمة التى اشتهرت بها مصانع النسيج فى بلاد الصعيد «القباطى» نسبة إلى الأقباط ، والتى أرسل منها «المقوقس» عشرون ثوبا هدية للرسول صلى الله عليه وسلم مع «مارية القبطية»[٣] . وبالتالى فقد عرفت مصر صباغة المنسوجات واشتهرت بها [٤].

ولم تكن الصناعات المعدنية من الذهب والفضة والحلى والنحاس وكافة المعادن، وعملية تطعيم الذهب والفضة بالأحجار الكريمة والعقيق، وكذلك الصناعات الخزفية والقيشانى والودع وصناعة العاج بغائبة عن أذهان وبراعة الصناع المصريين فقد برعوا فى كل هذه الصناعات[٥].

أما صناعة الأدوية والعقاقير والعطور ، فقد حاز المصريون فيها شهرة زائعة ، وحصلوا على أرباح وفيرة منها ، خاصة وأن الأعشاب التى كانت تزرع فى طيبة والواحات ، وكذلك الأعشاب التى ترد إليهم من الهند والصين ، قد استخدموها فى هذه الصناعة بعد إضافتها بالعديد من المواد الحيوانية والنباتية والمعدنية التى عرفوا أسرارها [٦]. ويبدو أنه كان لرجال الدين الكنسيين والرهبان يد فى هذه الصناعات الطبية، فقد برع الكهنة فى العصر الفرعونى فى الأمور الطبية من قبل، ولايزال لرجال الدين تدخل إلى حد ما فى مثل هذه الأمور .

1- Johnson, Op. cit . pp. 119-125 ; العرينى ، المرجع السابق، ص٣٢٦ .

٢- زبيدة عطا ، المرجع السابق، ص٢٥ .

٣- نفس المرجع ، ص٣٢ .

٤- نفس المرجع ، ص٧٠ .

5- Johnson , Op. cit ., p. 154 ; زبيدة عطا ، المرجع السابق، ص٧١ ، ٧٢ .

6- Diehl , L'Egypte Chaetimne , p. 486 .

وفى النصف الثانى من القرن السادس عرفت الاسكندرية وطيبة صناعة الحرير واشتهرت به. فمن المعروف لدينا أن الصين قد اشتهرت بصناعة وتجارة الحرير واحتكرته لإحتفاظها بسر هذه الصناعة ، وقد عرف الطريق البرى بين الصين وبيزنطة والمار بباكستان وجنوب روسيا بطريق الحرير بناء على ذلك[١] .

وعندما اعتلى الإمبراطور جوستنيان العرش أراد تفادى المرور بالأراضى الفارسية العدو اللدود لبيزنطة ، فأعد الطريق التجارى عبر أسيا الصغرى إلى الشرق الأقصى[٢] ، وحاول السيطرة عليه للوصول إلى سر هذه الصناعة «صناعة الحرير» . وفى سنة ٥٥١م أو سنة ٥٥٢م وصل إلى بيزنطة بعض الأساقفة الأسيويين ومعهم بعض من بيض دود القز «الحرير» التى تنتج الحرير، مما جعل سر هذه الصناعة الذى احتفظت به الصين لنفسها طوال القرون الماضية ، ينتقل من الصين إلى بيزنطة ، ثم انتشرت صناعة الحرير إلى الكثير من أقاليم الإمبراطورية فى الإسكندرية وطيبة وبيروت وسوريا وصيدا وصور وأنطاكية وأصبحت هذه المناطق مراكزاً صناعية كبرى فى العالم ، وأصبحت الإمبراطورية البيزنطية مركزاً أساسيا لتوريد الحرير إلى كافة أنحاء العالم فى الشرق والغرب [٣]. مما أنعش الاقتصاد البيزنطى آنذاك ، وأصبح تجار الحرير البيزنطيين من أغنى تجار العالم [٤].

وفى جانب التجارة ، فقد احتلت مصر مركزا تجاريا عظيما ، سواء كانت التجارة الداخلية أو الخارجية . فقد كانت التجارة الداخلية تتم عن طريق النيل ، أو عن طريق الدواب فى المناطق التى يصعب السير فيها فى النيل ، ويتم الانتقال من الصحراء إلى البحر الأحمر عن طريق العربات ذات العجلات . وقد فُرض على ذلك مكوس وضرائب مما أدر دخلا كبيرا على الخزانة الحكومية ، كما أقيمت نقاطا للمراقبة على الطرق التجارة [٥]. وقد انتشرت الأسواق

1- Rice , Byzantium , London , 1969 , p. 46 .

2- Thorndike , Hist . Medieval Empire , p. 104 .

3- Holmes , Op. cit ., II ; p. 753 ; Vasiliev , History of Byzantine Empire , I , Madison , 1928 , p. 204 ; Jones , Op. cit ., p. 316 ; Thorndik, Op,.cit ., p. 104 ; Rice , Op. cit ., p. 47 .

4- Vasiliev , Op. cit ., I , p. 204 .

٥- زبيدة عطا ، المرجع السابق، ص٦٤ .

فى كافة المدن القرى داخل الأقاليم للاستهلاك المحلى للحاصلات الزراعية وكذلك المصنوعات المصرية .

وكانت مدينة الاسكندرية قبلة التجار من كافة أنحاء العالم فى الشرق والغرب . ومن كافة الجنسيات ، كما أصبحت الوسيط التجارى بين الشرق والغرب بفضل موقعها الجغرافى على البحر المتوسط ، وسهولة الاتصال بينها وبين الموانئ العالمية . فارتبطت مصر بعلاقاتها التجارية مع بلاد العرب وأفريقيا وبلاد المغرب وأوربا وبلاد الهند والصين . «وقد تضاعفت التجارة بين مصر والهند بسبب اكتشاف الرياح الموسمية ، وماترتب عليه من تقصير المدة التى تستغرقها السفن المصرية فى الوصول إلى الهند »[١].

وعن الازدهار التجارى فى مدينة الاسكندرية ، والأموال الضخمة التى حصلت عليها مصر من جراء النشاط التجارى والتجارة يقول سترابو : «إن الاسكندرية أكبر مركز تجارى فى العالم بأسره » و «لئن كان دخل مصر السنوى فى الماضى هو ١٢,٥٠٠ ثالنت، فترى كم يصل دخلها الآن ، حينما أصبحت تدير شئونها بعناية فائقة ، وحينما زادت التجارة مع الهند والصومال زيادة كبيرة . فلم تزد السفن التى كانت تسير فى البحر الأحمر ولم تتعد خليج العرب عن عشرين سفينة . أما الآن فإن الأساطيل الكبيرة تسير إلى الهند وإلى أقصى حدود أثيوبيا ، ومن هناك تعود محملة بأغلى البضائع إلى مصر . ثم توزع من مصر إلى سائر البلاد. وهكذا تجنى مصر ضريبة مزدوجة على البضائع حين ترد إليها وحين تصدر منها »[٢].
ومن الملاحظ أن المؤرخ «سترابو» يتحدث عن وضع مصر التجارى فى العصر الرومانى ، ونجده يتحدث عن هذا الازدهار الاقتصادى بفخامة ، وهذا قبل العصر البيزنطى وقبل الاصلاحات الضخمة التى جرت بالموانى ونقاط المراقبة وإدخال نظام الجمارك ، واهتمامات الأباطرة البيزنطية بالاسكندرية كميناء له أهميته الخاصة ، وخاصة أنها الطريق المؤدى إلى الهند عن طريق البحر الأحمر ، فيا ترى كم كان الإزدهار والنشاط التجارى فى مصر بعد كل هذا فى العصر البيزنطى .

١- محمد نور فرحات ، المرجع السابق ، ص٣٣٩ .

٢- محمد نور فرحات ، المرجع السابق، ص٣٤٠ .

فقد حقق تجار الاسكندرية مركزا مرموقا فى التجارة العالمية ، كما حققوا ثروات طائلة وقوة كبيرة ، حيث احتلت الأساطيل المصرية المركز الأول فى تجارة البحر المتوسط. ومن الأدلة الواضحة على أن أساطيل مصر كانت تجوب البحر المتوسط فى علاقاتها التجارية مع القسطنطينية وروما ، أن القديس «جيروم» سنة ٤٠٢م يخاطب الروما بقوله : «وها أنا مرة ثانية مع عودة الربيع أغنيكم من سلع الشرق وأرسل خزائن الإسكندرية إلى روما »[١].

ولم تقتصر التجارة المصرية على السفن الحكومية ، بل كانت تنافسها فى هذا المجال السفن الكنسية . فقد امتلكت كنيسة الإسكندرية أسطولا ضخما جاب البحار بين مصر وأوربا وجزر المتوسط إلى جانب التجارة الداخلية فى النيل [٢].

ومن الجدير بالذكر أن مدينة الإسكندرية قد أصبحت الوسيط التجارى بين الشرق والغرب ، ولم يعد تجار الشرق الأقصى بحاجة إلى الذهاب إلى أوربا وكذلك لم يعد تجار أوربا فى حاجة إلى الذهاب إلى الشرق الأقصى ، فأصبحت منتجات الطرفين فى أسواق الاسكندرية ووفرت هذا الجهد على كل منهما، وذلك يرجع إلى أن الطرق التجارية البحرية والبرية بين الاسكندرية وبلاد الغرب والغرب سهلة للغاية ، وخاصة الطرق التجارية بين الاسكندرية أفريقيا والهند والصين ، والتى تمثلت فى :

أولا : طريق البحر الأحمر : أ - الساحل الشرقى للبحر الأحمر والمعروف بطريق عدن: فعلى رأس البحر الأحمر تقع ثلاثة مراكز تجارية هامة ، وهى آيلة ، والقلزم ، وتيران . وتعتبر القلزم أهم هذه المراكز التجارية المصرية، وكانت أكبر ميناء على البحر الأحمر ، وتقع فى الطرف الشمالى الغربى منه بالقرب من موضع السويس الحالية. ومن هذا الميناء ارتحل التجار المصريون فارتادوا الاقاليم التى تقع على شاطئ البحر الأحمر ، فمنها يبدأ الطريق الذى يمتد على الساحل الشرقى للبحر الأحمر وينتهى إلى عدن بجنوب بلاد اليمن وسلكه التجار إلى بلاد حمير ، يلتمسون البخور وخيار شنبر التى جلبها الصوماليون ، فضلا عن عود الند والمر والعطور من اليمن [٣].

١- العبادى، المرجع السابق، ص٣٢٦-٣٢٧ .

٢- العرينى ، مصر البيزنطية ، ص٢٦٣ .

3- Diehl , L'Egypt Chrétienne , p. 486 .

وكان ميناء القلزم أيضا ميناء استقبال لكل السفن الآتية من الهند والصين عن طريق اليمن فالبحر الأحمر والتى ترسو فى هذا الميناء ، وفى آيلة ومنها تنتقل شحنات السفن إلى فلسطين وسوريا [١].

ب- الساحل الغربى للبحر الأحمر والمعروف بطريق عدال : أما الطريق الممتد على الساحل الغربى للبحر الأحمر فإنه ينتهى عند عدال Adalus أهم موانى الأحباش حيث حصل التجار على كل ما يرد من داخل أفريقيا من السلع كالبخور والتوابل والسنامكى والعاج والزمرد من بلاد الصومال والبليميين وأثيوبيا ، والذهب من أقصى بلاد ساسو الذى جلبته قوافل إكسوم مقابل الملح والحديد والرقيق، بل إن التجار المصريين قد أوغلوا إلى أبعد من ذلك ، فعدال تعتبر مركزاً جرى منه الاتصال بشرق آسيا وإيران عن طريق الخليج العربى ، ثم بجزيرة «تابروبان» أى سيلان الحالية والتى تقع فى أقصى جنوب الهند ، وتعتبر أكبر مستودع لتجارة الشرق [٢].

وفى جزيرة تيران Jotabe أقيمت نقطة للرسوم الجمركية والمكوس . وكانت البضائع يتم نقلها من القلزم على ظهور الجمال إلى البحر المتوسط ، أو بطريق القناة التى حفرت منذ القدم ثم فى عصر البطالمة للربط بين نهر النيل والبحر الأحمر ، والتى تم حفرها بعد ذلك فى عهد الخليفة «عمر بن الخطاب» فى ولاية «عمرو بن العاص» وسميت بخليج أمير المؤمنين[٣].

وكذلك ميناء رأس بناس Bérénice حيث كانت بضائع الهند تفرغ فيه، وظل يعمل حتى القرن الرابع الميلادى، وتأخذ طريق البر إلى طيبة ومنها على نهر النيل فالاسكندرية فالبحر المتوسط إلى بلاد اليونان [٤].

١- هايد، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، جـ١ ، ترجمة أحمد محمد رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥ ، ص٢٣ .

2- Johnson , Op. cit ., pp. 137-145 .

٣- هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى، جـ١ ، ص٢٤ .

٤- نفس المرجع والصفحة .

ثانيا : طريق وسط اسيا : ويبدأ هذا الطريق من الصين والهند من وسط آسيا، ثم يحاذى الساحل الشمالى لبحر قزوين ، وينتهى إلى بحر آزوف أو القرم حيث مدينتى بسفور وخرسون[١].

ثالثا : طريق الحرير : وهو الطريق الممتد من الحدود الصينية عبر أواسط آسيا حتى مدينة القسطنطينية وله ثلاثة طرق فرعية : ١- من الصين فصحراء جوبى ثم واحة خاميل أو هامى Hami Khamil ايجو Igou ، ويقطع طريق الشمال الجبال المجاورة لبحيرة برقول Barkoul ويجتاز نهر دزونجارى Dzoungari، ويمس بنواحى بحيرة بلخاس حيث ديار قبيلة «الأوجوريك تاى لو Ouigourque de Thie-le ثم مقر الخان الأعظم لقبيلة طوكيو ، ثم يمتد غربا فيصل إلى مدينة تلاس Talas على نهر تلاس ثم نهر سارداريا فى الشمال Syrdaria «باجزارات Iaxarte» أو سيمون ، ثم إلى بيزنطة . وهذا هو طريق الشمال [٢].

٢- أما طريق الوسط فيمتد جنوبا بمحاذاة جبال سيان شان Thian - Chan ويمر بمورفان ، وكاراشان وكوتشن ، ويجتاز خانق تريك Terek الجبلى غربى الكاشفار Kaschgar، ثم يتجه إلى إقليم فرغانة Feghâ وأوسروشنال Osrounchnal مارا بسمرقند وبخارى «بلاد الصغد القديمة» ، ثم ينحرف صوب الجنوب الغربى ويجتاز ميرف Merv حتى يصل إلى بلاد فارس ثم إلى بيزنطة [٣].

٣- وأما الطريق الثالث فهو طريق الجنوب من الإمبراطورية التركية ، جنوب غربى بحيرة لوب Lop حتى مملكتى خوتان ويرقند Yarkand ، ثم يجتاز هضاب البامير Pamiar المرتفعة، وإقليمى باداقشان Badakschan، وتوخارستان Tokharestan ويصل إلى الهند عبر ممر باميان Bamian ومدينة غزنة Gazna بأفغانستان [٤].

١- هايد، نفس المرجع، جـ١ ، ص٢٤ .

٢- نفس المرجع والجزء ، ص٢٧ .

٣- نفس المرجع والجزء ، ص٢٧ ، ٢٨ .

٤- هايد ، المرجع السابق، جـ١ ، ص٢٨ ؛ C. M. H. , II , p. 40 .

وعلى أية حال فلم تكن التجارة البيزنطية مع الهند والصين مباشرة بسبب سيطرة الفرس على الطرق التجارية الموصلة إلى الشرق الأقصى ، واحتكارهم البضائع الشرقية فى جزيرة سيلان[١] . ولذلك حاول جوستنيان كسر احتكار الفرس لهذه التجارة الشرقية وسيطرتها على الطرق التجارية ، فقام بمحاولة لتمهيد الطريق التجارى البرى عبر البحر الأسود للوصول إلى بخارى ثم بلاد الهند والصين دون الدخول فى الأراضى الفارسية وشجع التجار الروس الشاميين الوصول عبر هذا الطريق . كما قام بعقد اتفاقية البحر الأحمر ، ولكن قوة التجار الفرس وسيطرتهم واحتكارهم للتجارة فى سيلان حالت دون تحقيق هذا الهدف فلم يستطع الأحباش وعرب الجنوب كسر هذا الاحتكار [٢]. مما جعل جوستنيان يلجأ إلى السلم مع الفرس[٣] . مع اللجوء إلى تحديد سعر الحرير وإجبار التجار على قبول تعريفة جمركية مما أدى إلى وقوع خسارة كبيرة للتجار الفرس واللبنانيين الأفراد[٤]. وبالتالى أدى ذلك إلى ازدهار التجارة البيزنطية مما جعل العملة البيزنطية المعروفة بالنوميزما والصولدى Nomisma & Solidus تنتشر وتصبح متداولة بين التجار فى سيلان [٥].

وقد اشتهرت مصر بتصدير القمح فى المقام الأول وخاصة إلى بيزنطة ، ثم الكتان والبردى والروائح والعطور والأدوية والزجاج والمنسوجات إلى كافة أنحاء العالم الكائن آنذاك . وقامت باستيراد المعادن والخمور والحرير ، والعطور والتوابل التى تصنع محليا ثم تصدر بعد تصنيعها[٦]. كما جلبوا الأخشاب التى تستخدم فى بناء وصناعة السفن من بلاد الشام . فالازدهار التجارى الذى أتى من وجود الطرق التجارية والموانى فى مصر وسهولة الاتصال بين

1- Ostrogorsky , Op. cit., p. 74 ; Vasilieve, Op. cit., I , p. 199 .

2- Ostrogorsky Op. cit ., p. 75 , Vasiliev , Op. cit., I , p. 201 ; Loutchenko , Op. cit ., pp. 76-8 ; Jones, Op. cit, p. 310 ; أسد رستم ، الروم ، جـ١ ، ص١٧٦ ، ١٧٧ .

C. M. H . , II , p. 41 ; Lamb , Constantinople , New York , 1957 , p. 250 .

3- Ostrogorsky , Op. cit., p. 75 ; C. M. H . , II , p. 42 .

٤- أسد رستم ، المرجع السابق، جـ١ ، ص١٧٧ . C. M. H ., II , p. 41 .

5- Vasiliev , Op. cit ., I , p. 202 .

٦- العبادى ، المرجع السابق، ص٣٢٧ ، ٣٢٨ .

مصر والعالم حتم وجود صناعة السفن التى نشطت وازدهرت فى العصر البيزنطى سواء السفن التجارية الحكومية أو الكنسية أو الأفراد، فبنيت لها المصانع فى الاسكندرية ، سواء السفن التجارية أو الحربية ، وعرفت هذه السفن «بالبوارج» و«الطرادات» وكانت البارجة الواحدة ضخمة لدرجة أنها كانت تحمل ألف رجل والصغيرة منها تحمل ١٠٠ رجل ، كما جهزت بآلات القذف المعروفة «بالنار الإغريقية». وبرع المصريون فى هذه الصناعة فيقول بتلر :[١] «أن صناعة بناء السفن كانت عظيمة فى الإسكندرية فى النصف الأول من من القرن السابع ، وأنها لم تضمحل عندما انتهى أمر الدولة البيزنطية فى مصر . وفى هذا ما يدل على أن الصانع القبطى فى هذه الصناعة وفى غيرها من الصناعات الكبرى فى وادى النيل كان مستقلا بنفسه بغير إرشاد ولاتسيير من الروم إذا لم تقل إنه كان فى الحقيقة الصانع المعلم ».

وعلى الرغم من أن الأباطرة البيزنطيين قد تركوا التجارة حرة فى أيدى التجار المصريين مع الحفاظ على حقوق الدولة من الضرائب والمكوس وضريبة القمح، إلا أنهم تدخلوا فى تحديد الأسعار وتنظيم الاستيراد والتصدير للحد من جشع التجار ، وهذا واضح من خلال بيان أصدره أحد الأباطرة يقول فيه : «إن هذا البيان العالمى سيصبح بمثابة ضابط بين المشترين والتجار الذين يزورون الموانى والولايات الأجنبية عادة، فحين يعلمون أنه عندما ترتفع الأسعار لايستطيعون أن يتعدوا الأسعار المقررة للسلع . فيجب حسبان المسافات ونفقات الشحن وغير ذلك عند البيع حتى تتضح عدالة بياننا حين يمنع كل من تحدثه نفسه بتصدير السلع إلى أماكن أخرى ليبيع بأسعار أكثر ارتفاعا »[٢].

كما نظمت الإمبراطورية التجار وأصحاب الصناعات فى نقابات تخضع لإشرافها من خلال حامياتها المتواجدة فى الأقاليم ، وقد ارتبطت هذه النقابات بضريبة القمح لكى تضمن السلطات الإمبراطورية وصولها فى المواعيد المحددة إلى القسطنطينية وبكمياتها المحددة دون نقصان ، فتشكلت نقابات التجار، ونقابة ملاك السفن ، والخبازين، وتجار القمح ، وكل النقابات التى تتصل بالميرة الحربية ، والصناعات ، وقد اختير أعضاء هذه النقابات من بين أعضاء مجلس الشورى الأثرياء [١].

١- فتح العرب لمصر ، جـ١ ، ترجمة محمد فريد أبو حديد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٩ ، ص١٠٠-١٠٢ .

٢- العبادى، المرجع السابق، ص٣٢٨-٣٣١ .

٣- زبيدة عطا، المرجع السابق، ص٦٢ -٦٤ .

وقد قام أعضاء النقابات بتنظيم أعمال النقابة ، وسد ما على أفراد النقابة من ضرائب تجاه الحكومة ، ولذلك كانوا مسئولين أمام الإدارة الحكومية عن كل ما يخص النقابة . وقل بلغت أهمية هؤلاء النقباء فى الدفاع عن حقوق أفراد نقاباتهم فى الوقوف فى وجه جباة الضرائب والبجاركة ، وحمايتهم من تعسف واضطهاد هؤلاء الناس. وبلغت بهم الأمور فى النهاية إلى القيام بتحصيل الضرائب بأنفسهم وتوريدها إلى الموظفين الحكوميين حتى لايتعسفوا مع أفراد النقابة أو يتعرضوا لهم بسوء [1].

ولقد جعل النشاط الاقتصادى مدينة الاسكندرية مدينة الترف والثراء ، وأدى ذلك إلى ازدياد اهتمام سكان المدينة بالاحتفالات والأعياد ، وشاع فيها العبث والمجون ، فقد وجه كلمنت السكندرى النقد الشديد إلى نساء الاسكندرية «لاشتداد ميلهن إلى استخدام المساحيق، ومايتزعن إليه من ارتداء المنسوجات الحريرية ، والثياب الموشاة بالذهب ، والثياب ذات الذيول الطويلة ، التى تهدئ من المسيد وتبدو وكأنما تكنس الأرض . كما اتخذن من الثياب القصيرة ما يكشف عن الركبة ، كالتى اتخذها فتيات اسبرطة ، وما اتخذنه من الأحذية التى انطبع على نعالها عبارات الحب التى تثير الأفكار الشهوانية . واشتد كلمنت فى لوم النساء ، لما يبدين من عناية واهتمام بشعورهن وصباغتها ، وكان اللون الأصهب هو المستحب عندهن ، كما اتخذن الشعر المستعار وحرصن على أن يجعلن من شعورهن تراكيب هندسية بالغة التعقيد، وأمعن فى المحافظة عليها، وبلغ من شدة خوفهن على اتلافها وإفساد نظامها ، أنهن لم يجرؤن على المسير إلا فى خور شديد ، ولم يستسلمن للنعاس .

كما أنكر كلمنت على الحلاق ما دأب عليه من التفنن فى إجراء الضفائر المثيرة التى شغف النساء بها ، ومن الطبيعى أن يلجأ إلى تزيين الوجه فيطلين الخدود، ويزمجن باطن جفون عيونهن بخط من السواد، ويتعطرن بالزيوت والأدهان والعطور، واتخاذ الحلى والأثواب الدقيقة التطريز [2].

وفضلا عن هذا المظهر المدنى الذى يدل دلالة واضحة على الترف والثراء ، فقد اهتم المصريون اهتماما بالغا بالاحتفالات فى المناسبات الدينية التى أقيمت فى الكنائس والأديرة

1- Johnson , Op. cit., pp. 151-154 .

٢- العرينى، مصر البيزنطية، ص٢٦٦-٢٦٧ .

فى مناسبات أعياد السيدة العذراء والقديسين والعظماء من رجال الدين ، والتى أشرف عليها رجال الدين أنفسهم [١].

كما اهتم المصريون كذلك بالتردد على المسارح ، والجمنازيوم لمشاهدة سباقات الخيل والمصارعة ، وبعد اختفاء دور الجمنازيوم فى العصر المسيحى بدأ التردد على الحمامات العامة التى اهتموا بتزيينها وإمدادها بالماء الساخن وغرف البخار . كما أقيمت الاحتفالات للزفاف ، والتنصيب فى الوظائف ، وأعدوا فيها المأكولات المختلفة مع المبالغة فى محتوياتها من العسل والشطائر والنبيذ والسمك المملح والزيت النقى وغير ذلك من اللحوم بأصنافها الشهية [٢].

لقد كانت مدينة الإسكندرية مركزا للعلم والأدب والفكر منذ تأسيسها على يد الإسكندر الأكبر فى القرن الرابع قبل الميلاد لوجود المكتبة والمتحف . وظلت كذلك حتى جاءت المسيحية وانتشرت فى مصر بفضل «القديس مرقص» أحد حوارى السيد المسيح عليه السلام، فتم إنشاء المدرسة المسيحية التبشيرية didascalée لتعليم الأطفال عظمة الرب، وكان رئيسها «بانتين Panténe» الرواقى والذى كان أستاذاً لكلمنت وأوريجين السكندريين[٣].

وكان للتعليم فى مصر البيزنطية أهمية عظمى، وخاصة عند العناصر الإغريقية والمتأغرقة، وكذلك أفراد الطبقة الأرستقراطية المصرية، وقد اهتمت الطبقة الوسطى كذلك بالتعليم للحصول على الوظائف الإدارية [٤].

وتمثلت مراحل التعليم فى أن يرسل التلاميذ فى المرحلة الأولى إلى المدارس أو إلى مدرسين يعيشون على ما يدفعه لهم التلاميذ ، وكانوا لايستقرون فى مكان واحد بل يتنقلون حيث يوجد عدد مناسب من التلاميذ . وكان هؤلاء المدرسون لايشترط فيهم التخرج من المعاهد، بل يشترط فيهم حسن السمعة وإجادة المادة التى يقومون بتدريسها . ويبدأ التعليم فى هذه المرحلة بتعليم القراءة والكتابة ومبادئ اللغة والنحو والرياضيات وبعض التاريخ والجغرافيا . وكانت

١- زبيدة عطا، المرجع السابق، ص٨٢ .

٢- نفس المرجع ، ص٨٠ ، ٨١ .

3- Simon , J., Histoire de L'Ecole d' Alexandrie , Paris, 1845 , Tome, I , pp. 150-1 .

٤- زبيدة عطا، المرجع السابق، ص٩٥ .

الكتب الرئيسية فى التعليم تتمثل فى الإلياذة لهوميروس ، وخطب شيشرون ونماذج من الشعر اليونانى والرومانى ، والحكم الأخلاقية . وفى العصر المسيحى أى بعد اعتراف قسطنطين بالديانة المسيحية كديانة شرعية فى مرسوم ميلانو سنة ٣١٣ م حلت الأناجيل وشروح الآباء القديسين محل هذه الكتب الدراسية . واستخدم البردى والرق والألواح الخشبية والمكسوة بالشمع فى الكتابة عليها [١].

وكان يشرف على التعليم عدد من المدرسين ، وموظف يلقب بشرف التعليم . Kosmetes وبعد أن ينتهى الطالب من التعليم الأولى يذهب إلى مدينة الاسكندرية ويلحق بمعهدها Mousaion . [٢] وقد كان للمتحف السكندرى أهميته فى العصر الرومانى وقبل انتشار المسيحية ، وبانتشار الديانة المسيحية ، وانتشار المدارس المسيحية وكثرتها سواء فى الإسكندرية أو غيرها من مدن الإمبراطورية البيزنطية تدهورت أحوال المتحف ولم يصبح له أهمية فكرية [٣]. وكذلك السيرابيوم الذى كان داراً للفكر الفلسفى الوثنى ، والذى وفد إليه الطلاب من جميع أنحاء العالم ، ومن أشهر أساتذته الفيلسوفة الوثنية «هيباشيا» التى قتلها المسيحيون سنة ٤١٥ م فى كنيسة القيصريون [٤].

وفى المتحف والسيرابيوم وجدت المكتبة المركز الثقافى فى الإسكندرية وفى مصر بأكملها[٥]. وقد حوت هذه المكتبة العديد من الكتب والمؤلفات الوثنية ، مما دفع الأسقف ثيوفيلوس سنة ٣٩١م أن يقوم بتدمير هذه المكتبة وإشعال النيران فيها والقضاء عليها تماما. وهذا دليل قاطع على براءة المسلمين من الاتهام الذى وقع عليهم بأنهم قد حرقوا هذه المكتبة أثناء الفتح وحصار الإكسندرية ، فالمكتبة لم تكن موجودة آنذاك [٦]. وفضلا عن مكتبة

١- زبيدة عطا، المرجع السابق، ص٩٥ .

٢- نفس المرجع ، ص٩٦ .

3- The Details in Matter , Op. cit ., pp. 315-331 .

4- Loc . cit .

5- Parson , E. A., The Alexandrian Library, London , 1952 , pp. 367-8 .

٦- العبادى، المرجع السابق، ص٣٥٢ ، ٣٥٣ .

الاسكندرية فقد وجدت مكتبات مثيلة ولكن بصورة مصغرة فى الأقاليم وبلاط الولاة والحكام[١].

ولأن الدين الرسمى للإمبراطورية البيزنطية كان الدين المسيحى منذ «مجمع القسطنطينية الأول سنة ٣٨١م» وإقرار الإمبراطور ثيودسيوس الأول بذلك، فقد أصبح التعليم فى مصر يكاد ينحصر فى الدين المسيحى والدراسات اللاهوتية ، ولذلك ظهر «الأدب الدينى القبطى» متمثلا فى تدوين سير الآباء والقديسين مثل القديس «مينا» وسير آباء الصحراء مثل «سيرة القديس أنطونيوس» التى سجلها أثناسيوس. وتدوين الأناجيل والأناشيد المقدسة ، والمجادلات العقائدية التى دارت بين أريوس وأثناسيوس[٢].

وقد كُتبَ هذا الأدب باللغة القبطية تعبيرا عن الشعور القومى المصرى، ورفض كل ما هو يونانى. هذا فضلا عن أن الأديب المصرى قد تناول الأساطير المصرية القديمة مع إضفاء المعانى الصوفية عليها كأسطورة إيزيس وأوزوريس . وظهر «أدب العظات والحكمة» وهو عبارة عن مواعظ تتعلق بالأمور الدينية . وتناولوا أعمال الغنوصين بالنقد والتفنيد . وإن كان هذا الأدب قد جاء فى لغة ركيكة حيث كان معظم رجال الدين من الكنسيين والرهبان على ثقافة بسيطة ، فإنه يعبر عن مفاهيم وأفكار عامة الشعب المصرى وتأثره بالديانة المسيحية [٣].

وفى جامعة الاسكندرية التى ذاع صيتها فى كل مكان ، وهرع إليها الطلاب من سائر أنحاء الشرق من فلسطين وسوريا الصغرى، وغيرها ليدرسوا على يد الأساتذة الذين عرفوا «بالسفسطائيين» الذين يقومون بتعليم القانون والطب والفلك والعلوم الرياضية والنحو والبلاغة والفلسفة والمنطق.

وارتبطت معظم هذه العلوم وخاصة الفلسفة والمنطق بالفكر اللاهوتى، وانصرف فريق من الطلاب إلى دراسة ونقد النصوص القديمة التى لقيت اهتمام كبيراً وقد ظهر فى القرن الخامس من النحويين «ثيودوت الاسكندرى»، ومن رجال المعاجم «أوريون»، ومن الشراح «هزيكيوس»

١- زبيدة عطا، المرجع السابق، ص٩٧ .

٢- العبادى ، المرجع السابق، ص٣٤٧-٣٤٩ .

٣- زبيدة عطا ، المرجع السابق، ص١٠٤-١٠٧ .

و«هيلاديوس» . وتولى فريق آخر تدريس نظريات الأفلاطونية الحديثة مثل «هيباشيا» ، وقد حظى أرسطو بالعناية والاهتمام كما حظى أفلاطون[١].

وعلى رأس هؤلاء الذين اشتغلوا بالفلسفة والنحو واللاهوت «حنا فيلوبونس» ، الذى شغف بأرسطو وشرح فلسفته ، كما قام بشرح «الايساغوجى» الذى ألفه «بورفيروس الصورى» ، وله تعليقات على تدريس علم المنطق ، كما له تصانيف فى قواعد اللغة اليونانية والعلوم الرياضية . وقد اشتهر بالتفكير الحر العقلانى والاستدلال المنطقى ، فقد حاول فى رسائله الميتافيزيقية عن «خلق العالم» و «خلود العالم» أن يوفق بين آراء أرسطو وبين الكتب والعقائد المسيحية ، وقد هاجم فى كتاباته الوثنية والأفلاطونيين أتباع الأفلاطونية الحديثة ، وكذلك أصحاب مذهب الطبيعتين . ومن مؤلفاته كتاب «الحكم» وكتاب «البعث» . وعندما حاول تطبيق طرق الفلسفة القديمة فى الدفاع عن نظرية الثالوث سنة ٥٦٣ م أتُهِمَ بالبدعة [٢].

وقد سار «أسطفان المسيحى» على نهج سلفه «فيلوبونس» فى استخدام الفلسفة فى شرح وتفسير الأمور الدينية ، وعندما حاول أن يثبت عن طريق الفلسفة ضعف العقيدة المونوفيزيقية «الطبيعة الواحدة» أنكر عليه أهل الأسكندرية والبطريرك ذلك مما دفعه إلى التحول بعقيدته إلى مذهب الطبيعتين وهجر الاسكندرية ذاتها [٣].

ومن الشعراء الذين ظهروا واشتهروا فى العصر البيزنطى فى مصر «نونوس» وهو من «أخميم» Panapolis، عاش فى القرن الخامس الميلادى، وكتب تفسيرا لإنجيل القديس يوحنا ، وهو من شعراء الملاحم ، نظم ملحمة طويلة عن ديونيسوس تسمى Dionysiaca يصف فيها رحلة هذا الإله الموفقة إلى الهند . وهذه الملحمة ذخيرة قيمة من الأساطير تدل على سعة إطلاعه وثقافته ، وإن كان طول الملحمة يبعث على السأم ، إلا أن أوزان شعره تمتاز بالدقة بالمقارنة مع من سبقه من الشعراء[٤]. وفى نفس المدينة ونفس العصر ظهر الشاعر كيرس [٥].

1- Diehl , L'Egypte, p. 491 ; O'Leary , How the Greeks Science Passed to the Arabs, London , 1951 , p. 92 .

2- Diehl , L'Egypte Chrétienne , p. 492 ; بتلر ، المرجع السابق، جـ١ ، ص٨٣ .

3- Hardy , B. R., Christian Egypt , New York , 1952 , p. 162 .

٤- بل، المرجع السابق، ص١٩٠ ، ج٢ .

5- Jones , Op. cit ., p. 353 .

وكثيرا من العلماء الذين تخرجوا من جامعة الإسكندرية وعلى رأسهم بطليموس السكندرى ، ونيوقريطس الأدباوى، والمؤرخ أوليميوس الطيبى وغيرهم [١].

وفى الاسكندرية كانت مدرسة الطب كعبة للطلاب من أنحاء العالم، وقد برع فى الطب الكثير مثل «القس هارون» و «سرجيوس» اللذين كانا فقهاء فى الطريق وعلماء فى الطب ، وكتبت كتب الطب التى خلفها هارون القس السكندرى باللغة السريانية وقد ارتبط علم الطب بالدين المسيحى حيث تذكر كتب الطب المتخلفة عن ذلك العصر شفاء بعض الأمراض بالمعجزات [٢].

وفى هذه الجامعة العريقة ظهر أيضا علماء الفلك والرياضيات وعلم الميكانيكا «علم الحيل» كما كان يطلق عليه. وقد برع الرهبان فى صحراوات مصر فى علم النجوم واستقراء ما فى الغيب، واشتهروا بذلك مما جعل الكثير من الملوك والحكام يرسلون إليهم فى كثير من الأحيان للتنبؤ بما فى الغيب وعلى رأس هؤلاء العلماء الذى خلف لنا كتابا فى علم الفلك «اسطفان السكندرى» [٣].

وقد تجلت الحياة المصرية القبطية فى فنون الزخرفة والتصوير والنحت وتطريز المنسوجات «الطنافس» ، حيث ظهرت براعة الفنان المصرى الذى صور من خلال هذه الفنون الأبهة والترف والثراء الذى كانت عليه مصر فى العصر البيزنطى، كما صور الحياة الدينية المسيحية من خلال الأيقونات وتماثيل وصور السيد المسيح والسيدة العذراء والآباء القديسين وآباء الصحراء على جدران الكنائس والأديرة والكتب والمخطوطات . كما تجلت فى هذه الفنون الروح القومية المصرية التى تعبر عن كل ما هو قبطى ، وإن كانت قد تأثرت من الناحية الفنية العملية فقط بالفن الفارسى والفنون الهيللينية . وانتشر هذا الفن القبطى وشاع فى أنحاء العالم وخاصة فى بيزنطة [٤].

1- Loc. cit .

٢- بتلر ، المرجع السابق، جـ١ ، ص٨٣ ، ٨٧ .

٣- نفس المرجع ، ص٩٠ ، ٩١ .

4- Diehl , Manual d'Art Byzantine , pp. 67-86 ; أنظر التفصيلات والأمثلة لهذه الفنون فى : بتلر ، المرجع السابق، جـ١ ، ص٩٢ - ١٠٠

وفى نهاية المطاف نقول أن مصر لم تصبح بيزنطية رغم خضوعها للحكم البيزنطى أكثر من ثلاثة قرون ونصف ، فمن البداية عبرت عن شخصيتها وقوميتها المصرية فى موقف الكنيسة السكندرية المصرية ومناهضتها لكنيسة بيزنطة وانتهى الأمر بالانشقاق النهائى فى مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م باعتناق المصريين لمذهب الطبيعة الواحدة «المونوفيزتية» اليعقوبى ، ورفضهم لمذهب الطبيعتين «الملكانى» الذى اعتنقته كنيسة القسطنطينية ، وأقره مجمع خلقدونية ، وقد عبرت الكنيسة المصرية ، عن موقفها وإنشغالها بالغاء اللغة اليونانية ، واستخدام اللغة القبطية القومية .

كما كان الموقف الإدارى والتعسف فى جباية الضرائب والظلم الذى وقع على المصريين عاملا قويا فى كراهية المصريين للحكم البيزنطى ورفضهم لكل ما هو يونانى والرغبة الدائمة فى الانفصال والاستقلال السياسى إلى جانب الاستقلال الدينى، مما عرضهم إلى الوقوع تحت طائلة الاضطهادات الدينية- السياسية ، والتى وصلت إلى قمتها فى عصر هرقل و بيد كيرس المعروف بالمقوقس كبير القبط فى مصر وفى نفس الوقت قد بلغت الكراهية المصرية للحكم البيزنطى إلى الذروة حتى كانت النهاية لهذا الحكم .

ويظهر هذا الموقف المصرى القومى تجاه الحكم واضحا إبان الغزو الفارسى لمصر سنة ٦١٦م، سنة ٦١٧ م ، فلم يبد المصريون أية مقاومة أمام هذا الغزو رغم تيقنهم من أن الفرس ليسوا رمزاً للخلاص ، ورغم تيقنهم أيضا أن الغزو الفارسى سيأتى معه الخراب والتدمير . ولذلك فقد عامل الفرس المصريين «المونوفيزيتيين» أثناء مدة تواجدهم فى مصر وهى عشر سنوات «٦١٧-٦٢٧» بنوع من التسامح ، وأبقوا على البطريركية السكندرية وبطريركها «مودستوس» ثم «بنيامين» [١].

وأثناء الفتح العربى الإسلامى لمصر سنة ٦٤١م ازداد الموقف المصرى من الحكم البيزنطى وضوحا ، فقد طفح الكيل ، ووصلت البغضاء والكراهية لهذا الحكم إلى الحلقوم، ولذا فقد وجدوا فى الفتح العربى الإسلامى لمصر الخلاص والنجاة من هذا الحكم البيزنطى البغيض ، فوقفوا منه موقف التخاذل والاستسلام ولم يبدوا أية مقاومة ، بل انضموا إلى القوات

١- بتلر ، المرجع السابق، جـ١ ، ص٦٢-٨٢ .

الإسلامية ضد الروم ، وأصبحوا أدلاء ومرشدين لهم، وقتلوا كل من لاقوه من الجند والروم ، ودخل الكثير منهم فى الإسلام قبل إتمام الفتح ، وعندما تم الفتح واستقر الحكم الإسلامى تحولت مصر بأكملها إلى الإسلام . ووقف عمرو بن العاص موقفا نبيلا مع هؤلاء الأقباط فحافظ على كنائسهم وزراريهم ، وعاد البطريرك «بنيامين» الذى كان هاربا لفترة طويلة فى الصحراء من جراء الاضطهادات التى أنزلها «كيرس» ممثل السلطة الإمبراطورية البيزنطية فى مصر بالمونوفيزيتية[1].

عوامل تدهور الحكم البيزنطى فى مصر :

منذ سقوط مصر تحت حكم الرومان بعد موقعة اكتيوم ، وقد بدأت عوامل التذمر والسخط تدب فى قلوب المصريين الذين أصبحوا تابعين بعد أن كانوا أصحاب دولة مستقلة لها سيادتها فى الداخل والخارج . وبمرور الوقت أخذت عوامل الضعف والتدهور تنخر فى جسد هذا الحكم الرومانى ومن بعده الحكم البيزنطى فى مصر، فقد تضافرت العوامل السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية لتعلن الثورة ضد هذا الحكم وضد هذا الاحتلال الغاشم الذى استمر ستة قرون كاملة من ٣٠ق.م وحتى ٦٤١م. فقد أدرك المصريون أنهم مصدر استغلال ما جانب روما ثم بيزنطة حيث كان الرابط والعلاقة الأساسية بين الطرفين أن مصر أصبحت الممول الرئيسى للقمح الذى تعيش عليه روما ثم بيزنطة ، وأيضا مصدر ابتزاز للمال الذى جمع من جراء الضرائب الباهظة التى فرضت على المصريين بكافة أنواعها وملئت بها خزائن روما ثم بيزنطة من بعد .

وعلى أية حال فقد لعب رجال الدين من الكنسة والرهبان دوراً كبيراً فى العمل على تدهور السلطة البيزنطية فى مصر من خلال الدين، وبرزت الشخصية المصرية والقومية المصرية من خلال آباء الصحراء ورجال الكنيسة الذين عبروا عن قوميتهم ومقتهم للحكم البيزنطى منذ عام ٣٢٥م ، وكان التعبير الحقيقى عن هذه القومية فى مجمع خلقدونية سنة ٤٥١م والانفصال التام عن كنيسة القسطنطينية .

١- أنظر التفصيلات فى : بتلر ، المرجع السابق، جـ١ ، ص٢٤٠-٢٥٩ .

وعلى هذا نستطيع القول بأن العوامل المذهبية الدينية كانت على رأس عوامل تدهور السلطة البيزنطية فى مصر ، فقد ظهرت القومية المصرية من خلال رجال الدين وخاصة الرهبان الذين قادوا الكثير من الثورات ، والذين كان يخشاهم الأباطرة والولاة ، والذين تمسكوا بعقيدتهم المونوفيزيتية ولم يحيدوا عنها رغم الاضطهادات العنيفة والقاسية ، وخاصة التى جاءت على يد «قيرس» المقوقس عظيم القبط فى مصر والذى جاء من قبل هرقل ليفرض عليهم العودة إلى حظيرة الأرثوذكسية الخلقدونية البيزنطية عن طريق مذهب «التوفيق المونوثيليتى» ، وخيرهم إما الانضمام أو الاضطهاد فاختاروا الاضطهاد والثبات على عقيدتهم بدلا من النعيم الإمبراطورى والتحول إلى الخلقدونية [1].

وقد عبر رجال الدين عن قوميتهم وقومية المصريين بإلغاء استخدام اللغة اليونانية سواء فى الكنائس أو بين العامة ، وأحلوا محلها اللغة القبطية . ليس هذا فحسب ولكنهم ازدروا كل ما هو يونانى أو يتعلق بالحضارة اليونانية [2].

هذا فضلا عن أن الرهبان قد أصبحوا من كبار الملاك ، فقد امتلكت الأديرة كل مايحيط بها من أراضى واتسعت أملاكها ، وتمتع هؤلاء الرهبان بالإعفاء من الضرائب كما تمتعوا أيضا بامتياز الجباية الذاتية مما أضاع على الدولة الكثير من الأموال التى كانت تدخل الخزانة الإمبراطورية من الضرائب . كما أصبحت الأديرة مركز الاستقبال الهاربين من الضرائب ومن عسف وظلم الحكومة والجباة [3].

ورغم أن الضرائب كانت كثيرة ومتعددة ، إلا أن الخزينة الإمبراطورية قد أصابها الإفلاس والتدهور فعندما ثقلت وطأة الضرائب على صغار الملاك والضعفاء ولم تصبح الأرض تغل ما يكفى لسد هذه الضرائب فتركوا الأرض وفروا إلى الأديرة أو إلى أعمال أخرى . كما كانوا يلجأون إلى مناوءة جباة الضرائب والامتناع عن أداء ما عليهم من التزامات وضرائب ، أو يلجأون إلى الدخول فى حماية كبار الملاك والتنازل عن أراضيهم فى مقابل أن يدفع هذا المالك

١- قد سبق الحديث عن هذه الأوضاع فى مواضع كثيرة من الكتاب ، من خلال النزاع الدينى بين الكنائس أو الاضطهادات البيزنطية لرجال الدين .

٢- بل، المرجع السابق، ص١٩١ ؛ العرينى، مصر البيزنطية ، ص٣٣١ .

٣- العرينى ، مصر ، ص٣٢٧ .

الكبير ما على الأرض من ضرائب . ومما زاد الطين بلة أن هؤلاء الملاك الكبار قد تمتعوا بالجباية الذاتية وأصبحوا شبه ملوك فى إقطاعاتهم وليس للإدارة المركزية سلطان عليهم مما أضاع الكثير من الأموال على خزانة الدولة [١].

ومما زاد من كراهية المصريين للحكم البيزنطى، وعدم الولاء ، ومحاولة الاستقلال السياسة التى اتبعها الولاة والحكام والموظفين معهم سواء كانوا جباة الضرائب، أو الشدة فى قمع الاضطرابات والثورات ، أو الظلم فى توزيع الضرائب وعدم العدالة فيها[٢]. حتى حامى المدينة defensor - ekdikos الذى تم تعيينه لحماية الفقراء من بطش الأغنياء ، ويصبح لهم كالأب ، أصبح تابعا للكبار النبلاء ، واشترك معهم فى قهر الضعفاء وابتزازهم[٣]

وفضلا عن هذا كله فإن الموظفين الذين علق عليهم الأباطرة الآمال فى إصلاح الأحوال الإدارية فى البلاد اتسموا بكل ما هو مشين من الطباع والأخلاق مثل الجشع وابتزاز الأموال والاختلاس وتكوين الثروات الخاصة على حساب المصلحة العامة ومصلحة الدولة ، وخاصة وأنهم كانوا من الارستقراطية سواء فى بيزنطة أو فى مصر ، وتولوا مناصب الدوقات والبجاركة ورؤساء الأبروشيات وغير ذلك . كما أن تركز السلطتين المدنية والعسكرية فى يد الأوجسطال فى مصر زاد من سلطته وسطوته وأصبح له مطلق الحرية والتصرف فى كل شئ مما أثر ذلك على سلطة الحكومة البيزنطية وقلل من شأنها [٤].

ومما زاد من التفتت وخاصة منذ أواخر عهد جوستنيان إيجاد اثنين من البطاركة فى بطريركية الإسكندرية أحدهما «ملكانى» جاء من قبل الإمبراطور، والآخر «مونوفيزيتى» أقامه الأقباط بطريركا لهم، مما أحدث التفتت فى وحدة رجال الدين ، وزاد من نفور الأقباط ، وازدرائهم للسلطة البيزنطية [٥].

١- العرينى ، نفس المرجع السابق ، ص٣٢٣-٣٣٠ .

٢- العرينى، المرجع السابق ، ص٣٤٩-٣٦٢ .

٣- بل، المرجع السابق، ص١٨٨ .

٤- العرينى، مصر ، ص٣٤٠-٣٤٩ .

٥- أنظر تفاصيل ذلك فى بتلر : المرجع السابق، ص٤٤ وما بعدها ؛ الحويرى ، مصر فى العصور الوسطى ، ص٤٨-٥٠ .

وحتى الجيش البيزنطى فى مصر لم يكن يزيد عن ٣٠,٠٠٠ جندى ، وكانت تتملكه النزاعات والعدوات الشخصية بين القادة ، وفى غير وحدة وانسجام ، حيث كان يخضع لقيادة خمسة من القادة كلهم على قدم المساواة فى الرتبة ، ويخضعون جميعا لقيادة «سيد جند الشرق Majester Militum per Orientem فى القسطنطينية . وتمثلت مهام هذا الجيش فى مساعدة الموظفين فى أعمالهم ، والقضاء على قطاع الطرق ، وإخماد الثورات الدينية والاشتراك فى جباية الضرائب. ومما لايغفل ذكره أن الدولة البيزنطية قامت فى آخر الأمر بتجنيد المصريين بعد أن كان ممنوعا قبل ذلك ، أو كانوا يجندون إما بالاقتراع أو بالتطوع أو بالوراثة ، وكان يسمح لهم بالاشتغال بالزراعة أو التجارة ، والعمل بالقرب من موطنهم [١]. وهذا يدل على أن عدم الوحدة فى الجيش . وعدم وجود قيادة عليا واحدة له فى مصر أدى إلى عدم قيام هؤلاء الجنود بالمهام العسكرية على أكمل وجه .

الفتح العربى الإسلامى لمصر :-

انطلق العرب الفاتحون بخيولهم من شبه الجزيرة العربية شرقا وغربا بيد تحمل القرآن الكريم والأخرى تحمل السلاح ، بهدف نشر الدين الإسلامى الجديد فى العالم الكائن آنذاك . وقد انتصروا على كل من فارس والروم فى بلاد العراق وبلاد الشام. وعندما تم فتح بيت المقدس نظروا إلى ناحية هامة وخاصة بالأمن القومى وتتمثل فى فتح مصر. حيث إن موقعها الجغرافى الاستيراتيجى يمثل خطورة على بلاد العرب طالما ظلت فى يد البيزنطيين . فأصبح من المحتم عليهم ضرورة فتحها والاستيلاء عليها بغرض تأمين فتوحاتهم فى بلاد الشام[٢]. ومن ناحية أخرى توحيد شبه الجزيرة العربية تحت لواء الإسلام وتخليصها من التدخل الفارسى الرومى[٣]. من خلال تحقيق الهدف الأساسى للفتوحات الإسلامية بنشر الإسلام فى بلدان الإمبراطورية البيزنطية ، إلى جانب حرمان بيزنطة من حصة القمح التى كانت تأتى إليها من مصر[٤].

١- سيدة الكاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، ص١٠ .

٢- سيدة الكاشف ، المرجع السابق، ص١٤ .

٣- سيدة الكاشف وآخرون، تاريخ مصر الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣ ، ص٢٤ .

٤- الحويرى، مصر فى العصور الوسطى، ص٦٠ .

أما ما زعمه المؤرخون الغربيون والمستشرقون ومن لف لفهم ودار فى دائرتهم بتفسير هذه الفتوحات لأغراض اقتصادية فهو زعم مردود وافتراء مدحوض ، فيقول توماس أرنولد[1] ، «إن حركة التوسع العربى على أصح تقدير هجرة جماعة نشيطة قوية البأس دفعها الجوع والحرمان إلى أن تهجر صحاريها المجدبة ، وتجتاح بلاد أكثر خصبا كانت ملكا لجيران أسعد منهم حظا. وإن الحماسة الدينية ، وبواعث العقيدة لم تكن تسربت إلا قليلا فى نفوس أبطال الجيوش العربية». ويشاركه فى مثل هذا القول وإن كان لاينفى الدافع أو الحماس الدينى أيدريس بل[2] فيقول : «وبعد موت محمد واجهت أبوبكر، أول الخلفاء الراشدين ثورة نشبت بين بعض القبائل ، ولكنه استطاع أن يخمدها ، ولم يمض زمن طويل حتى كانت كل الجزيرة العربية قد خضعت لسلطان الخليفة ، وأصبحت قبائلها المعروفة بشدة المراس وحب القتال مهيأة، وقد التهبت حماسا بالدين الجديد الذى يحث على الجهاد ، للتوسع خارج حدود بلادها التى لم تعد مواردها الضئيلة كافية لسد حاجات أعدادها المتزايدة ».

وعلى أية حال، فعندما انتهى المسلمون من فتح بلاد الشام وتم الاستيلاء على بيت المقدس وحضر الخليفة عمر بن الخطاب بنفسه لأخذ مفاتيح بيت المقدس من البطريرك «صفرونيوس» وأصبحت الأمور مستقرة هناك. عرض «عمرو بن العاص» أمر فتح مصر على الخليفة ، وأخذ يسهل له الأمور ، ويوضح له مدى الغنى والثروة التى عليها مصر، خاصة وأنه قد زارها أكثر من مرة كتاجر . فضلا عن أن الحاكم البيزنطى لبيت المقدس قد فر إلى مصر وأخذ يعد العدة هنا؛ للانقضاض على المسلمين، ولابد من مداهمته قبل استفحال أمره . وكان هذا فى «الجابية» بالقرب من دمشق سنة ٦٣٩م أثناء حصار قيسارية[3].

ووافق الخليفة عمر بن الخطاب ، وسار «عمرو بن العاص» بجيشه الذى يبلغ أربعة آلاف فارس على وجه التقريب نحو مصر ، وبلغ أرض العريش ، وعندئذ وصلته رسالة «عمر بن الخطاب» يأمره بالعودة إذا لم يكن قد تجاوز الحدود المصرية «فإذا كان قد دخل أرض مصر، فليسر على بركة الله ، ووعده بأن يدعو له الله أن ينصره ، وأن يرسل له الأمداد» ، وتشير

١- الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن ابراهيم حسن ، وآخرون ، القاهرة ، ١٩٧٠ ، ص٦٤ .

٢- مصر من الإسكندر ، ص١٩٤ .

٣- بتلر، المرجع السابق، ص١٧٢ ، ١٧٣ .

بعض الروايات إلى أن «عمرو بن العاص» قد تعمد فتح الرسالة بعد دخوله الحدود المصرية لأنه يعلم أن الخليفة لايريد تشتيت الجيوش الإسلامية ، وألايفصل بينه وبينهم بحر أو فاصل[١]. وقرأ عمرو خطاب الخليفة أمام رجال الجيش وسألهم «أنحن فى مصر أم فى الشام، فقيل له نحن فى مصر ، فقال «إذن نسير فى سبيلنا كما يأمرنا أمير المؤمنين»[٢].

وواصل الجيش الإسلامى سيره حتى وصل إلى بيلوزيوم أو القلزم «السويس حاليا» واستولوا عليها ، ثم اتجهوا نحو الجنوب الغربى محاذين الحافة الشرقية للدلتا ، وبلغوا بلبيس، ثم اقتربوا من حصن بابليون عند «تاندونياس»أو كما سماها العرب «أم دنين» مكان حديقة الأزبكية الحالية[٣]. وعندئذ أدرك البيزنطيون أن الخطر العربى قد حاق بهم، ولذلك بدأوا فى الاستعداد لملاقاة الفاتحين . وفى نفس الوقت قرر عمرو بن العاص المسير ناحية الشمال إلى الفيوم لغزوها حتى يأتيه المدد من الخليفة فى المدينة المنورة عاصمة الدولة الإسلامية ليتمكن من حصار بابليون الذى تمركزت فيه القوات البيزنطية بقيادة «كيرس» ومن معه من والى الإسكندرية وغيره من القادة . وعندما واجهت عمرو بعض الصعوبات التى منعته من فتح إقليم الفيوم عاد بجيوشه لحصار بابليون خاصة وأن الإمدادات قد أتته وتقابلوا عند هليوبوليس. وبدأ حصار بابليون ، وعندما اشتد حصار المسلمين للحصن أدرك «كيرس» أنه لامفر من سقوط الحصن فى أيدى المسلمين وأن الدبلوماسية البيزنطية تقتضى بذل المال للمسلمين حتى يرجعوا عن حصار الحصن وتبقى البلاد فى البيزنطيين ، واستقرا رأى القادة البيزنطيين على ذلك، وأرسلوا برسالتهم إلى عمرو بن العاص يقولون فيها : «إنكم قوم قد ولجتم فى بلادنا ، وألححتم على قتالنا ، وطال مقامكم فى أرضنا، وإنما أنتم عصبة يسيرة وقد أظللتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم من العدةوالسلاح ، وقد أحاط بكم هذا النيل، وإنما أنتم أسارى فى أيدينا ، فأبعثوا إلينا رجلا منكم نسمع منه كلامكم ، فلعله أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب ، وينقطع عنا وعنكم هذا القتال قبل أن تغشاكم جموع

١- ابن عبد الحكم ، فتوح مصر وأخبارها ، القاهرة ، ١٩١٤ ، ص٥٦-٥٧ .

٢- بتلر ، المرجع السابق، ص١٧٤ .

٣- ابن عبد الحكم، المصدر السابق، ص٥٩ ؛ بتلر ، المرجع السابق، ص١٧٥ ؛ سيدة الكاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، ص١١ هامش ٢ ، لنفس المؤلفة ، تاريخ مصر الإسلامية ، ص٢٦ ، هامش١١ .

الروم، فلاينفعنا الكلام ولانقدر عليه ، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفا لطلبتكم ، فابعثوا إلينا رجلا من أصحابكم نعاملهم على ما ترضى نحن وهم به من شئ »[١].

وكان رد عمرو بن العاص فى رسالته التى أرسلها إلى كيرس مع رسول من لدنه: «ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال، إما أن دخلتم فى الإسلام ، فكنتم إخواننا ، وكان لكم مالنا ، وإن أبيتم فأعطيتم الجزية عن يد وأنتم صاغرون ، وإما أن جاهدناكم بالصبر والقتال ، حتى يحكم الله بيننا ، وهو خير الحاكمين »[٢].

ولكن كيرس لم يرد مثل هذا الرد ، فطلب من «عمرو بن العاص» أن يرسل إليه أحد رجاله للتفاوض حول الصلح ، فأرسل إليه «عبادة بن الصامت» مؤكدا عليه الإصرار والثبات حول إحدى هذه الخصال الثلاث . وفى المفاوضات عرض «كيرس» فى مقابل الجلاء عن مصر «أن تفرض لكل رجل منكم دينارين ، ولأميركم دينارين ، ولخليفتكم ألف دينار ، فتقبضونها وتتصرفون إلى بلدكم» فرد عليه عبادة قائلا : «لا ورب هذه السماء، ورب هذه الأرض ، ورب كل شئ مالكم عندنا من خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم»[٣]. ولما ألح عليه كيرس فى التنازل عن هذه الخصال ، قال عبادة : «يا هذا لاتغرن نفسك ولا أصحابك . أما ما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وإنا لنقوى عليهم فلعمرى ما كان هذا بالذى تخوفنا به ... وإن كان ما قلتم حقا فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم وأشد لحرصنا عليهم، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته ، وما شئ أقر لأعيننا ولاأحب لنا من ذلك، وإنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين، إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم ، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، ولأنها أحب الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا. وإن الله عز وجل قال لنا فى كتابه «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين» وما منا رجل إلا أهله وولده ، وليس لأحد مناهم فيما خلفه وقد

١- ورد هذا النص فى : ابن عبد الحكم ، فتوح مصر ، ص٦٥ ؛ المقريزى، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جـ١ ، بولاق ، ١٢٧٠ هـ ، ص٢٨٩ ؛ بتلر ، المرجع السابق، ص٢٢٣ .

٢- ابن عبد الحكم ، المصدر السابق، ص٦٥ ؛ المقريزى ، المواعظ ، جـ١ ، ص٢٨٩ ؛ بتلر ، المرجع السابق، ص٢٢٣ ، ٢٢٤ .

٣- ابن عبد الحكم ، المصدر السابق، ٦٥-٦٨ ؛ بتلر ، المرجع السابق، ص٢٢٦ .

استودع كل واحد منا ربه أهله وولده، وإنما همنا ما أمامنا ... فانظر الذى تريد فبينه لنا فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولانجيبك إليها إلا خصلة من ثلاث ، فاختر أيتها شئت ولاتطمع نفسك فى الباطل، بذلك أمرنى الأمير وبها أمره أمير المؤمنين وهو عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من قبل إلينا [١].

ومن الملاحظ أن البيزنطيين قد رفضوا الشرط الأول وهو الدخول فى الإسلام رفضا باتا «فلن نترك دين المسيح إلى دين لانعرفه». وأما شرط الجزية فقد رفضوه فى بداية الأمر على أنهم سيصبحون عبيدا بدفعهم الجزية طبقا لتفكيرهم الأوربى «فإنا إذا أذعنا ودفعنا الجزية للمسلمين لم نعد أن نكون عبيدا وللموت خير من هذا »، ولكن عبادة بن الصامت أبان لهم بأنهم إن دفعوا الجزية أصبحوا آمنين على أنفسهم وأموالهم وذراريهم ، مسلطين فى بلادهم على ما فى أيديهم ومايتوارثونه فيما بينهم ، وحفظت لهم كنائسهم لايتعرض لهم أحد فى أمور دينهم »، وعندئذ مالت نفس كيرس إلى الصلح ، ولكن البطريرك البيزنطى والقادة البيزنطيين رفضوا الصلح[٢].

واتفق عمرو وكيرس على الصلح ، على أن يرسل كيرس إلى الإمبراطور هرقل لطلب الموافقة على هذا الصلح . وجاءت موافقة الخليفة عمر بن الخطاب أمير المؤمنين على ذلك. ولكن هرقل قد استشاط غضبا على كيرس عندما وصلته رسالته بالصلح ورغم كل المبررات التى ذكرها كيرس للإمبراطور والتى دفعته إلى قبول الصلح خاصة وأن الجيش البيزنطى فى مصر لايقوى على مواجهة الجيش الإسلامى، وأن هؤلاء الفاتحين على درجة من الإيمان تدفعهم إلى تفضيل الموت على الحياة . فقد وصفه الإمبراطور بالخيانة وطلبه للمثول بين يديه ، وأمر بنفيه وسجنه . وأصدر الإمبراطور أوامره إلى القادة فى مصر بالقتال ومقاومة المسلمين ، واستعد هو نفسه للذهاب إلى مصر ليباشر أمور القتال، ولكن الموت فاجأه ، وانتهى الأمر بسقوط الحصن فى يد المسلمين بعد حصار مرير لهبوط مياه النيل التى أثرت كثيرا على البيزنطيين ، ومساعدة المصريين للفاتحين لنقمتهم على الحكم البيزنطى عامة ، وجاءت بسالة «الزبير بن العوام» الذى تسلق أعلى الحصن ليفتح الحصن عنوة .

١- بتلر، المرجع السابق، ص٢٢٥ ، ٢٢٦ .

٢- بتلر ، نفس المرجع، ص٢٢٦ ، ٢٢٧ .

٣- نفس المرجع ، ص٢٢٧-٢٣٩ .

ويرى بتلر[١] أن حصن بابليون لم يفتح كله عنوة فإن حملة الزبير التى أدت إلى تخذيل الروم وتسليمهم ، قد أدت أيضا إلى أن يسلم أهل الحصن ويصالحوا . ولم يفعل المسلمون بمن كان بالحصن شيئا من قتل أو أذى. وأبرم الصلح عند بابليون ولم يكن إلا عهدا حربيا وليس عقداً سياسيا ، فاشترى عمرو الحصن على أن يخرجوا من غير تسليم أو دفع جزية ، أما الجزية فقد فرضت على من بقى من أهل المدينة ، وكانت ديناراً لكل جندى عربى ولباسا .

وأصبح الطريق مفتوحا أمام الجيوش الإسلامية إلى الإسكندرية ، وتحركت الجيوش متجهة إلى الشمال واستولت على البلاد الواقعة على الطريق إلى الاسكندرية . وعندما استقرت الأمور فى القسطنطينية ، وأصبح قنسطانز امبراطوراً ، أعاد كيرس من منفاه وعاد كيرس إلى مصر بعد أن أقنع الإمبراطور قنسطانز وزوجته الإمبراطورة مارتينا والسناتو البيزنطى ورجال البلاط الإمبراطورى ، برأيه فى ضرورة عدم الدخول مع العرب الفاتحين فى قتال ، وأنه لابد من الإذعان وعقد الصلح[٢].

وبدأت المفاوضات بين كيرس وعمرو بن العاص فى بابليون حول تسليم الاسكندرية فى أكتوبر سنة ٦٤١م وانتهت فى نوفمبر من نفس العام ، وانتهت بعقد الصلح بما يعرف بمعاهدة الاسكندرية والتى تنص على :

١- أن يدفع الجزية كل من دخل فى العقد .

٢- أن تعقد هدنة لنحو أحد عشر شهرا تنتهى فى أول شهر بابه القبطى الموافق للثامن والعشرين من شهر سبتمبر من سنة ٦٤٢ م .

٣-أن يبقى العرب فى مواضعهم فى مدة هذه الهدنة على أن يعتزلوا وحدهم ولايسعوا أى سعى لقتال الإسكندرية وأن يكف الروم عن القتال .

٤- أن تدخل مسلحة الإسكندرية «الحامية البيزنطية» فى البحر ويحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعا على أن من أراد الرحيل من جانب البر أن يفعل على أن يدفع كل شهر جزءاً معلوما ما بقى فى أرض مصر فى رحلته .

١- فتح العرب لمصر، جـ١ ، ص٢٤٠-٢٤١ .

٢- نفس المرجع ، ص٢٤٢-٢٦٨ .

٥- أن لايعود جيش من الروم إلى مصر أو يسعى لردها .

٦- أن يكف المسلمون على أخذ كنائس المسيحيين ولايتدخلوا فى أمورهم أى تدخل .

٧- أن يباح لليهود الإقامة فى الإسكندرية .

٨- أن يبعث الروم رهائن من قبلهم مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من غير الجند ضمانا لانفاذ العقد[١].

ومن الجدير بالملاحظة أن هذا الاتفاق قد ضمن للأقباط المحافظة على كنائسهم وصلبانهم وأملاكهم والحرية الدينية فى إقامة شعائرهم ، فقد أصبحوا «أهل الذمة» بدفعهم الجزية التى قدرت بدينارين، وأعفى منها الشيوخ والأطفال ورجال الدين والرهبان[٢].

وأصبحت مصر كلها فى يد العرب المسلمين بعد جلاء القوات البيزنطية .. ولكن الروم نقضوا العهد فى ٢٥ هـ / ٦٤٥م ، فقد أرسل الإمبراطور قنسطانز الثانى حفيد الإمبراطور هرقل أسطولا ضخما عليه قوات عسكرية ضخمة للاستيلاء على الاسكندرية وطرد المسلمين منها نهائيا ، وكان ذلك فى عهد ولاية «عبد الله بن سعد بن أبى سرح» فى خلافة «عثمان بن عفان» ، استطاع هذا الأسطول الاستيلاء على الإسكندرية والتقدم نحو داخل مصر مما جعل مركز المسلمين حرجا فى ذلك الوقت ، ولذا فقد أسرع أهل مصر من مسلمين ومسيحيين بطلب النجدة من الخليفة عثمان وأن يرسل لهم «عمراً بن العاص» لأنه على دراية وخبرة بمحاربة الروم ، وبالفعل أسرع عمرو بالحضور إلى مصر ومحاربة الروم وإجلاءهم عن الإسكندرية والاستيلاء عليها عنوة وقتل قائد الروم ، ومصالحة أهل الإسكندرية [٣].

١- بتلر، المرجع السابق، ص٢٧٧ ، ٢٧٨ .

٢- نفس المرجع ، ص٢٧٨ .

٣- ابن عبد الحكم ، المصدر السابق، ص٨٢ ومابعدها ؛ بتلر ، المرجع السابق، ص٢٧٩ .

الملاحـق

الأباطرة البيزنطيون فى العصر البيزنطى فى مصر

دقلديانوس	٢٨٤-٣٠٥م
قسطنطين الكبير	٣٠٦-٣٣٧
قنسطانز	٣٣٧-٣٥٠
قنسطنطيوس	٣٣٧-٣٦١
جوليان المرتد	٣٦١-٣٦٣
جوفيان	٣٦٣-٣٦٤
فالنز	٣٦٤-٣٧٨
ثيودسيوس الأول	٣٧٩-٣٩٥
أركاديوس	٣٩٥-٤٠٨
ثيودسيوس الثانى	٤٠٨-٤٥٠
مارقيان	٤٥٠-٤٥٧
ليو الأول	٤٥٧-٤٧٤
ليو الثانى	٤٧٤
زينون	٤٧٤-٤٩١
أناستاسيوس الأول	٤٩١-٥١٨
جستين الأول	٥١٨-٥٢٧
جستنيان الأول	٥٢٧-٥٦٥
جستين الثانى	٥٦٥-٥٧٨
تيباريوس	٥٧٨-٥٨٢
موريس	٥٨٢-٦٠٢
فوقاس	٦٠٢-٦١٠
هرقل	٦١٠-٦٤١
قنسطنطين الثالث	٦٤١

بطاركة الاسكندرية فى العصر البيزنطى

هيراقليوناس	٦٤١	
قنسطانز الثانى	٦٦٨-٦٤١	
ثيوناس	٢٨٢-٣٠٠م	
بطرس الأول	٣٠٠-٣١٠	
أخيلاس	٣١٠-٣١١	
اسكندر	٣١٢-٣٢٦	
أثناسيوس	٣٢٦-٣٢٨-٣٧٣	
بطرس الثانى	٣٧٣-٣٨٠	
تيوفيل	٣٨٤-٤١٢	
كيرلس	٤١٢-٤٤٤	
ديوسقورس	٤٤٤-٤٥٤	مونوفيزتى
بروتيريوس	٤٥١-٤٥٧	ملكانى
ثيموثاوس الثانى	٤٥٧-٤٦٠ ، ٤٧٥-٤٧٧	مونوفيزتى
تيموثاوس سالوفاكيوس	٤٦٠-٤٧٥ ، ٤٧٧-٤٨٢	ملكانى
حنا الأول	٤٨٢-٤٨٩	ملكانى
أثناسيوس الثانى	٤٩٠-٤٩٦	مونوفيزتى
حنا الأول	٤٩٦-٥٠٥	مونوفيزتى
حنا الثانى	٥٠٥-٥١٦	مونوفيزتى
ديورسقورس الثانى	٥١٦-٥١٧	مونوفيزتى
تيموثاوس الثالث	٥١٧-٥٣٥	مونوفيزتى
بولس التبنيسى	٥٣٧-٥٣٩	مونوفيزتى
تيودسيوس الأول	٥٣٥-٥٦٦	مونوفيزتى
زويل	٥٣٩-٥٥١	ملكانى

تابع بطاركة الاسكندرية فى العصر البيزنطى

أبوللينو	٥٥١-٥٧٠	ملكانى
حنا الثانى	٥٧٠-٥٧٨	ملكانى
بطرس الرابع	٥٧٦-٥٧٨	مونوفيزتى
دميان	٥٧٨-٦٠٥	مونوفيزتى
إيلوج	٥٨١-٦٠٧	ملكانى
انستاسيوس	٦٠٤-٦١٦	مونوفيزتى
تيودور سكريبون	٦٠٧-٦٠٩	ملكانى
حنا الثانى (المتصدق أو الرحوم)	٦٠٩-٦١٧	ملكانى
أندرونيكوس	٦١٦-٦٢٣	مونوفيزتى
بنيامين فى المرة الأولى والثانية بعد الفتح الإسلامى	٦٢٣-٦٦٢	مونوفيزتى
جورج	٦٢١-٦٣١	ملكانى
كيرس (المقوقس)	٦٣١-٦٤١	ملكانى
بطرس الرابع	٦٤١-٦٥٥	ملكانى

بطاركة القسطنطينية ٣٣٠-٦٤١م

اسكندر الأول	٣١٤-٣٣٧م
بولس الأول	٣٣٧-٣٣٩
ايوزيبيوس	٣٣٩-٣٤١
بولس الأول - مرة ثانية	٣٤١-٣٤٢
مقدونيوس الأول	٣٤٢-٣٤٦
بولس الأول- مرة ثالثة	٣٤٦-٣٥١
مقدونيوس الأول- مرة ثانية	٣٥١-٣٦٠
ايدوكسيوس	٣٦٠-٣٧٠
ديموفيلوس	٣٧٠-٣٨٠
ايفاجريوس	٣٧٠
جريجورى الأول النازيانزى	٣٧٩-٣٨١
مكسيموس الأول	٣٨٠
نيكتاريوس	٣٨١-٣٩٧
حنا كريسستوم (فم الذهب)	٣٩٨-٤٠٤
أرساكيوس	٤٠٤-٤٠٥
اثيكوس	٤٠٦-٤٢٥
سيسينيوس الأول	٤٢٦-٤٢٧
نسطوريوس	٤٢٨-٤٣١
مكسيميانوس	٤٣١-٤٣٤
بروكلوس	٤٣٤-٤٤٦
فلافيانوس	٤٤٦-٤٤٩
أناتوليوس	٤٤٩-٤٥٨

تابع بطاركة القسطنطينية ٣٣٠-٦٤١م

جيناديوس	٤٥٨-٤٧١م
أكاكيوس	٤٧١-٤٨٩
فرافيتاس	٤٨٩-٤٩٠
ايفيميوس	٤٩٠-٤٩٦
مقدونيوس الثانى	٤٩٦-٥١١
تيموثاوس الأول	٥١١-٥١٨
حنا الثانى	٥١٨-٥٢٠
ابيفاتوس	٥٢٠-٥٣٥
أنتيميوس الأول	٥٣٥-٥٣٦
ميناس	٥٣٦-٥٥٢
بوتيخيوس	٥٥٢-٥٦٥
حنا الثالث	٥٦٥-٥٧٧
حنا الرابع	٥٨٢-٥٩٥
كيرياكوس الثانى	٥٩٥-٦٠٦
توماس الأول	٦٠٧-٦١٠
سرجيوس الأول	٦١٠-٦٣٨
بيروس الأول	٦٣٨-٦٤١

باباوات روما فى العصر البيزنطى

كايوس	٢٨٣م
ماركللينوس	٢٩٦
ماركيللوس الأول	٣٠٨
يوزيبيوس الأول	٣١٠
ملتياديس	٣١١
سلفستر الأول	٣١٤-٣٣٥
مرقص	٣٣٦
يوليوس الأول	٣٣٧-٣٥٢
ليبريوس	٣٥٢-٣٦٦
داماسوس	٣٦٦-٣٨٤
سيريكيوس	٣٨٤-٣٩٩
أناستاسيوس	٣٩٩-٤٠١
أنوسنت الأول	٤٠١-٤١٧
زوسيموس	٤١٧-٤١٨
بونيفاس الأول	٤١٨-٤٢٢
سلستين الأول	٤٢٢-٤٣٢
سكتوس الثالث	٤٣٢-٤٤٠
ليو الأول	٤٤٠-٤٦١
هيلا روس	٤٦١-٤٦٨
سيمبليكوس	٤٦٨-٤٨٣
فيلكس الثانى	٤٨٣-٤٩٢
جلاسيوس الأول	٤٩٢-٤٩٦
انسطوسيوس الثانى	٤٩٦-٤٩٨

تابع باباوات روما فى العصر البيزنطى

سيماكوس	٤٩٨-٥١٤م
هورميداس	٥١٤-٥٢٣
حنا الأول	٥٢٣-٥٢٦
فيلكس الرابع	٥٣٠
بونيفاس الثانى	٥٣٠-٥٣٢
حنا الثانى	٥٣٣-٥٣٥
أجابيتوس	٥٣٥-٥٣٦
سلفيريوس	٥٣٦-٥٣٧
فيجيليوس	٥٣٧-٥٥٥
بيلاجيوس الأول	٥٥٦-٥٦١
حنا الثالث	٥٦١-٥٧٤
بيلاجيوس الثانى	٥٧٩-٥٩٠
جريجورى الأول	٥٩٠-٦٠٤
سابنيان	٦٠٤-٦٠٦
بونيفاس الثالث	٦٠٧
بونيفاس الرابع	٦٠٨-٦١٥
ديوسديدت	٦١٥-٦١٨
بونيفاس الخامس	٦١٩-٦٢٥
هونوريوس الأول	٦٢٥-٦٣٨
سفير نيوس	٦٤٠
حنا الرابع	٦٤٠-٦٤٢

الباباوات المنافسون

أثناء تواجد الباباوات السابقين على كرسى البابوية

قام بابوات منافسين لهم ليعلنوا أنفسهم بابوات

فيلكس الثانى	٣٥٥-٣٥٦م
أورسكبتوس	٣٦٦-٣٦٧
أبولاليوس	٤١٨-٤١٩
لاورنتيوس	٤٩٨-٥٠٥
ديوسكورس	٥٣٠

الولاة فى مصر فى العصر البيزنطى

مارك أوريليوس	٢٨٤م
ديوجين	٢٨٦
ڤلاڤيوس ڤاليروس بومبيانوس	٢٨٧-٢٨٩
أيميليوس روستيكيانوس (نائب الوالى)	٢٩٨
أيليوس بوبليوس	٢٩٩
كلوديوس كولكانوس	٣٠٣-٣٠٦
أمونيوس	٣١٢
أنطونيوس جريجوريوس	٣١٤
أوريليوس أنطونيوس	٣١٦
كونيوس أيير	٣٢٢
سانبيانوس	٣٢٣
يوليوس يوليانوس	٣٢٨
سبتميوس زينون	٣٢٩
ماجنتيانوس	٣٣٠
فلورنتيوس	٣٣١
هيجينوس	٣٣٢
باتريوس	٣٣٣
ڤلاڤيوس ڤيلاجريوس	٣٣٤-٣٣٧
ڤلاڤيوس أنطونيوس	٣٣٧-٣٣٨
تيودوروس	
ڤلاڤيوس ڤيلاجريوس	٣٣٨-٣٤٠
لوجينيوس	٣٤١-٣٤٣
بالاديوس	٣٤٤
نسطوريوس	٣٤٥-٣٥٢

سيباستيانوس ٣٥٢-٣٥٤ م

ماكسيموس ٣٥٥-٣٥٦

كاتافرونيوس ٣٥٦-٣٥٧

هيرموجنيس بارناسيوس ٣٥٧-٣٥٩

ايتاليكيانوس ٣٥٩

فاوستينوس ٣٥٩-٣٦١

جيرونتيوس ٣٦١-٣٦٢

ايكديكيوس أوليمبوس ٣٦٢-٣٦٣

هيريوس ٣٦٤

ڤيلاڤيانوس ٣٦٤-٣٦٦

بروكولنيانوس ٣٦٦-٣٦٧

ڤلاڤيوس ايتوليميوس ٣٦٧-٣٧٠

أوليمبيوس بالاديوس ٣٧٠-٣٧١

اثيليوس بالاديوس ٣٧١-٣٧٤

هادريانوس ٣٧٩-٣٨٠

يوليوس بوليانوس ٣٨٠

بالاديوس ٣٨٢

هيباتيوس ٣٨٣

أنطونيوس ٣٨٣

أوبتاتوس ٣٨٤

فلورنتيوس ٣٨٤-٣٨٦

يوزيبيوس ٣٨٦

باولينوس ٣٨٦-٣٨٧

ڤلاڤيوس أولبيوس أريثريوس ٣٨٨

اسكندر ٣٩٠

ايفاجريوس	٣٩٠-٣٩١ م
هيباتيوس	٣٩٢
بوتاميوس	٣٩٢
ايفاجريوس	٣٩٣
جيناديوس	٣٩٦
رميجيوس	٣٩٦
أرخيلاوس	٣٩٧
بنتاديوس	٤٠٣-٤٠٤
بوثاليوس	٤٠٤-٤٠٥
أورستوس	٤١٥
كالستوس	٤٢٢
كليوباتر	٤٣٥
كارموسينوس	٤٤٣
تيودوروس	٤٥١
فلورس	٤٥٢
اسكندر	٤٦٨-٤٦٩
بؤيثوس	٤٧٦
أنتيميوس	٤٧٧
ثيوكتستوس	٤٧٧-٤٧٨
ثيوجنوستوس	٤٧٩-٤٨٢
بيرجاميوس	٤٨٢
أبولونيوس	٤٨٢
أرسينيوس	٤٨٧
يوستاتيوس	٥٠١
تيودوسيوس	٥١٦

ديودوسيوس	٥٣٥م
رودون	٥٣٨
ليبريوس	٥٣٩-٥٤٢
يوحنا لاكساريون	٥٤٢
هيفاثيستوس	٥٤٢
جرمانوس جستينوس	٥٦٦
يوحنا	٥٨٢
باولوس	٥٨٢
يوحنا للمرة الثانية	٥٨٢
قسطنطيوس	٥٨٢
ميناس	٦٠٠
بتروس جستينوس	٦٠٢-٦٠٣
يوحنا	٦٠٩
نكيتاس	٦١٠
كيرس	٦٣١-٦٤٠
ثيودوروس	٦٤١

تعريف لبعض المصطلحات

علم طبيعة المسيح وشخصه	Christology
دستور الإيمان الرسمى	Acathistus
ضريبة الأريكون	Aerikon
ضريبة غير نظامية من الهبات	Aurumoblaticium
ضريبة إضافية قدرها $\frac{١}{١٢}$	Dikereaton
أسقفية - قسم إدارى	Diocese
الأقسام الإدارية	Dioceses
القائد العسكرى- الدوق	Dux
الضرائب الجماعية	Epiboli
وزير التظلمات	Epitiôndeêseon
النقابات	Collegia
القومس المشرف على أملاك الإمبراطور الخاصة	Comes Rerum Privatarum
موظفو الجمارك	Commerciaril
القومس المشرف على الهبات المقدسة	Count- Comes Sacrarum Largitioum
الخزنة	Curatorii
وحدة الضرائب	Zengarion وسميت Lugum
ضريبة المنازل (الموقد)	Kapnikon
ضريبة الرؤوس	Kephaletion
القضاة	Kritai
مجتمعات النساك	Laurai
المحاسب الأعظم	Grand Logariastes
مراقب الحسابات	Logethete
مراقب الخيل والبريد	Logethete of The Dromus
جباة الضرائب المقاطعات	Epoptai

ضريبة الأملاك الخاصة	Gleba
المونوفيزيتون (أصحاب الطبيعة الواحدة)	Monophysites
الإيمان بوحدة إرادة المسيح (المونوثيليتية)	Monotheletism
نظام موالى الأرض	Serfdom
الضريبة - المقرر- المعلوم	Quota
ولايات	Provinces
المندوب (وهو حاكم قسم إدارى)	Vicar
نائب مقاطعة	Vicarius
رجال الشرطة	Riparii
ضريبة الأرض الأساسية	Zeugaratikion
جابى الضرائب المركزى	Tôngenikon
القائد الأعلى للنوموس	StrategoS _____ Strategoi
والى مصر- القائم بالأعمال	Praefectus Aegyptus
القائد العسكرى	Praefectus Militaris
وحدة إدارية من وحدات النوموس	Toparchia
الوحدة الإدارية	Nomos _____ Nomoi
عاصمة النوموس	Metropolis
الخدمة العامة	Leitourgia
الدراخمة - عملة يونانية تزن ٣٠,٥ جرام	Drachma
جامع ضرائب الحبوب فى المركز	Dekaprotos
أرورة - وحدة قياس الأرض	Aroura

المصادر والمراجع

أولا : المصادر والمراجع العربية والمعربة :

- أسدر رستم (دكتور)

الروم ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، بيروت ، ١٩٥٥ .

- السيد الباز العرينى : (دكتور)

الدولة البيزنطية ، دارالنهضة العربية ، ١٩٨٢ .

مصر البيزنطية ، دار النهضة العربية ، ١٩٦١ .

- آمال محمد الروبى : (دكتور)

مصر فى عصر الرومان ، دراسة سياسية اقتصادية اجتماعية فى ضوء الوثائق التاريخية ٣٠ ق.م . ٢٨٤ م ، دار النهضة العربية ، ١٩٨١ .

- أومان ، شارل :

الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة د. مصطفى طه بدر، دار الفكر العربى، ١٩٥٣ .

- ايريس حبيب المصرى :

قصة الكنيسة القبطية ، الجزء الأول، الطبعة الخامسة ، الاسكندرية، ١٩٨٤ .

- بتلر ، الفريد ، ج :

فتح العرب لمصر ، الجزء الأول، ترجمة محمد فريد أبوحديد، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٩ .

- بل، هـ. ايديريس :

مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى، ترجمة د. عبد اللطيف أحمد على، دار النهضة العربية ، ١٩٦٨ .

- بينز ، نورمان :

الإمبراطورية البيزنطية ، الطبعة الأولى ، تعريب د. حسين مؤنس ، محمود يوسف زايد ، القاهرة ، ١٩٥٠ .

- توماس أرنولد :

الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة د. ابراهيم حسن وآخرون ، القاهرة ١٩٧٠ .

- جوزيف نسيم يوسف : (دكتور)

تاريخ العصور الوسطى الأوربية وحضارتها ، دار المعرفة الجامعية، ١٩٨٨ .

- جيبون ، ادوارد :

اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية ، ٣ أجزاء ، ترجمة محمد على أبودرة ، لجيب اسكندر ، د. محمد سليم سالم ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

- حسنين محمد ربيع : (دكتور)

دراسات فى تاريخ الدولة البيزنطية ، دار النهضة العربية، ١٩٨٦ .

- حسين الشيخ : (دكتور)

الرومان ، دار المعرفة الجامعية ، ١٩٨٩ .

- الخريدة النفسية فى تاريخ الكنيسة ، الجزء الأول، القاهرة ، ١٩٢٣ .

- دوسن كريستوفر :

تكوين أوربا ، ترجمة د. محمد مصطفى زيادة ، د. سعيد عاشور ، القاهرة ١٩٦٧ .

- رأفت عبد الحميد : (دكتور)

الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى، أثناسيوس، مكتبة سعيد رأفت ، القاهرة ، ١٩٨٠ .

- رنسمان ، ستيفن :

الحضارة البيزنطية، ترجمة د. عبد العزيز توفيق جاويد، القاهرة ١٩٦١ .

- زبيدة محمد عطا : (دكتورة)

اقليم المنيا فى العصر البيزنطى فى ضوء أوراق البردى، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٢ .

- سعيد عبد الفتاح عاشور : (دكتور)

أوربا فى العصور الوسطى، الجزء الأول ، الطبعة السادسة ، الأنجلو المصرية ، ١٩٧٥ .

- سيد أحمد على الناصرى : (دكتور)

- تاريخ وحضارة الرومان، من ظهور القرية حتى سقوط الجمهورية، جامعة القاهرة ، ١٩٨٢ .

- تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسى والحضارى ، الطبعة الثانية ، - دار النهضة العربية ، ١٩٧٨ .

حضارة وتاريخ وآثار مصر تحت حكم الإغريق والرومان من الفتح المقدونى حتى الفتح الإسلامى، دار النهضة العربية ، ١٩٨٩ .

- سيدة اسماعيل الكاشف : (دكتور)

مصر فى فجر الإسلام ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٤ .

- سيدة اسماعيل الكاشف وآخرون : (دكتورة)

تاريخ مصر الإسلامية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٣ .

- ابن عبد الحكم :

فتوح مصر وأخبارها ، القاهرة ، ١٩١٤ .

- عبد القادر أحمد اليوسف : (دكتور)

الإمبراطورية البيزنطية ، بيروت ، ١٩٦٦ .

- عبد اللطيف أحمد على : (دكتور)

-التاريخ الرومانى، عصر الثورة من ثيبريوس جراكوس إلى اكتافيوس أغسطس ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٨ .

- مصر والإمبراطورية الرومانية فى ضوء الأوراق البردية ، دار النهضة العربية ، ١٩٨٨ .

- فيلو باترون :

سلسلة آباء الكنيسة ، آباء الاسكندرية ، الكتاب الثانى، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، القاهرة ، ١٩٩٢ .

- الإمام القرطبى :

الإعلام بما فى دين النصارى من الفساد والأوهام ، الجزء الأول، تقديم وتحقيق وتعليق د. أحمد حجازى السقا ، دار التراث العربى، ب .ت .

- القلقشندى (أبو العباس أحمد بن على) :

صبح الأعشى فى صناعة الإنشا ، الجزء الخامس ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

- كانتور ، نورمان ف . :

العصور الوسطى الباكرة ، الجزء الأول ، ترجمة د. قاسم عبده قاسم ، دار عين للدراسات ، ١٩٩١ .

- كولتون ، ج . ج :

عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة ، ترجمة د. جوزيف نسيم يوسف ، الطبعة الأولى، دار المعارف، ١٩٦٤ .

- كيرلس الأنطونى : (القمص)

عصر المجامع ، ١٩٥٢ .

- محمد نور فرحات : (دكتور)

تاريخ القانون ، القاهرة ، ١٩٨٥ .

- محمود الحويرى : (دكتور)

مصر فى العصور الوسطى، دار عين للدراسات ، ١٩٩٧ .

- مصطفى العبادى : (دكتور)

مصر من الاسكندر الأكبر إلى الفتح العربى، الأنجلو المصرية، ب. ت .

- المقريزى :

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، الجزء الأول، بولاق ، ١٢٧٠هـ .

- موسى ، سانت ل . ب :

ميلاد العصور الوسطى ، ترجمة د. عبد العزيز توفيق جاويد ، القاهرة ١٩٦٧ .

- نفتالى لويس :

الحياة فى مصر تحت الحكم الرومانى، ترجمة د. السيد جاد ، الاسكندرية ، ١٩٩٠ .

- هايد ، ف :

تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى، الجزء الأول، ترجمة أحمد محمد رضا ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٥ .

- هسى، ج. م :

العالم البيزنطى ، ترجمة د. رأفت عبد الحميد ، مكتبة سعيد رأفت ، ١٩٧٦؛ والطبعة الثانية ، دار عين للدراسات ، ١٩٩٧ .

- هلستر ، دارن :

أوربا فى العصور الوسطى، ترجمة د. محمد فتحى الشاعر، الأنجلو المصرية ، ١٩٨٨ .

- يوسابيوس القيصرى:

تاريخ الكنيسة ، الطبعة الثانية ، ترجمة القمص مرقس داود ، مكتبة المحبة، القاهرة ، ١٩٧٩ .

ثانيا : المصادر والمراجع الأجنبية :

- Baker , D., Relations between East and West in the Middle Ages , Britain, 1973 .

- Bury , J . B , History of the Later Roman Empire , vol . 2 , New York , 1958 .

- Cambridge Medieval History , II , edited by Bury , Cambridge, 1964 .

- Deanesly , M . , History of Middle Europe from 476 - 911 , New York , 1960 .

- Diehl, ch ., Byzantium : Greatness and Decline , New Jersy , 1954 .

- ______ L' Egypte Chrétienne et Byzance : (Hanoteau : Histoire de la Nation Egyptienne III) , Paris .

- ______ Manuel d'Art Byzantine , Paris , 1910 .

- Evogarius , History of the Church , 431-594 , trans . by Memoires of the Authores, London , 1854 .

- Hardy , B . R ., Christian Egypt , New York , 1952 .

- Holmes , W . G ., The Age of Justinian and Theodora II , second edition , London , 1912 .

_ Johnson , A . C .& Louis , C . W ., Byzantine Egypt, Economic studies , Prencetion , 1949 .

- Jones, A . H . M., Decline of the Ancient World Longman , 1984 .

- Koenigsberger, H . G ., Medieval Europe , 400-1500 , Longman , 1987 .

- Lamb, H ., Constantinople , New York , 1957 .

- Levtchenks , M. V ., Byzance des Origines, A 1453 , Paris , 1949 .

- Magoulias , H . J ., Byzantine Christianity : Emperor , Church , and the west, Chicago, 1970 .

- Maspero , Jean Etudes Sur Les Papyrus d' Aphrodité , VII , 1910 .

- Matter , M. , Histoire de L' Ecole d'Alexandrie , vol . 3 , Paris , 1840 .

- Meyendorff, J ., " Justinian: The Empire and The Church " in Dumbarton Oaks Papers , vol . 22 , 1968 .

:ـ Novelles de L'Empereur Justinien , Traduites en francais par M. Brenger fils, de Valence (Drôme) Paris .

Leary, How The Greeks Science Passed To The Arabes, London , 1951.

O torogorsky , G ., The History Of The Byzantine State , Trans . by Joan Hussy , Oxford , 1968 .

The Oxy Rhy Nchus Papy Ri, Part VIII , Edited by Litt , London , 1911 .

rson . E . A ., The Alexandrian Library , London 1952 .

us , The Secret History , Trans to English by G . A . Williamson , on 1966 .

. T ., Byzantium , London 1969 .

, Germain , L'Administration civil de L'Egypte Byzance , Paris,

.

mon , J ., Histoire de L'Ecole d'Alexandrie, 2 vols , Paris , 1845 .

igen , W . & Boak , A., A History Of Rome , A. D. 565 , Sixth Edition don W . D .

dike , L ., The History Of Medieval Empire, U . S . A ., 1956 .

, P. N ., Justinian And His Ages , First Edition London , 1951 .

hev , A . A ., History Of Byzantine Empire , vol I , Madison , 1928 .

Whi am , M . A ., The History Of The Christian Church To The Separa- n Of East And West , Fourth Edition , London , 1931 .

hariah , The Syriac Chronicle , trans . by Hamilton & Brooks , London, 1899 .

رقم الإيداع : ١١٦٥٧ / ٩٧

I.S.B.N. 977- 5487- 77- 3

طبع بمطابع الهداية - البراجيل - الجيزة





للدراسات و البحوث الانسانية و الاجتماعية
FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES